محاضرات

فى

تاريخ وحضارة مصر الوسيط

أ.د/ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم

استاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

أ.م.د/ محمد عبد الشافى المغربى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

قنا٢٠٢٢-٢٠٢٣م

الكلية	الآداب بقنا
الفرقة	الثانية
التخصص	جغرافيا برنامج مميز
عدد الصفحات	٢٤١
إعداد	أ.د/ممدوح عبد الرحمن عبد الرحيم أ.م.د محمد عبدالشافى

مقدمة :

فترة الحكم البيزنطى فى مصر، أو تاريخ مصر البيزنطية، هى الفترة التى كانت فيها مصر ولاية بيزنطية ، وقطراً تابعاً للإمبراطورية البيزنطية ، وهذه التبعية استمرت نحو ثلاثة قرون ونصف القرن تقريباً ، وعلى الرغم من أن مصر لم تكن مقراً لرأس الدولة أو حاكمها ، إنما تولى أمرها والى يسير أمورها من قبل الحكومة المركزية فى العاصمة البيزنطية القسطنطينية، إلا أنه كان لها أهمية خاصة سياسية وعسكرية وحضارية ، وكانت مصر فى تلك الفترة قد شهدت تحولات خطيرة فى شئونها ، فى عقيدتها وشخصيتها وتراثها وقيم شعبها ومثله ، وما قدمته مدرستها العلمية وما تبعها من علم وفن وحضارة ، وتشكلت وبرزت فيها عادات وتقاليدها ربما انساب إليها من موروثات قديمة وما استجد من هذه العادات والتقاليد ، كما لعبت الكنيسة المصرية ورجال الدين دوراً كبيراً فى بلورة وتحديد التعاليم الأساسية للمسيحية فى كل أنحاء العالم المسيحى .

ويسعدنى أن أقدم لطلابى فى جامعة جنوب الوادى مجموعة محاضرات تتناول أهم معالم تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، اعتمدت فيها على ما قدمه أساتذتى فى مجال العصور الوسطى من مؤلفات مختلفة هى مؤلفات صافية قدموها لقراء العربية الكرام فى إبداع وأصالة .

دكتور

محمد عبد الشافى المغربى

فهرس الموضوعات

الموضوعات	رقم الصفحة
المقدمة	٦
الفصل الأول "مصر قبيل العصر البيزنطى"	٩-٣٣
الفصل الثانى الحياة الدينية فى مصر البيزنطية	٣٤-٧٥
الفصل الثالث التنظيمات الإدارية فى مصر البيزنطية	٧٦-٨٧
الفصل الرابع التنظيمات الاقتصادية فى مصر البيزنطية	٨٨-١٢٤
الفصل الخامس التنظيمات الحربية والقضائية فى مصر البيزنطية	١٢٥-١٥٩
الفصل السادس الحياة الاجتماعية والثقافية	١٦٠-٢٠٩
الفصل السابع الفتح العربى لمصر	٢١٠-٢٤٠

الفصل الأول

مصر قبيل العصر البيزنطى

أهداف الفصل الأول

بنهاية هذا الفصل يجب على الطالب أن يكون ملماً بالآتي:

١- التعرف على أحوال مصر قُبيل العصر البيزنطي.

٢- –النظام الإداري في مصر تحت حكم الرومان

٣- إشكالية مصطلح مصر البيزنطية

الفصل الأول

مصر قبيل العصر البيزنطى

أولاً : تمهيد :

حبت الطبيعة مصر ببيئة جغرافية فريدة ممتازة ، ففيها يجرى نهر النيل العظيم الذى لعب دوراً هاماً فى توحيد واديه ، وأوجد سبل التضامن والنظام والطاعة بين سكانه فى مختلف العصور التاريخية ، ولاشك أن موقع مصر الجغرافى لعب دوراً خطيراً فى حياتها وأثر فيها ، فمصر تتوسط البحرين المتوسط والأحمر ، أولهما يربط مصر بالغرب الأوروبى والمحيط الأطلسى ، وثانيهما يصل مصر بالمحيط الهندى وبلاد الشرق الأقصى .

على أن هذا الموقع كان نعمة لمصر فى فترات قوتها ، ووبالاً علها فى فترات ضعفها ، ففى العصور التى استمسكت فيها مصر بوحدتها ، ازدهرت حضارتها ، وامتد نفوذها ، وردت الطامعين فى أرضها ، وفى العصور التى انحلت فيها وحدتها ، وعمتها الفوضى طمع فيها الطامعون ، وسعى إليها الغزاة من أدنى الأرض وأقصاها ، وصارت مصر الضعيفة أداة يسخرها العالم ويستغل موقعها ، ويوجهها وجهات كثيرة ، قد غيرت عليها أكثر من مرة مظهر ثقافتها ، وإن لم تستطع أن تغير من أسس حضارتها الأولى .

وقد أثرت التضاريس فى طابع مصر ، فعاش المصريون فى واديهم الطويل الضيق على ضفاف النيل ، تفصلهم عن العالم الخارجى صحروات شاسعة على الجانبين ، تقيه كأنها الدروع شر الغزوات ، ولذلك كان الشعب المصرى دائماً يكاد أن يكون منفصلاً عن العالم المجاور له ، وفضلاً عن ذلك كان للصحارى أثرها المعروف، والذى تمثل فى أن عبورهم كان عسيراً على المهاجرين من الرعاة ، فلم يصل مصر منهم إلا عناصر قليلة ، بل كان سبباً فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد ، تغير معالم سكانها الجنسية تغييراً أساسياً ، كما حدث فى بعض

البلاد المجاورة الأخرى ، فلم نسمع فى تاريخ مصر الطويل بغزوة كبيرة العدد غيرت مظهر مصر وتكوينها الجنسى ، كما حدث فى غزوة الآريين لشمال الهند ، أو غزوات المغول لسهل الصين الشمالى أو لجنوب سهل روسيا، أو حتى غزوات الساميين لمنطقة آشور القديمة ، ولعل هذا هو السبب فى أن سكان مصر استطاعوا على الدوام أن يحافظوا على تكوين الجنسى العام ، فاستوعبوا الغزاة وهضموا أعدادهم القليلة أو المعقولة والتى سمحت بها قسوة الصحراء . (١)

وكان يقطن فى جنوب مصر شعوب كانت على الدوام أقل من المصريين تحضراً ، ولم تكن للمصريين صلات بحضارات تضارع حضارتهم إلا عن طريق البحر المتوسط وعن طريق الدلتا ، فكان من الطبيعى أن تكون نظمهم السياسية مستقلة بذاتها إلى حد بعيد ، وأن يتمسكوا بعاداتهم وتقاليدهم الموغلة فى القدم ، وأن يتولد فيهم أيضاً قدر من العزلة الروحية والاعتداد القومى ، وهى صفات فى وسعنا أن نلمسها فى كثير من الأساطير والتقاليد القومية .

ويلاحظ أن العدو الزاحف على مصر من ناحية البحر المتوسط يجد صعوبة فى اختراق شبكة قنوات المياه التى تقطع أنحاء الدلتا ، خاصة أيام الفيضان ، مثلما حدث لجيش الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا فى سنة ١٢٥٠م ، ومثلما حدث لشعوب البحر – كما أطلق عليهم المصريون – من قبل بزمن طويل فى عهد رمسيس الثالث (١١٥١–١١٨٢ق.م) ، والزاحف على مصر من ناحية الغرب تعترضه الصحراء ، مثلما أدرك القائد الألمانى روميل صعوبة القتال على بعد مئات الأميال عن قاعدة تموينه بلا عون سوى الصحراء فى مؤخرته ضد خصومه الإنجليز الذين كانوا بوسعهم أن يعتمدوا على موارد النيل كافة ، ومن الثابت أن الغزاة نجحوا مرتين فى فتح مصر من جهة الغرب ، كما فعل نيقتاس *Nicetas* فى حملته سنة ٦٠٩م ، وكان هرقل الحاكم البيزنطى لولاية إفريقية قد وضع خطة للتخلص من الإمبراطور البيزنطى فوقاس (٦١٠–٦٠٢) الذى صار عاجزاً عن إدارة أمور القسطنطينية لقسوة ، فأرسل ابن أخته نيقتاس لغزو مصر والاستيلاء عليها بهدف أن يقطع عن القسطنطينية إمدادات القمح التى كانت تصلها من مصر ، وتوجه إلى الإسكندرية حيث اشتبك فى قتال مع حاكمها البيزنطى ، انتهى لصالح نيقتاس ، أما المرة الثانية التى نجح فيها الغزاة فى فتح

مصـــر مـــن ناحيـــة الغـــرب ، فقـــد حـــدثت علـــى أيـــدى الفـــاطميين ســـنة ٣٥٨هـــ (٩٦٩م) ، وذلك عندما أرسل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قائده القدير جوهر الصقلى لفتح مصر ، فخرج جوهر بجيشه وسار فى نفس الطريق الذى سلكه فيما بعد القائد الألمانى روميل ، ولكنه كان يعلم مدى ما يعانيه الجيش من صعاب عند عبور الصحراء الممتدة الجدباء ، ولهذا فقد عبّد الطرق ، وحفر الآبار وبنى المنازل للاستراحة على طول الطريق من تونس إلى مصر ، ووصل جوهر الإسكندرية ودخلها دون قتال ، وواصل طريقه إلى الفسطاط فدخلها ، وباستثناء هاتين المرتين اللتين وفق فيها نيقتاس وجوهر الصقلى فى دخول مصر من ناحية الغرب ، نلاحظ أن القاعدة صحيحة بوجه عام ، وهى أن الغزاة الذين نجحوا فى فتح مصر أتوا من ناحية المشرق عبر شبه جزيرة سيناء زاحفين بمحاذاة الفرع الشرقى للنيل إلى حيث توجد القاهرة الآن ، أما من ناحية الجنوب فوادى النيل نفسه يهيئ مدخلاً للغزاة ، غير أنه لم يحدث إلا نادراً أن كانت بجنوب مصر دولة قوية تستطيع أن تهدد مصر بأكثر من غارات تخريبية ، بالإضافة إلى أن ضيق الخانق شمالى أسوان وصعوبة الملاحة الناجمة عن الشلال الأول تجعل من السهل الدفاع عن هذا المدخل الجنوبى للبلاد . (٢)

وينقسم تاريخ مصر على مداه الطويل منذ توحيد الوجهين البحرى والقبلى فى دولة مركزية واحدة وكيان سياسى واحد على يد مينا أو نارمر أول ملوك الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ ق.م وحتى وقتنا الحاضر إلى عصرين متميزين هامين : عصر الفراعنة وفيه نشأت أول إمبراطورية على ضفاف النيل واستمر هذا العصر حتى نهاية الدولة الحديثة تقريباً ، تلاه أن خضعت مصر لقوى دخيلة وأصبحت مستعمرة ، أما العصر الآخر فقد بدأ منذ أن دخل الإسلام إلى مصر سنة ٦٤١م وطبعها بطابعه ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ .

وفى مصر الفرعونية احتفظ شعبها بملامحه الجسمية والنفسية إلى حد بعيد حتى نهاية العصور القديمة ، وما تلاها من عصور بصورة قلما نجدها فى معظم الشعوب القديمة التى تحللت فى أقوام أخرى بفعل أحداث التاريخ ، وشيدت مصر الفرعونية حضارة عريقة متصلة نابعة من داخلها هى أقدم الحضارات جميعاً فكانت مصرية فى ديانتها وعاداتها وتقاليدها ، وقد لعبت تلك الحضارة دوراً

حيوياً فى التأثير على العالم المجاور لها ، فعبرت البحر المتوسط إلى اليونان واجتازت بوابة مصر الشرقية إلى بلاد الشام والرافدين .

ولم آذن العصر الفرعونى بالزوال دخلت مصر مرحلة جديدة من تاريخها ، كان للمدينة فيها المقام الأول ، وكان الإسكندر الأكبر (ت ٣٢٣ق.م) أول من أزاح الستار عن تلك المرحلة التى توصف إجمالاً بأنها حضارة جديدة تكونت من عناصر مختلفة صهرت فى بوتقة المدينة المصرية ، فالمدينة هى حجر الزاوية فى الإمبراطورية التى شيدها الإسكندر ، وخير مثال لذلك مدينة الإسكندرية التى عرفت رسمياً بأنها " الإسكندرية المتاخمة لمصر " ، فليست هى مصر أو من مصر . والحقيقة أن الإسكندرية كانت مدينة عجيبة ، فرغم اتصالها بالداخل عن طريق النيل ، إلا أنها لم تنتم أبداً إلى مصر ، ولم تكن مركزاً لقطر بقدر ما كانت بنيتها الفوقية ، وقد تحدث السكان عن السفر من الإسكندرية " إلى مصر " *Ad Aegyptum* ، أى إلى الوادى ، فدورها الرئيسى ظل مركزاً هللينستياً ، كما أن وظيفتها الأولى لا تخرج عن كونها ميناء رئيسياً لشرق البحر المتوسط وعاصمة لإمبراطورية ، فى حين ظل الجانب الأكبر من البلاد فى الصعيد والدلتا مصرياً خالصاً ، وكلما بعدنا عن الإسكندرية قل التحدث باليونانية .

وفى عصر البطالمة (٣٠-٣٢٣ق.م) الذين ورثوا الإسكندر فى حكم مصر ، لعبت مصر دوراً خطيراً فى السياسة العالمية ، فكانت الإسكندرية كبرى المدن الهلينستية ومنافسة روما ، محوراً أساسياً من محاور صراع القوى ، وكانت مصر مستقلة فعلاً تحت حكم البطالمة وإن كانوا أجانب عن مصر ، وفى عصر البطالمة لم تتجاوز مراد مصر حدودها ، بل عملوا على استقلال تلك الموارد فى النهوض بمصر ، فاعتنوا بالزراعة ونظموا طرق المواصلات والتجارة ، وكان كثيراً من الملوك البطالمة يتوجون طبقاً للتقاليد المصرية القديمة فى ممفيس ، حتى أنهم كانوا يقلدون الفراعنة بالزواج من أخواتهم لينالوا رضاء الآلهة من جهة ، وليحافظوا على نقاوة دم الأسرة المالكية من جهة أخرى ، وفى عصر البطالمة امتزج الإغريق بالمصريين باطراد ، حتى أصبح الزواج شائعاً بينهما ، وفى وثائق هذا العصر نجد أسماء إغريقية ومقدونية ومصرية داخل الأسرة الواحد ، أما المصريون فى هذا العصر فقد عاشوا –

بوجه عام – كما كان يعيش أجدادهم من قبل ، محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم يعبدون آلهتهم ويخضعون إلى حد كبير لقوانينهم الفرعونية .

ونتيجة لذلك لم تتأثر مصر الحضارة اليونانية إلا تأثراً سطحياً ، على الرغم من وفود الإغريق زرافات ووحدانا ، واستقرهم فى قراها ، وامتزاجهم بأهلها حقبة طويلة امتدت إلى ثلاث قرون ، وانتهى الأمر ر بتأغريق المصريين بل بتمصير الإغريق .

وقد حافظ البطالمة على نفوذهم فى مصر بجيش صغير من المرتزقة تألف من المقدونيين والإغريق ، وفرضوا عليها نظاماً مركزياً عالياً ، غير أنهم أثقلوا المصريين بالضرائب الفادحة والاحتكارات ، بهدف الحصول على دخل وفير يمكنهم من العيش بترف فى بلاطهم الرائع فى الإسكندرية من ناحية ، وتمويل سياستهم التوسعية من ناحية أخرى ، الأمر الذى جعل قلوب المصريين تشتعل بكراهية البطالمة وتمتلئ نفوسهم غضباً ، وأظهروا نقمتهم فى إشعال لهيب الثورات ضدهم خاصة فى أقصى الجنوب .

وقد اختلف وضع مصر فى العصر الرومانى عنه فى العصر البطلمى ، فالرومان الذين شيدوا أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية ، والتى تأتى أهميتها من أنها جاءت فى نهاية العالم القديم ، اعتبروا الشعوب الخاضعة لهم أجانب عنهم برابرة ، وهو مصطلح أطلقه الرومان على الشعوب الأجنبية ، وأطلقوه أيضاً على اليونان صاحبة الفضل على الحضارة الرومانية ، وذلك لأن بلاد اليونان خضعت لنفوذ الرومان ، ومنذ أن أضحت مصر ولاية رومانية فى سنة (٣٠ ق.م) ألحق أوكتافيانوس أوغسطس مصر بممتلكات الإمبراطورية الرومانية ، وجعلها تابعة له مباشرة فلم يسمح لأى سناتور بدخولها إلا بإذن منه ، وقد دفعه إلى ذلك أن مصر بمواردها الغنية وموقعها الاستراتيجى من المحتمل أن تكون مصدر خطر على الإمبراطورية إذا وضعت تحت حكم سناتور ، وهو أمر يغريه على الثورة ضد الإمبراطورية والاستقلال بمصر .

وترتب على الفتح الرومانى لمصر أن صار الإمبراطور الرومانى وريثاً للفراعنة والبطالمة ، والسيد المطلق على مصر، والمالك الوحيد لها ، وظلت مدينة الإسكندرية درة الجزء الشرقى من البحر

المتوسط المدينة الكبيرة الوحيدة الجديدة باسمها ، واستمرت فى الازدهار ، وأصبحت المدينة الثانية فى الإمبراطورية والعاصمة الثقافية للعالم الهللينستى ومركزاً ضخماً للتجارة والصناعة ، يتردد عليها العرب والأثيوبيون والهنود وغيرهم . (٣)

وفى ظل الحكم الرومانى عانى الفلاحون المصريون بصورة لم يسبق لها مثيل ، فالضرائب المفروضة عليهم صارت أشد وطأة عما كانت عليه فى أواخر حكم البطالمة ، كما كان على الفلاح المصرى أن يدفع ضريبة الرأس *Pill Tax* التى كانت مقررة على البالغين من سن الرابعة عشرة حتى سن الستين ، فى حين كان يعفى منها الطبقات العليا المؤلفة من الرومان والإغريق واليهود الذين كانوا يعيشون فى المدن ، وأعضاء أكاديمية الإسكندرية ، وعدد معين من الكهنة . ومما يدل على تعسف السلطات الرومانية فى مصر فى جميع الضرائب أن الإمبراطور تبيريوس (١٤-٣٧م) خليفة أوغسطس قيل

أنه عنف حاكم مصر لإرساله ضرائب زائدة عن النصاب السنوى المحدد إلى روما ، وكتب إليه قائلاً : " لقد وليتك على مصر لتجز صوفها لا لتسلخها حية " .

عاشت روما على قمح مصر دون مقابل ، فقد كان على مصر أن ترسل إلى روما ثلث احتياجاتها من القمح الذى تستهلكه سنوياً ، وكان معدل ما ترسله مصر سنوياً حوالى ستة ملايين أردب أى حوالى ١٣٥ ألف طن ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كان على مصر أن تطعم جيش الاحتلال الرومانى المقيم بأراضيها ، فإذا أضفنا أن العصر الرومانى لم يكن عصر استصلاح أو توسع زراعى أو تقدم خاص فى وسائل الرى والإنتاج ، أدركنا مدى الاستنزاف الذى تعرضت له مصر والذى وقع عبؤه الأكبر على الفلاح المصرى .

ومع أن المصريين فقدوا استقلالهم السياسى على أيدى الرومان ، وعانوا ما عانوه من قهر واستغلال واستنزاف ، إلا أنهم استمسكوا بديانتهم القديمة ، وظلوا مخلصين لآلهتهم ويصلحون المعابد لعبادتهم .

وقد كان الرومان فى بادئ الأمر ينظرون إلى معتقدات المصرين الدينية نظرة احتقار وازدراء ، ولكنهم لم يلبثوا أن أخذوا يتطلعون إلى تعرف أسرارها ، فاستهوتهم تلك الأسرار وما يقترن بها من أساطير ، فخضعوا لسلطان تلك الآلهة وشاركوا رعاياهم المغلوبين على أمرهم فى عبادتها وتقديم القرابين إليها ، بل أقاموا التماثيل والمعابد لبعضها حتى فى روما ذاتها .

ففى عصر الإمبراطور نسباسيان (٦٩-٧٩م) *Vespasian* أول أباطرة أسرة فلافيوس بدأ العصر الذهبى لعبادة إيزيس فى روما ، ويوجد نقش من عصر هذا الإمبراطور كتبه أحد العبيد تعظيماً لإيزيس التى لا تقهر ، وقد شجع الإمبراطور دوميتيان (٨١-٩٦م) ديانة إيزيس ، ومن أجلها بنى معبداً لإيزيس وسرابيس .

وفى العصر البيزنطى ، وهو العصر الذى يراه بعض المؤرخين يبدأ فى مصر بسنوات حكم الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) أو بعصر قنسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) ، كان إنهاك الشعب المصرى بالضرائب الثقيلة مصدراً من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة ليكونوا لهم ثروة خاصة على حسابه ، وكانت مصر فى نظر الأباطرة البيزنطيين – مثلما كانت فى عصر الأباطرة الرومان – حقلاً كبيراً ينتج القمح فاستغلوها كما لو كانت مواردها لا تنتهى ، واستغلوا أهلها كما لو كانوا منجماً من ذهب لا ينضب معينه ، ولم يهمهم أمر الأمن فى الريف ، ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين حين وآخر ، وفى أخريات العصر البيزنطى تدهور الاقتصاد الزراعى والإنتاج بالإهمال والعجز والبطش إلى حد الانهيار ، ووصل ابتزاز الفلاح إلى حد المصادرة والإرهاب والتعذيب ، حتى أوشك أن يتحول إلى طبقة أقنان الأرض ، وهبطت حالته الاجتماعية إلى نقطة الحضيض فى كل تاريخ مصر تقريباً . كل ذلك كان باعثاً للمصريين على الترحيب بالعرب الفاتحين فى القرن السابع الميلادى ، يحدوهم الأمل فى أن يتمتعوا بحياة فيها رخاء وطمأنينة . [٤]

ومنذ زمن دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥) إلى أواخر القرن الخامس، انقسمت الإمبراطورية إلى قسمين أو أكثر من الناحية الجغرافية، على أن التقسيم السائد هو أنها انقسمت شطرين : الشطر

الشرقى والشطر الغربى ، ويحكم الشطرين إمبراطور واحد من الناحية القانونية ، وهذا التقسيم ظلّ مستمراً من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٧٦ بل إلى سنة ٤٨٠ ، غير أنم كلا من الشطرين اتخذ سبيلاً معيناً ، وما كان بينهما من علاقات لم تكن دائماً ودية ، بل يصح أن يحدث بين الشطرين علاقات عدائية .

النظام الادارى

هذا النظام الذى جرى الاهتمام بتفاصيل إنشائه لم يكن المقصود منه سوى الإبقاء على وحدة الإمبراطورية التى اشتهرت بعدم التجانس ، والتى تعرضت للتفكك ، وهددها الإفلاس . يضاف إلى ذلك أن وضعها الجغرافى ألزمها بعبء ثقيل هو ا، تدافع عن حدودها فى أربع جهات ، هى الراين والدانوب والفرات والنيل .

ثم أن إدارة دولة ضخمة بجهازين إداريين مستقلين برغم ما بينهما من التماثل والتشابه ، دون أن يجرى حكمها من مركز واحد ، بل من مركزين على أساس عدم التضحية بوحدتها ، يعتبر فى الواقع تجربة جديدة ، وفعلاً ظل هذان الجهازان الإداريان يعملاً فى شئ من الاستقامة ، وكان من الممكن أن يحققا نجاحاً باهراً لو أن الحاكمين اللذين يقومان على إدارتهما امتازا بكفاءة فائقة ، غير أنهما تعرضا لمشاكل كثيرة ، وارتكبا أخطاء كبيرة لاسيما فى الناحيتين الاقتصادية والمالية .

الإدارة المدنية :

تعرضت التقسيمات الإقليمية القديمة إلى شئ من التغيير والتعديل زمن دقلديانوس ، إذ ازداد عدد أقاليم ، وتضاءلت مساحتها وتولى أمر هذه الأقاليم الجديدة حكام ليس فى يدهم إلا سلطة مدنية خالصة .

ثم حدث أن عدداً من الأقاليم المتجاورة اتحد سوياً فتالف منها وحدات اتخذت اسم *Docese* تطابق فى مساحتها الإقليم الذى كان معروفاً قبل زمن دقلديانوس ، وتولى حكومة هذه الوحدة الإدارية الجديدة موظف ليس فى يده أيضاً إلا سلطات مدنية خالصة .

واجتمعت هذه الوحدات الجديدة بدورها فى أربع ولايات كبيرة يتولى كل منها موظف كبير بلقب *Praetorum Praefectus* يرأس كل الإدارة المدنية ، ويشرف على حكام الأقاليم والدوقيات .

ويختلف هذا النظام عما كان معروفاً من قبل فى ثلاثة مظاهر أساسية : انفصال السلطة المدنية عن السلطة العسكرية ، صغر مساحة الوحدات الإقليمية ، ثم إنه صار يفصل بين الإمبراطور وحاكم الإقليم موظفان كبيران وهما : *Praetorum Praefectus Viearius* ، ويصح أن نضيف إلى ذلك مظهراً رابعاً ذلك أن الوالى الكبير (الذى جرده قنسطنطين من سلطته الحربية) حاز من ناحية الإدارة المدنية ، من السلطة ما يزيد اتساعها ومداها على ما ناله أى حاكم من حكام الأقاليم فى ظل نظام أغسطس .

ولتحقيق التنظيم الإدارى انقسمت الإمبراطورية الرومانية فى نهاية القرن الرابع إى أربعة أقسام إدارية كبيرة وهى : غاليا وإيطاليا وإيلليريا والشرق ، فاشتملت غاليا على بريطانيا وغالية (فرنسا) وأسبانيا والطرف الشمالى الغربى من أفريقيا ، أما إيطاليا فشملت إفريقية وإيطاليا والأقاليم الواقعة بين نهر الدانوب وجبال الألب والطرف الشمالى الغربى من شبه جزيرة إيللبريا ، وكل هذه الجهات تخضع للإمبراطور الذى يتخذ مقره بإيطاليا . وتعتبر إيللبريا أصغر الأقاليم الكبرى مساحة فاشتملت على داسيا ومقدونيا وبلاد اليونان .

وخضع لإقليم الشرق تراقيا ومصر والأملاك الإمبراطورية بآسيا وتخضع كل هذه الجهات للإمبراطور المقيم بالقسطنطينية ، واشتمل إقليم الشرق على خمسة أقطار *Dioceses* وهى تراقيا والأملاك الأسيوية وبونطوس والشرق ومصر .

واتخذ حاكم كل قطر من هذه الأقطار لقب *Vicarius* ما عدا حاكمى الشرق ومصر ، إذ اتخذ حاكم الشرق لقب كونت الشرق *Comes Prientis* واتخذ حاكم مصر لقب الوالى الأوجستالى *Praefectus Augustalis* .

على أن خضوع وتبعية كل واحد من هؤلاء الموظفين لغيره لم يكن تاماً ، أو دقيق التدرج ذلك أن العلاقة مثلاً بين حاكم القطر وبين الوالى *Prefect* لم تكن مباشرة فحسب ، بل إن فى استطاعة الإمبراطور أن يتصل مباشرة بوالى الإقليم وحاكم القطر ، على أن نمت قطران كان لهما وضع خاص وهما أفريقيا وآسيا ، إذ أنهما خرجا عن اختصاص كل من الوالى أو الوالى الكبير ويحكمهما الإمبراطور مباشرة.

ويقيم الوالى الكبير للشرق بالقسطنطينية ويضارعه فى المكان الوالى الكبير لإيطاليا ويعتبران أعلى الموظفين مكانة فى الإمبراطورية ، ويؤدى الوالى الكبير أعمالاً إدارية ومالية وقضائية بل وتشريعية ويتم تعيين حاكم الأقطار بناء على توصيته ، وله الحق فى عزلهم بعد موافقة الإمبراطور ، ويتلقى بانتظام تقارير من ولاة الأقاليم وحكام الأقطار عن أحوال الإدارة ، فى كل هذه الجهات وله خزانة خاصة ، ومن واجباته أن يدفع نفقات الجيش وبمده بالمؤن ويعتبر أيضاً كبير القضاة فترفع إلى محكمته القضايا التى تم الفصل فيها فى محاكم صغرى وتعتبر أحكامه نهائية فلا يجرى استئنافها إلى الإمبراطور، ومن حقوقه أنه بماله من سلطة يستطيع أن يصدر قوانين بريتورية، غير أن هذه القوانين لا تتعلق إلا بالأمور التنفيذية التى تحتاج إلى شئ من الشرح والتفصيل ن وأما القوانين التى يصدرها الإمبراطور فتصدر فى صورة قرار موجه إلى الوالى الكبير باعتباره من رؤساء الإدارة الإقليمية ، ولديه من الأجهزة ما يكفل إذاعتها ونشرها فى سائر أنحاء الإمبراطورية .

ومن أهم مظاهر النظام الإدارى ما حدث من تنظيم فئة صغار الموظفين فى درجات هرمية مع زيادة عددهم ، والواقع أن لفظتى إدارة ديوان *Office* وموظف *Official* مشتقان من المعنى الذى تنطوى عليه لفظة *Officium* التى تدل على هيئة من الموظفين العسكريين والمدنيين ، فلكل من الوزراء والولاة وكبار القادة العسكريين ، ديوان أو إدارة يتولى العمل فيها موظفون عديدون فكأن إدارة الحكومة انقسمت إلى دواوين عسكرية ومدنية ومالية . [٥]

ويحسن بى أن أعرض هنا من قبل الدخول فى العصر البيزنطى شئ من مقدمة الدكتور / رأفت عبد الحميد فى كتابه القيم " الفكر المصرى فى العصر المسيحى " .

والقول بـ " مصر البيزنطية " يستدرجنا على الفور إلى القول قبلها ،" مصر البطلمية " و " مصر الرومانية " وبعدها بـ " مصر الطولونية " و " مصر الإخشيدية " و " مصر الفاطمية " و " مصر الأيوبية " و " مصر المملوكية " و " مصر العثمانية " ...

وفغرت فاهى دهشة وعجباً .. وسالت خوفاً وفرقاً .. على هذا النحو إذن إمحت شخصية مصر وتاهت فيمن حكموها ؟! وهل يمكن أن تكون مصر على امتداد ألفى سنة من عمر الزمان قلباً على هذه الشاكلة ، تحمل اسم وصفة من اعتلى دست السلطان فيها ؟!

فتبسم ضاحاً من قولى .. وقال ..

من حقك أن تغضب لمصر ، فهذه النسبة التى تُلحقها بمن حكموها بغمطها حقها ، ويخالف تماماً واقع التاريخ ، فليست مصر التى تلونت بلون من قدم إليها من هنا أو هناك ، ولكن العكس هو الذى حدث ، فكل هذه العناصر التى جاءت إلى مصر ، وقفت مصر إزاءهم موقفين لا ثالث لهما ، إما أن تحتضنهم وتحتويهم وتستخرج منهم أفضل ما فيهم ، فيصبحوا مصريين بالموطن ثم بالمولد والموطن ثانياً إذا طال بهم المقام ، وصفاً لمصر معهم عيشها ، وتلك سمة جمعت بين كل من جعلوا فى مصر قاعدة دولتهم وحاضرة حكمهم ، فأعطتهم مصر بالتالى خير ما عندها ، وبسطت لهم راحيتها ليعلوا هؤلاء بهما لا عليهما سمت رفعة ازدهار ، ولترقى مصر إلى عليين ، ولم نر واحداً من البطالمة أو أحداً من الطولونيين أو الإخشيديين أو الفاطميين أو الأيوبيين أو المماليك ، نازعته نفسه بالحنين إلى أصله الذى منه جاء ، ولا دار بخلده يوماً أن يرحل عن مصر عائداً إلى الديار التى إليها ينتمى ، فقد تحول هؤلاء جميعاً فى مصر إلى مصريين موطناً ، ثم مولداً موطناً لذرياتهم وذويهم من بعد ، بل إن وقائع التاريخ تسجل أن بعضاً من هؤلاء حارب بالفعل ، أو كان على استعداد ليحاب بنى جنسه الذى إليه ينتمى أو بلده الذى منه أتى ! وفى سيرة البطالمة والطولونيين والأبيين والمماليك ما يؤكد هذه الحقيقة التاريخية .

هذى كليوباترا السابعة ، آخر ملوك البطالمة فى مصر ، والتى سعت بكل السبل لتجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية عالمية يدور الرومان فى فلكها ، تزينت بلباس الفراعنة ووضعت تيجانهم

على رأسها وعاشت ملكة مصرية فرعونية ، فلما آثرت حياة الخلود على أن تساق أسيرة فى شوارع روما ، سلكت طريق الخلود المصرى عن طريق لدغة " الكوبرا " المصرية وهذا " خمارویة " حاكم مصر الطولونى ، وقصة زواج أبنته " قطر الندى " من الخلفية العباسى ى بغداد معلومة للجميع ، وما زالت حكاية القوارير التى ملئت بمياه النيل زاداً للأميرة الطولونية فى رحلتها من مصر إلى العراق ، حتى تظل مياه النهر العظيم تجرى فى عروقها مجرى الدم فتظل مصرية الروح والدم ، مائلة للعيان ! وهؤلاء الفاطميون الذين أقاموا دولتهم فى المغرب الأقصى أولاً ، ثم انتقلوا بها إلى مصر تناسوا تدريجياً ذلك المكان الذى منه قدموا وجعلوا من مصر حاضرة خلافتهم ، وخلفوا للدنيا قاهرة المعز وأزهرها الشريف ، منارة المعرفة الإسلامية وقلعة الدين ، وما يحتفل به المصريون اليوم من الأعياد الدينية ، متمثلة فى يوم عاشوراء و " طبقه " الشهير ، والمولد النبوى الكريم ، وما يصاحب الاحتفال به من الحلوى الحمراء خاصة العروسة " التى ترمز إلى مصر و " الحصان " الذى يجسد الفروسية وليلة الإسراء والمعراج وما تزدان به من اللبن والبلح ، وليلة النصف من شعبان وأدعيتها المأثورة ، ورؤية هلال رمضان من و " الفوانيس ، والعيدين ، والموالد التى قام لآل البيت ، هذه الاحتفالات كلها التى تعود إلى العصر الفاطمى ، يحرص المصريون جميعاً عليها حرصهم على التقاليد الأصيلة ولكن دون أن يتشيع مصرى واحد أعنى دون أن يعتنق مصرى مذهب " الشيعة " الذى جاء به الفاطميون بل العكس هو الذى حدث فتحول الفاطميون إلى مصريين وغدا الأزهر الشريف أكبر جامعة للعالم الإسلامى على مذهب السنة جمهور المسلمين ، ولا تزال أقوال صلاح الدين الأيوبى وأفعاله وعبارات ابن أخيه من بعد الملك الكامل عن أهمية مصر ومكانتها على الساحة الدولية فى زمانها تمتلئ به صفحات المؤرخ المعاصر " ابن واصل " ، ودليل واضح على أن هؤلاء " الأكراد " لم يذكروا يوما " كرديتهم " بل ما عرفوه بل وأمنوا به أنهم مصريون خلصاء وأن مصر بلدهم الأول والأخير وليس أدل على ذلك من قول الملك الصالح الأيوبى لأبنه وهو يعظه : " يا بنى ..ز اعلم أن الديار المصرية هى كرسى المملكة ، وبها تستطيل على جميع الملوك ، فإن كانت بيدك كان بيد جميع

الشرق " ، أما المماليك وحبهم لمصر وعشقهم إياها فحدث عنه ولا حرج .. وكيف لا وهم لا يعرفون لأنفسهم وطناً سواها ؟! (٦)

أما الصنف الثانى من هؤلاء الذين ظلت مصر فى عهدهم ولاية تابعة يديرونها من عواصم بلادهم ، فقد عزلتهم مصر سياسياً واجتماعياً ، وامتد العزل ليشمل جوانب أخرى نتج عنها وقام معها هذا الحاجز النفسى الكبير الذى فصل بين المصريين وبينهم ، واستخدم المصريون معهم سلاحهم الفتاك ، النكتة والسخرية اللاذعة ، ولم يخل الأمر من ثورات متفرقات أرقت جفون أولئك بين الحين والحين ، فالرومان والرومان المتأخرون أو البيزنطيون سادوا مصر حوالى سبعة قرون ، والأتراك العثمانيون أربعة قرون ، وكانت هذه القرون الأحد عشر بقساوات الاضطهاد فى الفكر والدين وظلامات العسف الاقتصادى كفيلة بأن تمحو كلية " الشخصية المصرية " وأن تذيب خصائصها ، أو على الأقل تحيلها باهتة ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، إذ خاضت مصر تجربة التاريخ تلك وعايشتها وخرجت منها أشد صقلاً وأكثر حفاظاً على سمات شخصيتها المتفردة ، بل إن مصر فى قرون عدة من تلك القرون تفوقت على أصحاب السيادة هؤلاء وكانوا كثيراً ما يسألونها الرأى وينتظرون منها القول الفصل فى قضايا على قدر كبير من الأهمية ، تمس الدين وجوهر العقيدة ، وتشغل الفكر والثقافة ، أعنى بذلك مدرستى الإسكندرية الشهيرتين فى الفلسفة واللاهوت على امتداد القرون الستة الأولى للميلاد وذلك ديدن مصر على امتداد تاريخها الطويل ، إذا فقدت استقلالها السياسى سارعت فى كثير جداً من الأحيان إلى تعويض ذلك بالتفوق فى ميادين أخرى ، فيسرع من أفقدوها استقلالها إلى الاعتراف بأنهم عيال عليها فى إحدى جانبى الحياة المادى أو المعنوى أو الاثنين معاً ، ولا يحمل هذا القول أى نوع من المبالغة تعصباً فحادثات التاريخ ووقائعه تثبت ذلك وتؤيده .

فقمح مصر – على حد تعبير المؤرخ جونز – كان حجر الزاوية فى سياسة الإمبراطورية الرومانية والرومانية المتأخرة (البيزنطية) تجاهها ، ومصر هى " سلة الخبز " أو " قبو الحنطة " للإمبراطورية، ولم يتوقف توزيع حصة القمح المجانى فى القسطنطينية إلا عندما تحولت مصر عن السيادة الإمبراطورية إلى الساحة الإسلامية ، وتفوقها العلمى والفكرى بمكتبتها التى لا تقارن فى

الإسكندرية ، ومدرستها الفلسفية باتجاهاتها المتميزة ، وعلو كعب كنيستها على الكنائس الرسولية الأخرى بفضل المدرسة السكندرية اللاهوتية جعل المدينة كعبة الحجيج لطلاب العم والمفكرين وقبلة الدارسين ، وما المجامع الدينية المكانية والمسكونية التى شهدها القرنان الرابع والخامس لعلاج " مكانة " المسيح ثم " طبيعته " إلا وبصمات الإسكندرية فيها واضحة ولاهوتها له السيادة ، وأسقفتها أصحاب الصوت الأعلى فى كثير من تلك المجامع ، وثراء الطولونيين وعسكرية الأيوبيين والمماليك جعل العباسيين يقرون بقدرة مصر الفائقة على التصدى للصليبيين والمغول ، ولم يكن ما فعله محمد على والخديو إسماعيل لمصر فى علاقتها مع الدولة العثمانية بخاف على أحد ، ولا يمكن لباحث أن ينكر ذلك الدور الكبير والفعال الذى قام به الأزهر الشريف حفاظاً على العقيدة والشريعة ، وتصدياً لظلامات الولاة العثمانيين وانتهاكات الجنود الفرنسيين .

القول إذن بـ " مصر البيزنطية " وما يترتب عليها من نسبة مصر إلى من حكموها من قبل ومن بعد ، يحمل فى طياته ظلماً كبيراً لشخصية مصر ومكانتها التى احتلتها على امتداد هذه الآلف من السنين ، لم تكن مصر هى التى تلونت بمسميات حاكميها ، بل هم الذين ذابوا فى أرضها موطناً وثقافتها حياة ، يقول القضاعى : " ليس فى الأرض مُلك أعظم من مُلك مصر ، ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيا سور لا ستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد ، ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيا بأسرها " ، ويقول ابن إياس : " أعلم – وفقك الله – أم مصر من أجلّ البلاد قدراً " .

وماذا عن مصر فى العصر البيزنطى ؟

لعل هذا يعد اقرب الأمور إلى الحقيقة ، ولكن مع الحذر التاريخى فنحن الآن نعالج القرون من الرابع إلى السابع وهى فترة التحول الكبير فى مجرى التاريخ من العصر الرومانى إلى العصر البيزنطى ، وقد اصطلح على تسميتها بـ " العصر الرومانى المتأخر أو العصر البيزنطى المتقدم " ، فلم تعد خصائص الحضارة الرومانية آنذاك كما كانت عليه فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ونظيريهما بعد الميلاد ، بل أمست باهتة ، ولم تتضح بعد قسمات هذا الآت الجديد الناجم عن اختلاط

وتفاعل هذا التراث الرومانى بالتراث اليونانى والحضارات الشرقية القديمة والمسيحية وإن بدت شاحبة ، ونحن حتى قرب نهاية القرن السادس الميلادى نقول : " إن جوستنيان كان آخر الأباطرة الرومان ولم يصبح بعد بيزنطياً " ! واللغة باعتبارها الوعاء الحضارى استغرقت هذه القرون للتحول إلى اليونانية بدلاً من اللاتينية لغة الإمبراطورية الرومانية عندما أقدم هرقل فى عام ٦٢٧ على إسقاط لقب إمبراطور *Imperator* اللاتينى واستعاض عنه بلقب بازيليوس *Basilius* اليونانى ، ثم أصدر قراره باعتبار اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية لتصبح أمام إمبراطورية رومانية بلسان يونانى !!

حيث يقول هيرودوت " ... وكانت طيبة التى يبلغ محيطها ستة آلاف ومائة وعشرين استاداً تسمى منذ القدم " مصر " . كما هو واقع الآن حيث يطلق المصريون على القاهرة " مصر " فالمصرى فى أقصى الصعيد يعلن أنه سوف يقصد " مصر " لأداء مهمة بعينها وهو يعنى " القاهرة " ، وكذلك يفعل السكندرى وكل أبناء مدن مصر وقراها .

ولما كان تغيير الحروف بحروف أخرى أو إسقاط بعضها أمراً وارداً مع اختلاف طبيعة النطق فى اللهجات المختلفة تباينها من شعب إلى آخر ، أو حتى من وقت لآخر فى البلد الواحد ، فقد تحولت " الحاء " إلى " هاء " واسقط حرف " التاء " لتصبح الكلمة " هكاتباه " ، ثم صفحت هذه الصيغة فى اليونانية لتصبح " الهاء " همزة ، والـ " كا " جيما " ,اضيفت إليها النهاية اليونانية لتجئ على النحو " آيجبتوس " *Aegyptus* ولترتبط بها مجموعة من الروايات الأسطورية كان من بينها " أن اسم منف " الذى حملته هذه المدينة هو فى الأصل اسم لابنة الملك الذى بناها ، وهى الفتاة التى تدله بحبها إله النيل وانجب منها " أيجبتوس " الذى اشتهر بالفضيلة فأطلق الناس اسمه على مصر " ، ومن المعروف أيضاً أن شاعر الإغريق الأعظم هوميروس ذكر نهر النيل فى ملحمته " الأوديسة " باسم " أيجبتوس " ، وذلك عندما قص علينا رحلة " منلاوس " وما فعلته الرياح به ، ويقول على لسانه : " فى نهسر أيجبتوس مكثت سفنى " . وعلى النحو نفسه انتقلت هذه الصيغة اليونانية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، مع إسقاط النهاية *US* والإبقاء على جذر الكلمة لنراها فى الإنجليزية *Egypt* ، وفى الفرنسية *Egypte* ، وقد تعرف *L'Egypte* وهكذا فى بقية اللغات الأوروبية ، كما عرفت فى العربيةى

مع التصحيف بـ " قبط " بعد حذف *Ae* اليونانية والإبقاءعلى جذر الكلمة الرئيسى *Gypt* ، وهكذا فقد أضحت كلمة " قبط "تعنى مصر ، كما تعنى أيضاً أهلها وهى فى هذه الأخيرة تستخدم فى صيغة الجميع ، فـ " القبط " هم المصريون ومفردها " قبطى " أى مصرى ، وقد تجمع أحياناً على " أقباط " أى مصريين .

القبطية إذن ليست ديناً فمن الخطأ البين القول بـ " الديانة القبطية " إلا إذا انصرف الذهن إلى الالهة الصمرية القديمة، و " القبطية " بالتالى لا تعنى " المسيحية " وليست بديلاً عنها ، ومن ثم فإن كلمة " الأقباط " تعنى المصريين جميعاً المسلمين والمسيحيين على السواء، فهذا قبطى أى مصر مسلم ، وهذا قبطى أى مصرى مسيحى ، تضمهم جميعاً بين أحضانها البلد العظيم مصر .

ومن ثم فالقول بـ " مصر القبطية " أى مصر المصرية " أو " مصر فى العصر القبطى " أى مصر فى العصر المصرى " لا يستقيم من التاريخ ولا مع المنطق . (٧)

هوامش الفصل الأول

مصر قبيل العصر البيزنطى

(١) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، دراسة فى الأوضاع السياسية والاقتصادية ، (القاهرة : ١٩٩٦) ، ص ٩ .

- انظر : سليمان حزين : حضارة مصر أرض الكنانة ، (القاهرة : ١٩٩١) ، ص ١٢٤ .

(٢) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٠ ، ١١ .

- بل (هـ . آيد رس) : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة : عبد اللطيف أحمد على ، (القاهرة : ١٩٩٨) ، ص ٤ ، ٥٢ .

(٣) محمد شفيق غربال : تكوين مصر ، (القاهرة : ١٩٥٧) ، ص ٤٥ .

- إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، مجـ٢ ، (القاهرة : بدون تاريخ) ، ص ٧٨ .

(٤) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥.

- جمال حمدان : شخصية مصر ، جـ ٢ ، ص ٦٢٤ – ٦٢٥ .
- محمود محمد الحويرى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، (القاهرة : ١٩٥٣) ، ص ٢
- مراد كامل : من دقليديانوس إلى دخول العرب ، موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، مجـ ٢ ، ص ٢٠٨

(٥) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، (القاهرة : بدون تاريخ) ، ص٣-٦

وانظر أيضاً :

- محمود إبراهيم السعدنى : تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، (القاهرة : ٢٠٠٠) ، ص ١٦٥ – ١٧٥ .
- حسين الشيخ : الرومان ، (الإسكندرية : ١٩٨٩) ، ص ١٨٨-١٩٩ .
- محمد السيد محمد عبد الغنى : لمحات من تاريخ مصر تحت حكم الرومان ، (الإسكندرية : ١٩٩٩) ، ص ٦٥ – ٩٣ .
- منيرة محمد الهمشرى : النظام الإدارى والاقتصادى فى عهد دقليديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) ، (القاهرة : ١٩٩٩) ، الهيئة العامة للكتاب .

(٦) رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، (القاهرة : ٢٠٠٠) ، ص ٧ – ٩.

(٧) رأفت عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٠ – ١٢ .

تدريبات على الفصل الأول

السؤال الأول : **قم بقراءة العبارات الآتية جيداً ثم اختر علامة (T) وظللها في ورقة إجابتك إذا كانت العبارة صحيحة وعلامة (F) وظللها إذا كانت العبارة خاطئة**

١- أُطلق علي العصر البيزنطي الباكر، مصطلح العصر الروماني المتأخر.

٢- انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلي أربعة أقسام إدارية في القرن. الخامس الميلادي.

٣- اتخذ حاكم مصر في العصر الروماني لقب كونت الشرق .

السؤال الثاني

أكتب مقالًا تاريخيًا عن أحوال مصر قُبيل العصر البيزنطي

الفصل الثانى

الحياة الدينية فى مصر البيزنطية

أهداف الفصل الثاني

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على:

١- مفهوم كلمة قبطي

٢-كيفية إنتشار المسيحية في مصر

٣- الاضطهادات التي تعرض لها المسيحيين فى مصر .

٤- مرسوم ميلان ٣١٣م.

٥- الرهبنة والديرية وانتشارها في مصر.

٦- انتقال الرهبنة المصرية إلى أوروبا

الفصل الثانى
الحياة الدينية فى مصر البيـزنطية

كلمة قبط :

اعتاد المصريون القدماء أن يطلقوا على بلدهم اسم *Km.t* قنمط الذى يعن " التربة السوداء " وهى سمة مميزة لتربة وادى النيل السوداء الخصبة ، فى مقابل الصحراء القاحلة على جانبى الوادى التى اعتادوا أن يسموها *Dsr.t* " التربة الحمراء " ولا عجب أن يسموا البحر الذى يجرى على حدود هذه الصحراء " البحر الأحمر " .

لكن الإغريق سموا هذا البلد إيجبتوس *Aiyuttoc* ، وهى صيغة مشوهة لأحد أسماء عاصمة المملكة القديمة فى عهد الفراعنة (من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة) (كا *Ca* ٢٦٤٠ – ٢١٦٠ ق.م) والتى تعنى معبد بتاح وهو الإله المشهور فى الأساطير المصرية .

ومن هذه الكلمة الإغريقية اشتقت أخيراً الأسماء الأوروبية المختلفة للقطر المصرى مثل : *Egypt, Egypte, Aegypten* ... الخ ، وبعد الفتح العربى (٦٣٩-٦٤١م) استخدم الفاتحون جذر الكلمة اليونانية *Gypt* وتنطق " قبط " *Qipt* . (١)

وهذه الكلمة غدت تدل على السكان أكثر مما تدل على البلد، وغدت بعد اسماً مميزاً لمسيحى مصر تميزهم عن غيرهم ممن لم يسلموا بعد دخول العرب . (٢)

ظهور المسيحية وبداية انتشارها فى مصر :

طغى الإحساس بالفراغ الروحى على رعايا الإمبراطورية الرومانية ، ولم تسطع عبادة الإمبراطورية أن تملأه أو الآلهة القديمة التى كان يعبدها الناس ، أو اتجاه المثقفين نحو المذاهب الفلسفية أو التماس الخير والسعادة فى الآلهة اليونانية أو الإيطالية ، أو الاتجاه نحو العبادات الشرقية

أو الوافدة من الشرق ، لأن كل هذه المعبودات بعدت عن الآفاق السماوية ، واتسمت بالتطرف والجمود ، ولم تستطع أن تقدم حلولاً لمشاكل الناس الحاضرة أو المستقبلة ، أو تقدم لهم المعونة فى أوقات الشدة وعند نزول الملمات ، ففقدت الآلهة القديمة بمرور الوقت ما كان لها من الاحترام والتبجيل فى عيون المتعبدين ، واستمر الفراغ الروحى لدى رعايا الإمبراطورية ، لاسيما بين المثقفين منهم وأصحاب الفكر المستنير .

وبسط ذلك الفراغ الروحى بدأت المسيحية تتفوق على ما عداها من عقائد وطقوس ، وتتقدم نحو آفاق جديدة لتملأ ذلك الفراغ الروحى فى حياة شعوب الإمبراطورية الرومانية ، وكان السيد المسيح قد ولد زمن الإمبراطور الرومانى أوغسطس فى بيت لحم بفلسطين ، وبدأت المسيحية متواضعة بين رسله وتلاميذه الذين أخلصوا له وتعهدوا تعاليمه حتى توفى المسيح سنة ٣٠ بعد الميلاد ، فواصل أتباعه ممارسة الطقوس المسيحية وتعبدوا فى هيكل سليمان وتجمعوا فى أروقته وكانوا جميعاً يهوداً من الطبقات الدنيا فى المجتمع ، ومن أنحاء مختلفة ومن متعددة من القدس والجليل ومن سائر أنحاء فلسطين ، وبعضهم كان من مصر ومن ليبيا والقيروان ومنهم بعض العرب من الجزيرة العربية ، وما لبثت المسيحية أن أخذت تنتشر انتشاراً حثيثاً فى الجهات المجاورة .

ثم انتشرت المسيحية بين الطبقات الدنيا فى المجتمع أكثر من انتشارها بين الطبقات العليا ، إذا اعتنقها الفلاحون والعبيد والكادحون وقليل من علية القوم ، فلم تعدم دخول بعض أفراد الطبقة المميزة فى المجتمع ، وإذا كانت معلوماتنا عن تلك الفترة المبكرة من عهد المسيحية معلومات ضئيلة ، إلا أن هناك ما يدل على تقدم الرسل الاثنى عشر بين المسيحيين ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء ، وهناك ما يدل أيضاً على تميز بعض الرسل مثل : بطرس ويوحنا ويعقوب ، فضلاً عما أداه بولس من خدمات جليلة للمسيحية بعد ذلك ، وارتبط تاريخ المسيحية فى الفترة الأولى بثلاث شخصيا كان لها دور كبير فى تقدمها وانتشارها وإرساء أسسها وتنظيم لاهوتها وهم : بولس وبطرس ومرقس ، أما بولس ولد فى طرسوس بين السنة الخامسة والسنة العاشرة بعد الميلاد ، ودرس الشريعة اليهودية

والناموس ونال قسطاً من الفلسفة بطريق التحصيل الشخصى لا بالدرس أو التعلم ، لأن والده أبعده عن المدارس اليونانية ، ورحل فى صباه إلى بيت المقدس فى طلب العلوم الدينية فتعصب كثيراً لليهودية وتعقب من اعتنق النصرانية أو مال إليها ليضطهدهم باسم الناموس ، فذهب سنة ٣١م إلى دمشق ليتصدى للنصرانية ويوقف انتشارها بين اليهود ، وما أن اقترب من دمشق – كما تذهب الرواية – حتى أبرق نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً يقول له : شاؤول لماذا تضطهدنى ؟ فكان ما كان من أمر تنصره .

بدأ بولس التبشير بالمسيحية بين اليهود فى دمشق ، ثم ذهب إلى أنطاكية التى انتشرت المسيحية بين أهلها انتشاراً واسعاً فقضى بها سنوات حتى اختاره كبير المسيحيين بها للتبشير بالمسيحية فى الأقاليم المجاورة ، فقام برحلات متعددة من أجل ذلك ، فيما بين سنتى ٤٥ ، ٥٨ م ، وعاونه مرقس وبعض الرجال الأتقياء فى أداء مهمته ، وفى سنة ٥٨م ثار عليه اليهود فى هيكل سليمان وسيق إلى السجن بأمر الحاكم الرومانى حيث قضى نحو عامين ، ثم أرسل إلى روما لمحاكمته أمام نيرون ، ويرجح أنه أعدم سنة ٦٤م مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون . [٣]

ولقد قدم بولس خدمات جليلة للمسيحية بمثابرته ودأبه حتى استطاع أن يحول الكنيسة البادئة إلى هيئة منظمة ورسالة عامة ، ونجح فى أن يستخلص من تعاليم السيد المسيح أسس الدعوة المسيحية ، وأن يرسى دعائم اللاهوت المسيحى وأسس الكنيسة العالمية ، كما نجح فى التبشير بالمسيحية حتى انبثت فى سائر أنحاء الشرق ، ثم امتدت إلى إيطاليا وأوروبا .

أما ثانى الشخصيات المسيحية الهامة فهو بطرس الذى كان من تلامذة السيد المسيح ورسله أو حواريه ، بشر بالمسيحية فى فلسطين بين اليهود وتابع رسالته فى مدينة يافا حتى رأى أن الله يأمره بالتبشير لكل العالم " اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها " ، فلما شرع فى ذلك قبض عليه وجرى سنة ٤١م ، وعندما خرج منه توجه إلى أنطاكية سنة ٤٥م وأقام بها ثمانى سنوات حتى

سنة ٥٣م ، ثم سافر إلى روما فى نفس العام ليؤسس فيها الكنيسة المسيحية ، ثم جرى إعدامه مع بولس وغيره على يد نيرون سنة ٦٤م على الأرجح .

أما ثالث الشخصيات المسيحية فهو مرقس الإنجيلى ، فقد أسس كنيسة الإسكندرية بعد حياة حافلة فى خدمة العقيدة ومعاونة صادقة لبولس فى التبشير ، وسافر إلى روما أيضاً ولكنه عاد مباشرة إلى الإسكندرية للتبشير فيها بين اليهود ، فنزل بحى اليهود بالإسكندرية فكان أول من بشر بالإنجيل فى مصر ، كما غدا أول أسقف سيحى بالإسكندرية ، وعلى يديه اعتنق أول رجل للمسيحية فى مصر من اليهود ، وفى الإسكندرية لقى مرقس حتفه سنة ٦٢م أو سنة ٦٨م فى بعض الرويات ، ونقل البنادقة رفاته إلى مدينتهم فى القرن التاسع الميلاد .

أما عن دخول المسيحية إلى مصر ، فيبدو أنه حدث منذ البداية فقد كان ضمن المسيحيين الأوائل الذين تعبدوا فى هيكل سليمان عدد من المصريين ، ثم حمل التجار إلى الإسكندرية ومصر تباشير العقيدة الجديدة والذين لم تنقطع وفودهم عن مصر والإسكندرية من كافة الأنحاء ، وهيأت التجارة الواسعة لمصر وقربها من فلسطين فرصة سهلة للديانة الجديدة للنفاذ إليها ، فبدأ بعض أهل مصر اعتناق المسيحية ثم بدأت تنتشر فى سائر أنحاء مصر ، فقد عثر على أربع برديات قديمة فى مصر الوسطى تتعلق بالعقيدة المسيحية وترجع إلى منتصف القرن الثانى الميلادى ، مما يؤكد وصول المسيحية إلى تلك المناطق فى تلك الفترة المتقدمة ، ثم انتشرت المسيحية فى الوجه القبلى فى أواخر القرن الثانى الميلادى .

ومن العوامل التى ساعدت على سرعة انتشار المسيحية فى مصر الاستعداد الفطرى لدى الشعب المصرى للإيمان بإله واحد ، لأن المصريين كانوا أول الشعب التى آمنتا بالوحدانية منذ عهد إخناتون ، فضلاً عن إيمانهم بالحياة بعد الموت والحساب والعقاب فى الحياة الأخرى أو الحياة الآخرة ، بالإضافة إلى أن قصة السيد المسيح وآلمه والمبادئ السامية التى دعا إليها وأكدت عليها المسيحية وأبرزها الوحدانية والتطهر والمساواة ، كانت من عوامل الجذب الهامة للمصريين للدخول فى العقيدة الجديدة ، إذ بلغ من شدة تأثرهم بالمسيحية أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى دراسة أصولها *Christology*

فضـلاً عـن أن المصـريين ربمـا وجـدوا فـى العقيـدة الجديـدة فرصـة للتعبير عـن معارضـتهم للسـلطات الرومانية بعد أن فقدت مصر استقلالها وغدت ولاية تابعة لروما ثم لبيزنطة ، هذا إلى جانب ما أبداه المصريون من إعجاب بالمعجزات وما شاع من قدرة المسيحيين على دفع الشياطين وشفاء المرضى وإحياء المـوتى ، وكلهـا أمـور جـذبت انتبـاه المصـريين للعقيـدة الجديـدة ، وهيـأت أذهـانهم لاعتنـاق المسيحية. (٤)

الاضطهادات الدينية للمسيحيين فى مصر :

ولاشك أن الرغبة فى التوحيد كانت سبباً من أسباب حركة اضطهاد المسيحيين التى تعتبر الآن أشهر عمل عرف به دقلديانوس ، لقد كان الولاء العام لدين الدولة الرسمى هو الرباط القوى الذى يربط بين أجزاء إمبراطورية تضم عديداً من العناصر والأجناس التى تختلف أصلاً ولغة وثقافة ، ورفض المسيحيون المشاركة فى العقائد الوثنية ، فأصبحوا عنصراً غريباً نافراً بين مواطنى الإمبراطورية ، وكان طبيعياً أن تتخذ الإجراءات اللازمة لإدماجهم أو استئصالهم ، ومع ذلك فيبدو واضحاً أن الاضطهاد الأكبر لم يحدث بناء على رغبة شخصية من دقلديانوس ، فقد أمر به ، وهو كاره له أشد الكرهية ، تحت ضغط شديد من القيصر جاليريوس *Galerius* ومشترطاً ألا تراق فيه دماء ، فلما اشتعلت النيران فى القصر الإمبراطورى – وكان ذلك حادثاً مدبراً للشكوك كحادث إحراق مجلس الرايخ الألمانى – ازدادت حدة الاضطهاد ، ثم استغل جاليريوس فرصة إصابة دقلديانوس بمرض خطير لإصدار قرار جديد بغرض عقوبة الإعدام على المسيحيين ، ولقد قيل إن تنازل دقلديانوس عن العرش كان ذا صلة باستيائه من الأمور الجارية ، وأياً كان الأمر فقد احتدمت المعركة حينئذ ، وقدر لها أن تكون معركة فناء ، فدمرت الكنائس ، وأحرقت الكتب السماوية والكتب الدينية ، وكثر عدد المستشهدين ، وكان ذلك أعنف اضطهاد تعرض لـه المسيحيون حتـى إن الكنيسـة القبطيـة فـى مصـر والحبشـية لازالـت تـؤرخ الأحداث بعصر دقلديانوس أو عصر الشهداء .

ومما قاله ترتوليان *Tertullianus* " لقد نبتت الكنيسة من أرض روتها دماء الشهداء " ، وإن كلامه ليصدق على هذه الظروف أيضاً فمن المرجح جداً فى عالم يتعطش أهله إلى القوة الروحية أن يستتبع كل حادث من حوادث الاستشهاد اعتناق كثيرين لهذا الدين الجديد الذى استطاع أن يلهم أتباعه مثل هذه الشجاعة ، وينبغى أن نذكر كذلك أن الكنيسة لم تكن تحيى ذكرى الشهداء فقط ، وإنما كانت تحتفى أيضاً " بالمعترفين " هؤلاء الذين كانوا على استعداد لمواجهة خطر الموت رجالاً كانوا أم نساء ، وإن لم يتعرضوا له فعلاً ، لقد مات المئات لكن آلافاً غيرهم زج بهم فقط فى غياهب السجون ، أو حكم عليهم بالنفى إلى أطراف الإمبراطورية النائية حيث ضربوا هناك مثلاً رائعاً فى الشجاعة ، ولم تفتر حماستهم فى اجتذاب الناس إلى دينهم الجديد ، وهكذا لم يؤد نفس العلاج الذى أريد به القضاء على وباء المسيحية إلا إلى ازدياد انتشار عداوة ، وإذا أخذنا بما جاء فى الأوراق البردية فقد كانت مصر فى عام ٣٠٠ بلداً وثنياً فى جوهره برغم وجود عدد كبير من المسيحيين ، بينما أصبحت فى عام ٣٣٠ بلداً يدين معظم أهله بالمسيحية ، ولاشك أن بعض هذا الانقلاب كان يرجع إلى توقف الاضطهاد لا إلى استمراره ، فقد حدث فى الثلاثين من شهر أبريل عام ٣١١ أن أصدر جاليريوس ، وكان يعانى مرضاً كريهاً قراراً بوقف الاضطهاد ملتمساً من المسيحيين أن يصلوا من أجله ولقد استجابوا له ، ولكن دون جدوى إذ قضى نحبه بعد ذلك بأيام قلائل .[٥]

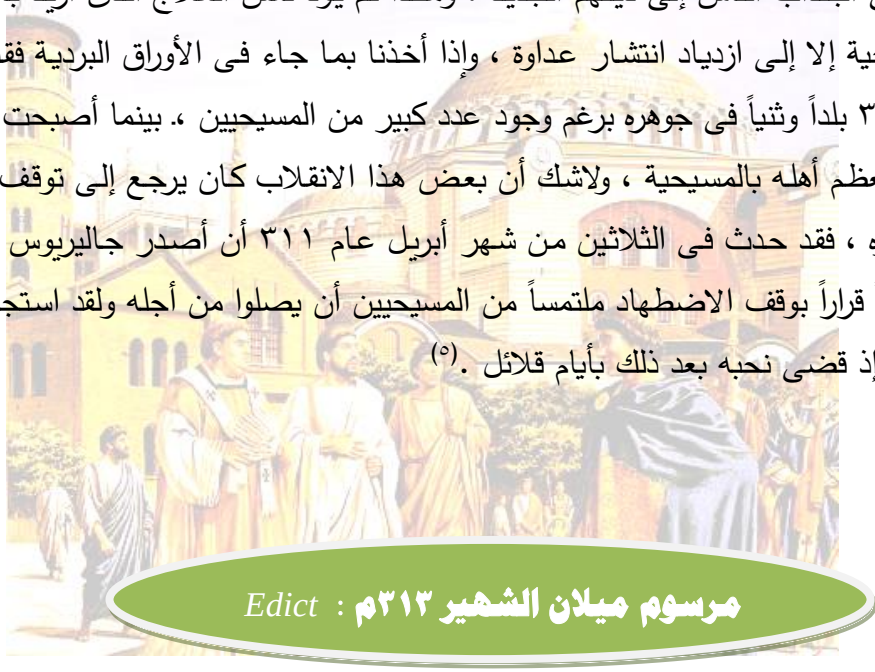

مرسوم ميلان الشهير ٣١٣م : *Edict*

تغير موقف الإمبراطورية من الديانة المسيحية تعبيراً جذرياً باعتلاء قنسطنطين العرش ، فقد أصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣م اعترف فيه بوضع المسيحية على قدم المساواة مع بقية الديانات الأخرى المعترف بها داخل الإمبراطورية ، وبذلك وضع مبدأ التسامح الدولى للأديان من

الناحية الرسمية فى التاريخ ، فغدا لكل مواطن الحق فى اختيار ديانته ومزاولة شعائرها بطريقته الخاصة دون أى ضغوط من السلطات ، وكان ذلك ينطبق على مصر التى كانت فى فلك الإمبراطورية . (٦)

الخلافات المذهبية :

لم تكد مصر المسيحية تتخلص من اضطهاد السلطات الرومانية حتى وجدت الفرصة سانحة فى المنازعات المذهبية لمناوأة تلك السلطات والحفاظ على طابعها الخاص وشخصيتها ، وقد اشتهر بطاركة الإسكندرية بشجاعتهم وثباتهم الوطيد على الإيمان فحملوا راية المقاومة ضد الأباطرة والولاة الرومان ، ولم تكن هذه المقاومة مجرد حركات فريدة من قبل البطاركة ، وإنما كانت حركات شعبية شاملة يقوم فيها البطاركة بدور الزعامة ، كما كانت أحياناً حركات شعبية محضة بعيدة عن تأثير البطاركة أو قيادتهم .

الآريوسية والأثناسيوسية :

ظهرت شخصية مصر الدينية واضحة قوية فى الكنيسة المسيحية فى النزاع المذهبى الذى قام بين رجلين من رجال اللاهوت فى مدينة الإسكندرية وهما أريوس وأثناسيوس حول طبيعة المسيح أو العلاقة بين الأب والابن الذى كانت له نتائج سياسية هامة أثرت تأثيراً عميقاً فى تاريخ مصر ، إذ نادى أريوس أن الابن (المسيح) أقل من الأب فى الجوهر ووضعه بين بقية المخلوقات حقيقة قال بسمو هذا المخلوق ، ولكنه وضعه بين سائر البشر ، وأقرت الأريوسية أن المنطق يحتم وجود الأب قبل الابن ، بيد أن الأثناسيوسية رفضت هذا الرأى قائلة أن الأب والابن من جوهر واحد أو مادة واحدة " هومو أوسيوس *Homo-Ousios* " ولما انتقل النزاع الدينى من مصر إلى غيرها من أقاليم الإمبراطورية ، أراد الإمبراطور قنسطنطين الكبير وضع حد لهذا النزاع فى مرحلته المبكرة للاحتفاظ بوحدة الكنيسة ، فدعا إلى عقد مجمع دينى فى نيقية سنة ٣٢٥م لإرساء قواعد الإيمان ووضع صيغة للعقيدة ، وهو ما عرف بقانون الإيمان المسيحى ، وقد ضم هذا المجمع ٣١٨ أسقفاً فى أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة ، كان من أبرزهم الكسندر بطريك الإسكندرية ، وفى بداية المجمع قال قنسطنطين أنه لم يرغب فى شئ أفضل من أن يوجد فى وسط الأساقفة ، وأنه يتألم إذ يرى انقساماً

وخصاماً داخل الكنيسة ، وتمنى أن بلغ الكنيسة الوحدة وتصبح قلباً واحداً وروحاً واحدة ، وتهب العالم كله السلام والوئام والانسجام ، وفى هذا المجمع عرض أثناسيوس وجهة نظره واستطاع ببلاغته ومقدرته تفنيد آراء أريوس ، وانتهى المجمع إلى رفض آراء الأخير ونفيه إلى تربيه فى بلاد الغال وإدانة أنصاره بالهرطقة ، ونتيجة لذلك ارتفع شأن أثناسيوس واكتسب نفوذاً قوياً فى مصر والعالم المسيحى وأهلته مكانته لأن يخلف الكسندر فى بطريركيته الإسكندرية بعد وفاته فى أبريل سنة ٣٢٨م .

غير أن النزاع بين الأريوسية والأثناسيوسية لم يقف عند هذا الحد ، فقد رأى قنسطنطيوس (٣٣٧–٣٦١) الذى خلف أباه قنسطنطين الكبير شريكاً مع أخويه قنسطنطين الثانى وقنسطانز فى حكم الإمبراطورية يبحث بنفسه أبوة المسيح ، حتى انتهى رأيه إلى اعتناق مذهب آريوس وما لبس قنسطنطيوس بعد أن نجح فى توحيد الإمبراطورية تحت يده واستقرت له الأمور سنة ٣٥٣م ، أن قرر طرد أثناسيوس من كرسى الإسكندرية ولكن هذا القرار تجاهله أثناسيوس واستمر فى أداء واجباته الدينية وعطل تنفيذه ما يزيد على سنتين ، وكان أن حشد سريانوس *Syrianus* قائد الحامية العسكرية الرومانية – وكان أريوسيا – قواته بمدينة الإسكندرية وهاجم الكنيسة التى كان يؤدى فيها أثناسيوس وأنصاره الصلاة فقتل الكثير من أفراد الشعب ، ولكن أثناسيوس لم يصب بأذى واستطاع بفضل أتباعه المخلصين أن يهرب من الكنيسة فى خلال الفوضى التى أعقبت اقتحامها ، ونجح بفضل أنصاره فى الإلات من مطاردته وفى خلال المدة الباقية من عهد الإمبراطور قنسطنطيوس قضى أثناسيوس معظم وقته مختفياً بين الرهبان أو فى أديرة مصر ، وبلغت به الجرأة أحياناً أنه كان يقوم بزيارة الإسكندرية دون أن يستطيع أحد العثور عليه ، وقد بلغ أثناسيوس أن الأريوسيين يتهمونه بالجبن لهروبه من الاضطهاد ، فكتب دفاعاً عن نفسه قال فيه : " هم يعضون أصبع الندم لأنهم لم يتمكنوا من قتلى ، وهاهم يلوموني على هربى غير عالمين أنه لو كان فى الهرب جناة لكان فى الاضطهاد جنايات ، لقد هربت ليلاً لئلا أقتل وهم يقتفون أثرى لئلا أنجو من القتل فليكفوا عن اضطهادى لأكف عن الهرب وكيف لا يعلمون أن فى فرارى منهم حجة عليهم " . (٧)

ولما فشلت السلطات الحكومية فى القبض على أثناسيوس اختار الأريوسيون جورج الكبادوكى بطريركاً على الإسكندرية حيث بدأ فى التو سلسلة من الإجراءات العنيفة لإرغام الناس على قبول المذهب الأريوسى ، وقد استخدم القوة العسكرية فى سحق كل أولئك الذين رفضوا اعتناق مذهبه وذلك بتعذيبهم أو قتلهم أو نفيهم .

وباعتلاء جوليان المرتد (٣٦٣-٣٦١) عرش الإمبراطورية الرومانية أخذ النزاع الدينى فى الإسكندرية طابعاً جديداً ، ذلك أنه على الرغم من العداء بين الأريوسيين والأثناسيوسيين حول العقيدة ، فقد نشط أنصار المذهب فى تدمير المعابد الوثنية أو تحويلها هى وآثار الوثنيين لصالح المسيحية دون النظر إلى العواقب الوخيمة التى ستقع عليهم من قبل السلطات الرومانية ، ولكن أتباع الوثنية وجدوا فى الإمبراطور جوليان الذى أرتد عن المسيحية خير سند ، فصبوا جام غضبهم على المسيحيين فى مصر وانتقموا لما حل بهم على أيديهم ، حدث هذا فى الوقت الذى نال جورد الكبادوكى كراهية أهل الإسكندرية ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان قد اقترح على الإمبراطور قنسطنطيوس فرض ضريبة على بيوت الإسكندرية *House-Tax* ، ومن ناحية أخرى وضع الوثنيون أمامه صورة عن معابدهم التى فقدوها على أيدى المسيحيين ، وما تعرضوا له من اضطهاد على أيدى الأثناسيوسيين ولذلك ما أن وصلت الأخبار إلى مصر بوصول جوليان المرتد إلى العرش الإمبراطورى حتى ثار الشعب المصرى فى الإسكندرية ثورة عامة أدت إلى مقتل جورج الكبادوكى ومعه اثنان من كبار الموظفين الماليين .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر أثناسيوس مرة أخرى فى الإسكندرية علانية وعاد إلى كرسيه فثار الإمبراطور جوليان وأصدر أوامره بطرد أثناسيوس من الإسكندرية ومصر كلها ، ولكن هذا الأمر لم يجر طاته على الفور ، فقد سافر وفد من الإسكندرية إلى بلاط الإمبراطور على أمل أن يصرف النظر عن هذا الأمر ، بيد أن الإمبراطور رفض أن يجيب الوفد إلى طلبه ، ووجه إليه لوماً قاسياً على الوقوف فى جانب أثناسيوس ، وأصر على نفيه خارج مصر ، ولكن أثناسيوس لم يغادر مصر بل

انسحب إلى طيبة فى الجنوب حيث وجد فى أديرتها الملاذ من غضب جوليان مثلما فعل من قبل مع قنسطنطيوس .

وبعد مصر الإمبراطور جوليان تولى جوفيان (٣٦٤-٣٦٣) عرش الإمبراطور ، فأعاد على الفور للمسيحيين حقوقهم وامتيازاتهم ووجد فيه الأثناسيوسيون خير نصير لهم ، ويظهر ذلك واضحاً فى خروج أثناسيوس من مخبئه وعودته إلى كرسيه مرة أخرى على أن حالة السلام بين المصريين والإمبراطورية لم تدم طويلاً ، إذ تولى فالنز (٣٧٨-٣٦٤) عرش الإمبراطورية ، وكان أريوسيا متحمساً فأصدر مرسوماً بنفى أثناسيوس مرة أخرى ، الأمر الذى جعل أغلبية الشعب المصرى يسخط عليه ويدخل فى نزاع معه ، ولكن الصراع حول العرش فى عاصمة الإمبراطورية دفع فالنز إلى أن يلغى مرسومه بعد أربعة شهور فقط من إصداره ، ذلك أن أحد القادة العسكريين ويدعى بروكوبيوس *Procpuis* انتهز فرصة غياب فالنز فى مدينة أنطاكية ، وانشغاله فى التصدى للقوات الفارسية على جبهة الفرات وأعلن نفسه إمبراطوراً قرب نهاية سنة ٣٦٥م ، الأمر الذى أفزع فالنز ، وهنا نلاحظ أن التوقيت الذى اختاره بروكوبيوس للخروج على فالنز وتنصيب تنفسه إمبراطوراً قصد به أن يكون متزامناً مع سخط المصريين على فالنز الذى تعسف فى معاملة أثناسيوس ، لكى يضمن وقوف مصر دون تردد إلى جانبه انتقاماً من فالنز ونتيجة لذلك أبصر فالنز حرج موقفه تماماً ، وخوفاً من ضياع مصر أمر بإعادة أثناسيوس إلى كرسيه فى ألو فبراير سنة ٣٦٦م لتهدئة ثائرة المصريين .

عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية وتولى الأسقفية من جديد وقضى السنوات السبع الباقية من حياته فى سلام وسكون حتى توفى فى ربيع عام ٣٧٣م ، بعد أن احتمل الكثير من اضطهاد الأباطرة المناصرين للأريوسية دون أن يخضع أويلين فى سبيل المحافظة على الإيمان المسيحى ، ولعل أبلغ وصف لما قام به أثناسيوس ذلك المثل الذى اشتهر حينئذ وبقى بعده ، وهو " أثناسيوس ضد العالم كله " *Athanasius Contra Mundum* ويضرب ذلك المثل لمن يثبت على رايه رغم إجماع الناس على معارضته ، وفى خلال الاضطهادات التى ألمت بأثناسيوس اختبأ فى مغارات الرهبان فى الجبال وفى أديرتهم فى الصحراء وفى بيوت أنصاره فى الإسكندرية ، وقد كتب

خلال فترة اختفائه كثيراً من المقالات للرد على الهراطقة والأريوسيين والدفاع عن موقفه وعن مجمع نيقية ، فضلاً عن رسائل التشجيع التى وجهها للرهبان .

وعلى أية حال استمر الإمبراطور فالنز فى اضطهاد للمصرين بعد وفاة أثناسيوس ونفى تلميذه وخليفته بطرس الثانى (٣٨٠-٣٧٣) وأهم من ذلك أن فالنز أصدر قانوناً جديداً يقضى بإلغاء الامتياز الذى كان ممنوحاً من قبل للرهبان ولسكان بعض المدن مثل أوكسيرنيخوس (البهنسا) والمناطق التابعة للأديرة ، وهو الإعفاء من الخدمة العسكرية ، ولكن الرهبان قاموا بعنف المحاولة الرامية إلى انخراطهم فى الجيش وجازف الكثير منهم بحياتهم على الالتحاق بخدمة القوات الإمبراطورية . [٨]

بطريركية الإسكندرية

كان أسقف الإسكندرية فى أواخر القرن الرابع الميلادى من أكبر رجال الدين مكانة فى العالم المسيحى كله ومن أقواهم نفوذاً ، وقد اعترف له مجمع نيقة بحق السيادة الدينية ، فجعل له السلطة على أساقفة مصر وليبيا وبرقة ، فصار لأسقف الإسكندرية ما لأسقف روما من امتيازات ، وعلى الرغم من أن قرارات مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م ، قد جعلت أسقف القسطنطينية يلى مكانة أسقف روما ، فإنه فى نفس الوقت اعترف لبطريرك الإسكندرية بما له من سلطة على أساقفة الكنائس المصرية ، فنجد أن أثناسيوس الرسولى قد حاز من المكانة ما لم ينله غيره من كل العالم المسيحى ، فقد اتخذ لقب باب مثلما فعل أسقف روما ولم يشاركه أحد فى الرشق ، وكان مطلق السلطة وكان الرهبان جنداً مخلصين له ، وكان الشعب يكن له كل احترام وتبجيل ، وذلك بفضل الروح القومية التى نمت فى ظل الكنيسة .

كانت ثروة البطريرك من أهم عوامل ازدياد مكانته ، وقد استمد ثروته من بعض الاحتكارات مثل تجارة الملح والنطرون وورق البردى ، على أن أهم الأشياء التى حرص عليها أساقفة الإسكندرية ، هو استغلال كنيستهم ومد نفوذها وفى سبيل بذلوا جهوداً كبيرة ، استغرقت أكثر من نصف قرن

(٣٨٥-٤٥١م) ، فقد أحسن هؤلاء الأساقفة الاستفادة من كل الوسائل مثل مكانتهم الروحية ، وما حصلوا عليه من تأييد بابا روما ، وما كان بين أساقفة روما والإسكندرية من اتفاق ضد أسقفية القسطنطينية .

وقد توالى على أسقفية الإسكندرية ثلاث أساقفة اشتهروا بالحماس الدينى والجرأة والنشاط هؤلاء هم : ثيوفيلوس (٣٨٥-٤١٢) ، وكيرلر (٤١٢-٤٤٤) ، ثم ديوسقوروس (٤٤٤-٤٥١) . [٩]

الرهبانية أو الديرية : *Monasticism*

تعتبر مصر الوسطى مهد الرهبانية المسيحية ولكن الشئ الجديد فى رهبنة القرن الثالث الميلادى ، لم يكن حياة التنسيك التى عاشها المسيحيون ، والتى ترجع إلى أقدم العصور ، بل الجديد هو الانسحاب من العالم والتوحد فى الصحراء ، فالمتنسك من هذا النوع ، الذى ينسحب من العالم يعرف باسم المنقطع عن العالم *Anechorite* من *Anchoretes* اليونانية ومعناها السائح المتعبد عن القوى ، ساكن الصحراء ، وهو أيضاً الناسك *Etemite* ، وراهب *Monachos* لأنه يعيش منعزلاً ، أما لفظ *Coenobites* الذى لم يستعمل إلا فى زمن متأخر ، بجرى إطلاقه على الراهب الذى يعيش بعيداً عن العالم مع جماعة من أمثاله غير أنه ينبغى أن تعرف بأن نظام الرهبانية إنما قام أصلاً ، قبل أن يتخذ أسماء معينة من هذه الأسماء التى ذكرناها .

والبحث عن مصادر الرهبنة يقتضى الرجوع أولاً إلى الكتاب المسيحيين الأوائل الذين عالجوا هذا الموضوع ، والذين أرجعوا الرهبانية إلى ما درج عليه المسيحيون الأوائل فى بيت المقدس ، من حياة مشتركة (جماعية) . أما علاقة الرهبانية بما سوى المسيحية من المذاهب والاعتقادات ، فأمر توضحه عادة مصرية قديمة تتمثل فى فكرة الانسحاب من الدنيا لتحقيق رغبة دينية ، وهى فكرة انتشرت لدى السكان الوطنيين ، وجوهرها المزج بين التقوى والتدين وبين الفلسفة اليونانية ، ففى القرن الثانى قبل الميلاد اشتهر معبد سيرابيوم *Serapeum* بما كان فيه من زوايا (خلوات) غير أننا لا نتبين

مدى هذه العزلة والغرض منها ، ومن هذا القبيل أيضاً ما يشير فليو *Philo* من قيام التآخى بين العلماء اليهود فى مصر ، والتجائهم بعد التآخى إلى زوايا أو خلوات *Monasteria* واقعة على شواطئ بحيرة مريوط للتفكير فى القانون ، غير أنهم كانوا فى أثناء خلواتهم يجتمعون سوياً عند تناول الطعام أو تأدية الصلاة .

ونحن نلمس هنا أوجه التشابه بين ما قام به رهبان مصر فى وقت متأخر ، وبين ما حدث فى الزمن الغابر ، من حيث الموضع ومن حيث نواحى النشاط ومن حيث صفة القائمين به ، حتى ليزعم بعض مؤرخى الكنيسة أن فيلو لابد أنه وصف الجماعة المسيحية الأولى التى أقامها القديس مرقص ، غير أنه لا داعى لهذا الزعم والافتراض ، لأن فيلو نص على أن ما كان معروفاً عند يهود الإسكندرية من التقوى والصلاح ربما كان له نظير عند الجماعة المسيحية .

وجرى حديثاً كشف نقش فى (إخميم) *Panopolis* التى صارت مركزاً لصورة خاصة من صور الرهباينة المصرية ، ويشير هذا النقش إلى وجود مزار (مشهد) دينى تحيط به حديقة ، وأنه جرى تشييده لغرض الضيافة والتأمل الدينى على أن أول حالة معروفة عن إلتجاء المسيحيين إلى الاعتزال والتنسك ظهرت فى فلسطين ، وتتمثل فى اعتزال أسقف بيت المقدس *Narcissus* فى مكان مهجور أوائل القرن الثالث الميلادى .

أما فى مصر فيعتبر الانسحاب *Anachroesis* من القرية إلى الصحراء وسيلة من وسائل الاحتجاج أو الهروب ، من قدوم جباة الضرائب أو رجال الشرطة وتهيأت بمصر الوسائل لتيسير هذا الانسحاب ، فإن كثيرة القوافل بين النيل وموانى البحر الأحمر يسّر التوغل فى الصحراء والبعد عن الاتصال بالعالم ، بينما ساعدت فى الوقت ذاته على تيسير الحصول على المواد الضرورية للحياة ، ويروى ديونسيوس ، أن عدداً كبيراً من المسيحيين هربوا إلى الصحراء فراراً من اضطهاد ديكيوس ، فهلك عدد كبير على يد البدو فى الجبال الواقعة غرب البحر الأحمر ، غير أن هؤلاء اللاجئين لا يصح اعتبارهم رهباناً على الرغم من أنه ينطبق عليه المعنى الحرفى للفظتى ناسك *Hermit* ومعتزل، أما من وجهة نظر الحكومة فإنهم لم يختلفوا عن سائر الناس الذين لجأوا إلى الصحراء هرباً من تنفيذ

القوانين غير أنه من جهة أخرى يجوز اعتبار هروبهم دليلاً على شدة إيمانهم ، إذ أنهم آثروا النفى والتشريد على خطر الارتداد عن الدين ، كما آثروا النفى خوفاً من أن تعوزهم القوة لمواجهة الاستشهاد والتعذيب ، وفى ظل هذا الوضع أخذ يظهر مبدأ جديد يجعل الناسك يلى فى المكانة الشهيد .

أنطـــون : *Anthony*

يشير أثناسيوس إلى أن أنطون كان أول شخص على الأقل فى مصر الوسطى لجأ إلى الصحراء من أجل التنسك المسيحى ، فلو أن انطون وقع وثيقة من الوثائق القانونية التى تتضمن الاعتراف بديانة الإمبراطورية لأصبح من غير شك من المواطنين الرومان ، غير أنه على الرغم من أن أنطون سليل أسرة على جانب كبير من الثراء ، تقيم بقرية من قرى مصر الوسطى (بوصير ، قمن العروس ، مركز الواسطى ، محافظة بنى سويف) فإنه كان قبطياً فى ثقافته ولغته ومصرياً خالصاً فى اتجاهه ونزعته ، والحياة المسيحية عنده هى محاربة الشيطان (وكبح جماح النفس عن السعى إلى خيرات الحياة المادية) وشرط النجاح فى هذه المعركة هو التهذيب والشجاعة .

ولد أنطون حوالى سنة ٢٥٠م ولما بلغ العشرين من عمره توفى والده وكثر تردده على الكنيسة ، وبينما كان ذات مرة يستمع فى الكنيسة إلى الآية الواردة فى الإنجيل (متى – ١٩ : ٢١) " إذا أردت أن تكون كاملاً فبع ما عندك واتبعنى ، فسوف يكون لك كنز فى السماء " ، واعتبر هذه الآية موجهة إليه ، فمضى إلى تحقيقها ، وعندئذ باع ما كان يملكه من الأراضى التى تبلغ نحو ٣٠٠ فدان *Arourae* وتصدق بثمنها على الفقراء وعهد برعاية أخته إلى مؤسسة (دير) للعذارى وعكف على العمل والصلاة تحت إرشاد ناسك شيخ كبير السن ، ودخل بذلك فى زمرة المتنسكين بالقرية ، ثم انصرف إلى العزلة التامة بعد أن قضى نحو ١٥ سنة فى تنسكه على أنه تدرج فى ذلك ، إذ لجأ فى أول الأمر إلى المقابر ثم إلى حصن مهجور بالجبل فى الموضع المعروف باسم بوصير على الضفة الشرقية للنيل تجاه الفيوم والمعروف الآن باسم دار المأمون ، وجرى ذلك حوالى سنة ٢٨٥م ومارس القديس أنطون هذه العزلة الصارمة نحو عشرين سنة (٢٨٥–٣٠٥م) قضاها فى النضال ضد الشيطان ، وفى الانصراف إلى العبادة وتأدية الطقوس الدينية ، وكان يتردد عليه فى بعض الأحوال عدد من

الزائـرين يحملـون إليـه زاده المتواضـع المؤلـف مـن الخبـز وبعـض الإدام الـرخيص ، ويسـتمعون أثنـاء زيـارتهم إلـى مـا درج عليـه مـن تحـدى الشـياطين الـذين يهاجمونـه مـن كـل جانـب ، فـالمعروف عنـد المصـريين مـن وثنيـين ومسـيحيين أن الصـحراء مـوطن الشـياطين والأرواح الشـريرة ، وأن البطولـة والشجاعة أن يصر الإنسان باختياره على أن يعيش بين الشياطين ويتحداهم ، ولم يختلف أنطون عن معاصـريه فـى تفسير هـذه الظـواهر ، وهـى أن غوايـة الشـيطان إنمـا تتجـه إلـى مـواطن الضـعف فـى الطبيعية البشرية على أن ما تراءى لـه فى صورة حيوانات مفترسة وصـور الإنس أو صـورة كنز ، لم تكن فى الواقع إلا من نسيج الخيال على الرغم من أنه وصفها بالشياطين ولم يحاول تعليلها ولم يحاول تعليلهـا مـن الناحيـة السـيكولوجية و (النفسـية) . ولـم يحـرص أنطـون علـى أن يـتخلص مـن الغوايـات بالوسائل المعروفة عند الناس بل عمد إلى مواجهتها أعزل من غير سلاح ، ولم يتطلع إلى مساعدة زملائـه فـى الكنيسـة ، فقد تكـون غوايـة الشـيطان هـى التـى تثير الراهب وتجعلـه يسـهر طـوال الليل فـى صـلاة مستمرة ، فلا يحصـل علـى قدر كـاف من النوم ، فـإذا ضـعف استولى عليه الشيطان ، أمـا إذا ثبت فإنـه يرى الرؤيات السماوية ومن مزايا الرؤيات السماوية (مثل : رؤيـة الجنـة لا رؤيـة الجحيم) أنها تؤنس النفس وتعمل على تهدئتها واطمئنانها . ولم يلبث أن اجتمع حول أنطون عدد من أولئك الذين يرغبون فى ممارسة حياة التنسك ، وقد أحبوا أن يكون معلمهم ومرشدهم ، ولما نصب أنطون نفسه لتعليم هؤلاء المتنسكين برزت مواهبه وما امتاز به من الحكمة ورجاحة العقل .

ونستطيع أن نقول إنه لم يستهل القرن الرابع حتى استقر الرهبان المتنسكون بالصحراء لاسيما الجهات المجاورة للمكان الذى تنسك فيه أنطون فنشأ بذلك عالم آخر على حد قول القديس أثناسيوس " عالم مجرد من الشرور والآثام " يقطنـه جماعات من الناس يرتلون آيات الإنجيل ويهوون القراءة ، ويمارسون الصـوم ويؤدون الصـلاة ويبذلون الإحساس ويعملون علـى أن تسود بينهم المحبـة والوفـاق ، فليس بينهم شرير ولا أثيم يجلب عليهم الكوارث ، بل هم جمع من النساك جعلوا قبلتهم الفضيلة وإن كان منعم من يحسون بالراحة لبعدهم فى صحرائهم عن تقريع جبة الضرائب وتعسفاتهم . (١٠)

لم ينشأ فى ذلك الحين نوع من التنظيم الديرى وكل ما كان هو أن جمعاً من الناس يربط بينهم غرض مشترك كرسوا حياتهم للتنسك ، وتولى أنطون قيادتهم دون أن يعتبر نفسه سيدهم ، على أننا لا نستطيع أن نقف على مدى انتشار الرهبانية فى مصر ، سواء فى صورتها الأولى الساذجة أو فى صورة أكثر تنظيماً ورقياً ، وكل ما نعتمد عليه فى ذلك ما وصل إلينا من الروايات التاريخية ، وربما كان لإشارة عابرة من الدلالة ما يفوق فى الأهمية ما ورد فى المصادر التاريخية ، فمن الروايات ما يشير إلى أن أسقفاً من مصر العليا (الصعيد) شهد مجمع نيقية الذى انعقد سنة ٣٣٥م ، وكان قد عاش سنوات عديدة يتنسك فى خلوة من الخلوات *Asceterion* ووجه الأهمية فى هذه الرواية أنه يصح القول بأنه كان فى طيبة منذ سنوات عديدة سابقة لانعقاد مجمع نيقية ، كثير من المتنسكين *Anchorites* واسم هذا الأسقف يعتبر دليلاً على انبثاق عهد جديد فى المسيحية المصرية ، فهو قبطى ومسيحى فى وقت واحد كان اسمه بافنوتيوس *Paphnoutus* وبالقبطية *Pa-P-Noute* ، وهذا اللفظ معناه رجل الله ، ومن الواضح أنه اسم نبت فى دوائر مسيحية فى عقيدتها مصرية فى لغتها .

وتألف من النساك (الزهاد) الذين التفوا حول أنطون مجتمع اعتراف أفراده بما لشيوخهم من سلطة أدبية عليهم ، وقام أنطون على تلقين المبتدئين مبادئ الرهبنة وفقاً لنظام شبيه بنظام التلمذة ، غير أن الفرد الراهب كان يعتبر مستقلاً قائماً بذاته بحيث أنه عندما يتم تلمذته لم يكن ليدين لأحد بالطاعة سوى معلمه .

هذا النوع من الرهبانية استقر فى شئ من اليسر والسهولة ، وقد انتشر فى سرعة فى الوجه البحرى ، وبلغ أطراف الإسكندرية ، وكانت مراسيم الدخول فى الرهبنة بسيطة ، فكل المطلوب من الشخص عند قبوله فى طائفة الزهاد أن يحلف اليمين على التقشف والطهارة والطاعة ، ويعتبر هذه اليمين ضماناً كافياً يجعله راهباً أو راهبة ، ويجوز ألا يكون الراهب والراهبة من المنقطعين فيصح أن يمارس حياة الزهد والتنسك فى داره ، أو مع جماعة صغيرة من رفقائه ، ومن الأمثلة المستمدة من تاريخ الرهبانية بولص الساذج تلميذ أنطون الذى تلقى عليه التهذيب والتعليم مدة ثلاث سنوات ، ثم استقر بقلايته أو خلوته ومنهم أيضاً دوروتيوس الطيبى *Dorotheus* الذى عاش على ساحل البحر

بالقرب من الإسكندرية ، وانصرف إلى تشييد قلايات من الآجر لينزل بها سائر الرهبان ومنهم الراهبة بيامون *Piamoun* التى أقامت مع أمها وعاشت الاثنتان على ما تنسجانه من الكتان ، ويرجع السبب فى اهتمام المؤرخين بذكر اسمها إلى أنها منعت وقوع شجار بين قريتها وقرية أخرى على توزيع مياه الفيضان ، والرسالة التى عنوانها العفة *On Virginity* التى تنسب كتابتها إلى أثناسيوس أو ترجع على أقل تقدير إلى زمنه ، إنما تتضمن معلومات عن حياة إحدى هؤلاء الراهبات على الرغم من أنها لم تنزل بدير من الأديرة ، إذ تحتم عليها أن تتلو الإنجيل فى دارها وأن تراعى الساعات المقدرة للصلاة وأن ترتدى ثياباً خاصة عند توجهها إلى الكنيسة أو للقيام بعمل من الأعمال ، وأن تقتصد فى وجبة العشاء بعد الساعة التاسعة ، وعليها ألا تشرب النبيذ . أما إذا حدث أن كانت فى صحبة راهبات أخريات لم يتقيدن بهذه القاعدة فمن الخير أن تتناول قليلاً من النبيذ حتى لا تتهم بالكبرياء ، وإذا تصادف أن كان صديقاتها متقدمات فى السن ويرغبن فى الثرثرة عند تناول الشراب فينبغى أن تكون نموذجاً حسناً ، والمعروف أن من صفاتها بذل الإحسان والسخاء وإذا حدث أن اجتاز بها أحد الرهبان فيتحتم عليها أن تحسن استقباله وتستمع إلى موعظته .

وانتشرت الرهبانية التى نبعت من القديس أنطون فى مصر السفلى (الوجه البحرى) ولم ينته القرن الرابع الميلادى حتى زخرت الجهات الممتدة على النيل شمال أسيوط *Lycopolis* وما يجاورها من الصحارى ، كما حفلت شواطئ البحر المتوسط بالقرب من الإسكندرية بأعداد كبيرة من الرهبان يعيشون تارة فرادى وتارة أزواجاً وتارة فى جماعات صغيرة أو كبيرة ، غير أن الحياة لم تكن حتى ذلك الحين تنسكية خالصة وأقصى ما بلغته رهبانية أنطون من نمو ، إنما جرى فى صحراء وادى النطرون *Nitra* وصحراء سقيط *Scete* من هذين الموضوعين توافر لدينا من المعلومات ، ما يكفى لتكطوين صورة عن حياة هؤلاء الرهبان ونحن نعرف أن بالاديوس *Palladius* وكاسيان *Cassian* ==== فى هذه المنطقة سنوات عديدة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الرابع ، وزار هذه المنطقة أيضاً القديس جيروم *St.Gerome* وروفينوس *Rufinus* مؤلف تاريخ الرهبانية *Historia Monachorum* .

فخلفوا لنا ما سجلوه عن مشاهداتهم ولم تكن نيتريا المذكورة عندهم إلا وادى النطرون المعروف ، وهو واد يقع حول بحيرات النطرون وفى جوف الصحراء فى غرب النيل وعلى مسافة ستين ميلاً إلى الجنوب من الإسكندرية .

ومن أوائل الذين مارسوا حياة الرهبانية فى هذا الموضع آمون ومقار (مكاريوس) ، وكان مقار من تلاميذ القديس أنطون ، وقد اشتهر كذلك قسم من الصحراء على مسافة بضعة أميال من صحراء النطرون هو صحرا *Cellia* التى اتخذت اسمها من *Cells* (القلايات) التى يأوى إليها الرهبان والتى انتشرت بهذه الجهات ويصف صحراء سيليا روفينوس مؤرخ الرهبانية ويقر أنه جرى إنشاء القلايات على قاعدة أن تبتعد الواحدة عن الأخرى ، ما كاد يتجاوز حد النظر والسمع على أن لا يجتمع الرهبان سوياً إلا فى يومى السبت والأحد من كل أسبوع لتأدية الصلاة ، وما عدا ذلك من الأيام كانوا يتصرفون فيها إلى العزلة التامة فلا يزور أحدهم الآخر إلا فى حالة المرض أو لبعض الدواعى الروحية ويشير بالاديوس إلى أنه كان يقيم فى سيليا نحو ستمائة راهب والواقع أن ما جرى فى سيليا إنما ينطوى على حياة تنسكية خالصة ، أما فى النطرون فكانت الحياة مختلفة ، وفيما يلى ما أورده بالاديوس عما شاهده سنة ٣٩٠م فى النطرون .

" وأقام فى جبل النطرون خمسة آلاف راهب يمارسون ألواناً مختلفة من الحياة كل منهم حسب طاقته ووفق رغبته فلكل منهم الحرية فى أن يعيش منفرداً أو شخص آخر أو فى جماعة ، وفى الجبل سبعة مخابز وكنيسة كبيرة قام بجوارها ثلاث نخلات تدلى من كل منها سوط أعد أحدها لتأديب الرهبان الذين يثبت سوء خلقهم وسيرتهم ، ويستخدم الثانى لإنزال العقاب باللصوص ، أما الثالث فيجرى استعماله للمخالفين من الزائرين الذين يقدمون فى زيارة عابرة ، فمن ارتكب ذنباً وجرى عليه الحكم بما يستحقه ذنبه من الجلد ، تقرر ربطه إلى النخلة لتنفيذ العقوبة المقررة عليه وبذلك يصلح حاله وقام قرب الكنيسة دار للضيافة ، وكل من يفد إليها من الضيوف يلقى الترحيب وحسن الضيافة حتى يرجل باختياره حتى لو امتدت ضيافته سنتين أو ثلاثة ، ففى الأسبوع الأول يعيش الضيف كيفما شاء من حياة الدعة والكسل ، ثم بعدئذ يطلب إليه أن يعمل إما فى الحديقة وفى المخبز أو فى المطبخ ، فإذا

كان من ذوى المكانة جرى إعطاؤه كتاباً يطالع فيه ، غير أنه لا يجوز له أن يتحدث إلى غيره حتى ظهر اليوم ، وأقام فى هذا الجبل أطباء وصناع للفطائر وصناع النبيذ وجاز بيع النبيذ واشتغل الجميع بنسج الكتان بأيديهم ، كما يسدوا بذلك حاجاتهم وحوالى الساعة الثالثة بعد الظهر جاز للواحد منهم أن ينهض ليستمع إلى ما يصدر من كل دار من التراتيل فيتخيل ما يلقاه من نعيم الفردوس غير أنهم لا يجتمعون فى الكنيسة إلا فى يومى السبت والأحد .

يتحدث بالاديوس أيضاً عن تاجر اسمه أبوللوريوس *Apolloruis* صار راهباً فى وادى النطرون ، ولما بلغ من كبر السن ما جعله عاجزاً عن أن يتعلم صناعة أو حرفه اشترى من الإسكندرية عقاقير (أدوية) وسلعاً تجارية وعكف على معالجة إخوانه ، وظل عشرين عاماً يطوف بالزوايا منذ بزوغ الفجر إلى الثالثة بعد الظهر يقرع أبواب الزوايا (القلايات) ، ويسأل عما إذا كان بها أحد من المرضى ويتحدث بالأديوس أيضاً عن راهب آخر ، أنفق كل ثروته فى إنشاء الدور لإيواء الفقراء والشيوخ والمرضى ، واعترف آباء الكنيسة بأنه لا يقل مكانه عن أخيه الذى تنازل عن أملاكه ومتاعه ووهب نفسه لحياة التنسك والزهد .

وما سبق ذكره من الإشارات إنما يدل على ما امتاز به هذا النوع من الرهبانية من صفة خاصة وهى التطوع والاختيار فلم يكن ثمة حياة جماعية تسير وفقاً لقانون معين حتى ولو أقام الرهبان سوياً إذ أن قدراً كبيراً من حرية التصرف كان متروكاً لكل راهب من هؤلاء الرهبان ، فلكل منهم الحرية فى أن يسير وفقاً لما أعده لنفسه من الخطط وفى أن يرتب لنفسه الوقت أو الزمن الذى يمارس فيه الزهد والتنسك والخلاصة أن هذا النوع من الرهبانية إنما نبت من حياة الانقطاع واحتفظ بصفته التنسكية أو شبه التنسكية حتى فى المستعمرات حتى فى المستعمرات أو المحلات الكبرى للرهبان بوادى النطرون وصحراء سكيتى .

الديرية (نظام باخوم) :

وتختلف رهبانية أو على الأصح ديرية باخوم عن النظام الذى اتخذه القديس أنطون وانتشرت رهبانية باخو بمصر العليا (الصعيد) نشأ باخو وثنياً ، فقد ولد حوالى سنة ٢٩٠م وخدم فى جيش قنسطنيط وليكينوس *Licinus* وحدث أول لقاء له من المسيحيين حينما استضافه هو ورفقاؤه من الجند جماعة من المسيحيين ولما تم تسريحه من الجيش اعتنق المسيحية وهو فى العشرين من عمره ، فاتخذ لنفسه حياة التنسك والزهد وذلك بإرشاد وإشراف ناسك اسمه بالامون *Palaemon* عاش فى إقليم دندرة *Tenryra* بالقرب من النيل ، ويروى بالاديوس أيضاً القصة التى جعلت من باخو مؤسساً للحياة الديرية الجماعية *Cenobitical* فيشير إلى أن باخو كان من أشد الناس محبة لغيرة ولإخوانه من الرهبان ، فبينما كان جالساً فى مغارته ظهر له ملك فقال له " لقد وفقت فى تنظيم حياتك فلا داعى لأن تقيم بالمغارة فلتنهض وتجع كل الرهبان الزهاد ولتقيم معهم واجعل لهم من القانون ما يكون على المثال الذى أمنه لك " ، ثم أعطاه لوحة من النحاس نقش عليها قاعدة الديرية ، ومن هنا جاء أصدق نص لأقدم قاعدة مسيحية للرهبان .

حدث هذا حوالى سنة ٣٢٣م ، ويعتبر هذا التاريخ بداية ما صار للرهبانية من صفة الديرية (الحياة الجماعية) *Cenobitic* واتخذ باخو لتنسكه أول الأمر معبداً مهجوراً من معابد سيرابيس *Serapis* وأدى ذلك إلى الافتراضات شاعت والتى تربط بين الديرية وبين ما كان لسيرابيس من خلوات . (١١)

انتقال الرهبانية من مصر إلى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والغرب الأوروبى:

وكان طبيعياً أن يتسرب تلقائياً نمط هذه الحياة عبر سوريا إلى آسيا الصغرى (تركيا حالياً) بطبيعة وحدة العالم الرومانى آنذاك ، وانتقال التجار بين بلدان ذلك العالم بصورة منتظمة حتى القرن الرابع الميلادى تقريباً ، إلا أن مصر كان لها أيضاً دورها المباشر فى تقديم صورة مجسدة لهذه الحياة الرهبانية فى آسيا الصغرى ، ذلك أن باسيليوس *Basilius* المعروف بالكبير ، والذى كان أسقفاً لمدينة قيسارية *Caesarea* فى كبادوكيا *Cappadocia* بآسيا الصغرى ، كان صديقاً خلوصاً للاسقف

السكندرى أثناسيوس *Athanasuis* وقد ذاعت شهرته مع أخيه الأصغر جريجورى *Gregorius* أسقف نيسا *Nyssa* وجريجورى أسقف نازيانزا *Nazianza* والمعروف بـ " اللاهوتى " والمدينتان الأخيرتان أيضاً تقعان فى الإقليم نفسه لذا فقد جرى صيتهم باسم الآباء الكبادوكيين الثلاثة . (١٢)

وفى ظل الصداقة التى كانت تربط أثناسيوس بباسيليوس واتفاق آرائهما فى عدد من نقاط الخلاف العقيدى التى كانت دائرة آنذاك تبودلت الرسائل بين الرجلين على امتداد سبعينيات القرن الرابع ، وقد بقى لنا منها ست رسائل هى ردود باسيلوس على أثناسيوس ، ويظهر منها مدى الإعجاب والاحترام الذى يكنه الأسقف الكبادوكى لقرينه المصرى إلى حد وصفه له ب، " الأب الممجد " .

ولم تلبث المراسلات أن ارتفعت إلأى مرتبة السفارات ، وكان رسل أثناسيوس إلى باسيليوس من بين أصدقائه من الرهبان ، وكانوا موضع ثقة الأسقف السكندرى وعضه ولم يقف الأمر عند هذا الحد وحده بل إننا نعلم من الرسائل التى تركها باسيليوس أن الرجل قدم إلى مصر وهو يذكر صراحة الأثر الذى تركته هذه الزيارة فى نفسه بل وعلى مستقبله ، فبعد أن يصور حياة التيه والضياع التى كان يحياها يخبرنا أنه كم تمنى أن يجد من يقود خطوه إلى الطريق الصحيح نحو الإيمان ثم يقول ما نصه : " ... قد وجدت كثيرين من هؤلاء فى الإسكندرية ووجدت آخرين فى أنحاء متفرقة من مصر " ، وفى هذا السبيل فإنه ليس من قبيل المصادفة أو الغرابة أن يكون باسيليوس الكبير هو واضع أسس الرهبانية ونظامها الديرانى فى آسيا الصغرى ، ومن هنا ندرك على الفور الأثر البعيد الذى تركته مصر على الرهبانية والأديرة الباسيللية والغريب فى الأمر أنه رغم هذه العلاقات الوثنية التى جمعت بين الأسقف السكندرى والأسقف القيسارى الكبادوكى ، ورغم زيارة الأخير للإسكندرية ومصر إلا أن الرجلين أثناسيوس وباسيليوس لم يلتقيا أبداً .

وحوالى ذلك الوقت أيضاً كانت الولايات الرومانية فى الغرب الأوروبى قد راحت هى الأخرى تتلمس على استحياء جادة الطريق الرهبانى وبرز ذلك واضحاً عند سولبيكيوس سفروس *Sulpicius Severus* الذى عاش ما بين الثلث الأخير للقرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس ، وراح يسلك الطريق نفسه فى عام ٣٩٢م بعد أن ساعده على ذلك الموت المبكر لزوجته التى كان يحمل لها كل

الإعزاز والمحبة ولم يكتف بذلك بل أخذ يستحث أخته فى رسائل عديدة على هجران دنيا الناس والإبحار فى دنيا الله ، وقد وضع سولبيكيوس سفروس عملاً أسماه " حوار " *Dialogue* نعلم منه مما جاء على لسان أحد المتحاورين الثلاثة ويدعى بوستوميانوس كيف أن جماعة من الرهبان الغاليين يتزعمهم بوستاميانوس هذا قد جاءوا إلى مصر ووقفوا على نسق الحياة الرهبانية بها يوحدثنا بالتفصيل عن زيارته لطيبة ، وعن الأديرة العديدة التى رآها فى طريقه من الإسكندرية إلى مصر العليا وهو هنا يقصد بالطبع ما تعنيه كلمة الأديرة – كما عرفناها من بعد – بل يشير إلى التجمعات الرهبانية على امتداد النهر العظيم ، ويبدى إعجابه الشديد بدقة وانضباط الرهبان وخضوعهم التام لتعاليم مقدمهم وتعاونهم فى أداء العمل المنوط بهم ، ويقص علينا عدداً من الروايات التى سمعها من الرهبان هناك فى طيبة ومنطقة نيتريا (النطرون) ويأخذ سولبيكيوس خيط للحديث من محاوره ليحدثنا مباشرة عن أنموذجه مارتن التورى محاولاً أن يضفى عليه صفات لا تقل عما سمعه من صديقه عن الرهبان المصريين .

وقد توج سفروس جهاده الرهبان بكتاب وضعه عن القديس مارتن *Martin* أسقف تور *Tour* الذى سلك درب الرهبانية وكانت هذه الترجمة لحياة ذلك القديس " الغالى " نسبة على غالة وهى فرنسا حاليا سببا فى وضع سولبيكيوس سفروس فى مصاف أشهر كتاب سير القديسيين *Hagiographia* فى القرن الخامس الميلادى وهو القرن الذى شهد فى أخرياته أيضاً مولد القديس بندكت *Benedict* الذى وضعت على يديه فى القرن التالى أسس الحياة للرهبانية فى الغرب الأوروبى فيما عرف بـ " الرهبانية البندكتية " *Nenedictine Monasticism* والتى تأثر صاحبها إلى حد كبير – حسب تعبير ديفز *Davis* بالحياة الرهبانية المصرية فى أشكالها الثلاثة المختلفة التوحدية أو التوحدية للجماعة أو الديرانية التى وضع قواعدها فى القرن الرابع أيضاً الراهب المصرى القديس باخوميوس *Pachomius* فى صعيد مصر . (١٣)

وكان التأثير المصرى فى الحياة الرهبانية فى الغرب الأوروبى واضحاً خلال مسارين أساسيين تركا بصماتهما البارزة على نمط هذه الحياة تمثل أولهما فى وجود الأسقف السكندرى أثناسيوس هناك

ابتداء من عام ٣٣٩م وحتى عام ٣٤٦م متنقلاً بين إيطاليا وغالـة (فرنسا) بعد أن تمكن من الفرار من مصـر خوفـاً مـن بطـش الإمبراطـور قسـطنطيوس *Constantius* (٣٣٧-٣٦١) الـذى كـان يميـل إلـى المذهب الأريوسى وقد أصطحب أثناسيوس معه فى هذا الفرار اثنين من أخلص أصدقائه وهما راهبان مصريان أحدهما يمسى آمون فقد كانت تربط الأسقف بجماعات الرهبان فى مصر علاقة وطيدة سوف نقف عليها وعلى آثارها بعد قليل .

وخلال السنوات السبع التى قضاها أثناسيوس ورفيقاه فى الغرب متنقلين خلالهما بين إيطاليا وغالـة فـى ظـل حمايـة إمبراطـور النصـف الغربـى قنسـطانز *Constans* شقيق قسـطنطيوس وإن كـان يختلف عنه فى ميله إلى المذهب النيقى ، وهو المذهب الذى كان يؤمن به ويدافع عنه أثناسيوس ، خلال هذه السنين ترك الراهبان المصريان انطباعاً غريباً ومؤثراً فى نفوس كل من لاقوه خلال فترة غربتهم الطويلة تلك ويحدثنا أثناسيوس فى كتاباته ، وكذا المصادر التاريخية المعاصرة عن ذلك الأثر الذى تركه الراهبان بأرديتهم البسيطة وبمسوح الزهد والتقشف بمسلكهما المتواضع بحرسهما على أداء طقوس العقيدة بحديثهما وصمتهما وتأملهما بانصرافهما عن دنيا الناس إلى عالم آخر كل هذا بلا شك دفع نفراً – وإن كان فى بادئ الأمر قليل – من ا÷ل إيطاليا وغالة إلى محاكاتهم ومحاولة السير على نهجهم .

أما المسار الثانى إلى الغرب الأوروبى فتمثل فى الكتاب الذائع الصيت الذى وضعه أثناسيوس عن حياة القديس أنطونى *Vita S.Antoni* وتناول فيه حياة أبى الرهبان المصريين ونشأته واتجاهه إلى الصحراء وطرائق حياته ، وقد أقامها فى البداية على أساس " التوحيد " ، ذلك أنه اعتزل دنيا الناس متوحداً ، فلما تكاثر أتباعه ومريدوه من حوله أنزل كل واحد منهم فى صومعة لا يشاركه فيها آخر ، واصـــــــــــبح هـــــــــؤلاء المتوحـــــــــــدون ســـــــــاكنو " القلايـــــــــــــات " أو " القلالى " هم أول تجربة للحياة الرهبانية – شبه الجماعية – فى مصر ، وهى المرحلة الوسط بين " التوحد الكامل " و " الحياة الديرانية

ولا يستطيع باحث أن ينكر ذلك الدور الكبير الذى قامت به مصر فى سبيل إهداء عالم المسيحية فى الشرق والغرب على السواء ذلك النظام الرهبانى والحياة الديرانية ، كما لا يستطيع باحث أن يغمض عينه عن الدور الكبير أيضاً الذى قامت به هذه الأديرة وجماعات الرهبان فى العصور الوسطى فى كل من أوروبا والإمبراطورية البيزنطية فى مختلف جوانب الحياة ، فقد قامت الأديرة بجهود ضخمة لحفظ التراث الإنسانى وبقائه على مر الأجيال ، إذ عمد الرهبان هناك إلى نسخ المؤلفات النادرة أو اقتنائها والعناية بالصور المقدسة (الأيقونات) والحفاظ عليها حتى أن الرهبان كانوا أشد الناس عداوة لحركة محاربة تقديس الصور التى أشعلها الأباطرة البيزنطيون فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أو ما عرف بـ " الحروب اللا أيقونية " وكان لهذا الدور الذى قام به الرهبان أثره الواضح فى إنقاذ ذخائر الفكر الإنسانى من الضياع نتيجة للتدمير الذى لحق بالإمبراطورية الرومانية على الشعوب الجرمانية والصقلبية أو الغزوات المتأخرة التى حملت الخراب فى زحوفها .

وإذا كانت مصر قد أهدت إلى المسيحية حياة الرهبانية ونظم الديرانية فإن فارقاً جوهرياً نجده قائماً بين الأديرة فى مصر وتلك التى خارجها ، فعلى حين أقام الرهبان المصريون أديارهم فى جوف الصحراء بعيداً عن الناس رفض باسيليوس القيسارى الكبادوكى ومارتن التورى وبندكت النورسى وكاسيودور *Casiodorus* وجريجورى الأول ، وآباء الديرانية الأيرلندية والأديرة الكلونية الشهيرة ، رفضوا جميعاً الانغلاق على أنفسهم بعيداً فى الفلوات أو الغابات الأوروبية كما فعل رهبان مصر ، بل أقاموا أديرتهم قريباً من المدن أو على أطرافها أو الطرق المؤدية إليها أو عند التقاء الطرق التجارية لتنشأ حولها المدينة من بعد ويصبح الدير مركزاً لها . (١٤)

يقول العالم المصرى الدكتور / جمال حمدان (١٥) عن هذا الموضوع : " ... لقد خرج كثير من المصريين من الوادى إلى أطراف الصحراء بل وإلى أعماق هذه الصحراء بحثاً عن عزلة جغرافية يلجأون إليها من الاضطهاد الدينى ويحافظون فيها على عقيدتهم ، ولعل طبيعة مصر الجغرافية حيث يتجاور المعمور والصحراء ، وحيث تتوافر العزلة الهامشية لكن دون موت الصحراء الكاملة ، قد مكنت لهذا النمط من الحياة ولا نقول من التعمير – والحديث مازال للعلامة جمال حمدان ، فالصحراء فى

مصر قريبة للغاية من الجميع ، وعند أطراف أصابع كل من يريد اعتزال العالم ، ولهذا نجد توزيع الأديرة فى مصر اليوم إما على أطراف الوادى القصوى ترصعه ابتداء من أسوان حتى مصر القديمة ، وإما فى زوايا وأركان الصحراء بعيداً عن طرق الحركة الأساسية ابتداء من قلعة جنوب سيناء الجبلية الوعرة وأعماق الصحراء الشرقية الجبلية السحيقة غير بعيد عن البحر الأحمر إلى أطراف الصحراء الغربية ومشارف مريوط .

يذكر الدكتور رأفت عبد الحميد بشأن الحياة الدينية فى كتابه القيم ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى خالفت فى المذهب العقيدى أباطرة بيزنطة ، فحل بالمسيحيين فيها الاضطهاد ثانية وإن كان هذه المرة مسيحياً ، وظلت على هذه الحالة قرابة القرون الثلاثة حتى جاء المسلمون إلى مصر يحملون إليها التسامح وحرية العقيدة .

أما الغرب الأوروبى فلم يلق من الاضطهادات الوثنية أو المسيحية شيئاً يذكر ، فقد كان المسيحيون فيه يشكلون أقلية ضئيلة ، هذا إلى أن مقام الأباطرة الوثنيين مع نهاية القرن الثالث وهى الفترة التى اشتدت فيها حركة الاضطهاد كان فى الشرق مهد المسيحية وموطن الكثرة الغالبة من المسيحيين ، وفى العهد المسيحى حرص أباطرة القسم الغربى من الإمبراطورية على أن يكونوا على وفاق مع العقيدة التى تؤمن بها رعيتهم ، ومن هنا كانت الأديرة فى الغرب مؤسسات دينية اجتماعية على حين كانت فى مصر قلاعاً يحتمى بها الهاربون بعقيدتهم الفارون بإيمانهم .

غير أن الالتجاء إلى الأديرة أضحى من بعد مسألة عامة حتى أن الدولة رأت فى هذه الأديار خطراً يهدد أمنها وسلامتها ، خاصة فى الأوقات العصيبة التى تعرضت فيها الإمبراطورية لأخطار خارجية تمثلت فى هجمات القبائل الجرمانية والصقلبية ، وجدت الدولة فى البحث عن القادرين على حمل السلاح دفاعاً عن حدودها ، وجد هؤلاء فى الهرب إلى الأديرة والاحتماء بها ، مما دفع إمبراطوراً مثل موريس (٦٠٢-٥٨٢) إلى أن يصدر أوامره بفرض قيود مشددة على الأديرة حتى لا تسمح بفرض قيود مشددة على الأديرة حتى لا تسمح لمثل هؤلاء باللجوء إليها هروباً من الخدمة العسكرية ، مما أدى إلى حدوث أزمة طاحنة بينه وبين البابا جريجورى الأولى (٦٠٤-٥٩٠) .

بل إن بعضاً من الأساقفة ورجالات الكنيسة أنفسهم استنكروا هذا النوع من الحياة وعدوها ضرباً من حب الذات ، وانعزالاً عن المجتمع وفراراً من حل مشاكله والمشاركة فى واجباته وامتناعاً عن تقديم العون لأفراده على اختلاف عوزهم وحاجاتهم ، وكان من أبرز الأمثلة على هذا الاحتجاج ذلك المجمع الذى عقده أساقفة آسيا الصغرى فى مدينة جانجرا حوالى عام ٣٦٢ وجاء فى ديباجة الرسالة التى حملت قوانين المجمع الأسباب التى دفعت هذا النفر من رجال الأكليروس إلى الاجتماع ، وكان من بينها السخط التام على كل أولاء الذين يمقتون الزواج ويفضلون حياة التبتل ، مدعين بأن كل من طلب لنفسه زوجة أو كل من طلبت لنفسها زوجاً لن يدخل أو تدخل ملكوت السماوات ، ويعلن الجميع استنكارهم الكامل لما أقدم عليه الرجال من ترك زوجاتهم أو ما أقدم عليه أولاء من هجرن أزواجهن وقص شعورهن ، من أجل هذا فقد عقد مجمع جانجرا لإدانة هؤلاء جميعاً وفعالهم وطردهم من رحمة الكنيسة ما لم يتوبوا إلى رشدهم ، وإذا لم يمتثل الجميع لقرارات هذا المجمع المقدس فسوف تحل به لعنة الكنيسة شأن الهراطقة ويمسى محروماً طريداً .

وجاء نص القانون الأول للمجمع كما يلى :

" كل من يزدرى الزواج الشرعى فليكن أناثميا "

أما القانون الثانى فكان نصه :

" كل من حرم أكل اللحوم فيما عدا المنخنقة وما ذبح على النصب فليكن أناثيما :

ومن هذا يتضح لنا مدى خوف الكنيسة حتى فى الفترة الباكرة من عمر الحركة الرهبانية من هذا النسق الجديد الذى تدافع إليها المسيحيون بعامة ، ووجدوا فيها بعداً عن فساد المجتمع الذى يعيشون فيه دون أن يحاولوا المساهمة فى إنقاذ المجتمع مما يعانيه ، ولعل الأفكار التى أذاعتها الكنيسة الأولى عن قرب مجئ ملكوت السماوات واعتبار المسيحيين غرباء فى هذه الأرض ، وأنهم مواطنون فى مملكة الله الآنية ، كل هذا ساعد دون ريب على انتشار الرهبانية فى المسيحية .

على أنه مما هو جدير بالذكر أن الأديرة قد قامت بدور كبير فى حفظ التراث الإنسانى وبقائه على مر الأجيال ، إذ عمد رهبان الأديرة بعامة إلى نسخ المؤلفات النادرة أو اقتنائها والعناية بالصورة المقدسة أو الأيقونات والحفاظ عليها ، حتى أن الرهبان كانوا أشد الناس عداوة لحركة محاربة تقديس

الصور التى أشعلها أباطرة الأسرة الأيسورية البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى أو ما عرف بالحركة اللا أيقونية ، وكان لهذا الدور الذى قام به الرهبان أثره الواضح فى إنقاذ ذخائر الفكر الإنسان من الضياع نتيجة للتدمير الذى لحق بالإمبراطورية الرومانية على يد الشعوب الجرمانية والصقلبية ، أو الغزوات المتأخرة التى حملت الخراب فى زحفها .

وبعد ...

ومهما يكن من أمر فقد كانت مصر المسيحية أنموذجاً يحتذى قدمت إليه الرهبانية حياة ... والديرانية نظاماً ... وحملت إليه النسكية هدية . (١٦)

هوامش الفصل الثانى
الحياة الدينية فى مصر البيزنطية

(١) سمير فوزى : القديس مرقس وتأسيس كنيسة ، الإسكندرية ، ترجمة : نسيم مجلى ، (القاهرة : ١٩٩٧) ، ص ١٣

(٢) ثروت عكاشة : الفن المصرى ، جـ ٣ ، ص ١٣٩٨ .

(٣) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، الإسكندرية ، بدون تاريخ ، ص ٣١ – ٣٣ .

- اسدرستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، (بيروت : ١٩٥٥) .
- رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى .

(٤) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٣٤ – ٣٦ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١١ – ١٧ .
- رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ٢٨ – ٦٣ .

(٥) آيدرس (هـ. ل) : مصر من الإسكندرية حتى الفتح العربى ، ترجمة : عبد اللطيف أحمد على ، ص ١٥٨ – ١٦٠ .

- حسين كفافى : المسيحية والإسلام فى مصر ، (القاهرة : ٢٠٠١) ، ص ٣١ – ٤٣ .
- رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، (القاهرة : ١٩٨٢) ، ص ٢ .

(٦) محمد عبد الشافى المغربى : العصور الوسطى الأوروبية ، رؤية فى المصادر والنصوص التاريخية وعمليات التعليق والترجمة ، (الإسكندرية : ٢٠٠٣) ، ص ٧٩ – ٨١ .

(٨) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٨ – ٣٠ .

- مراد كامل : من دقليديانوس إلى دخول العرب ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .
- محمود محمد الحويرى : رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، ص ٧٨–٨٠ .
- لوريمو جون : تاريخ الكنيسة ، (القاهرة : ١٩٨٣) ، جـ ٣ ، ص ٤٦ – ٤٧ .

(٨) محمود محمد الحويرى : المرجع السابق ، ص ٣٠ – ٣ .

- لوريمو جون : تاريخ الكنيسة ، جـ ٣ ، ص ٧٧ .
- منسى يوحنا : تاريخ الكنيسة القبطية ، ص ١٣٧ .

(٩) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، (الإسكندرية : ٢٠٠٣) ، ص ٤١ – ٤٢ .

- رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ١٢٣ – ١٥١ .
- سمير فوزى : القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية .

(١٠) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٢٥ – ٢٩ .

- جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، (الإسكندرية : ١٩٩٨) ، ص ١٥٤ – ١٥٦ .
- رؤوف حبيب : تاريخ الرهبنة والديرية وآثارهما الإنسانية على العالم ، (مكتبة المحبة : ١٩٧٨) .

(١١) السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ٢٩ – ٣٤ .

- مافى بشارة : تاريخ الكنيسة ، ص ٧٣ – ٧٤ .
- رؤوف حبيب : الرهبنة الديرية ، ص ٣٧ – ٣٨ .
- لوريمر : تاريخ الكنيسة ، جـ ٢ ، ١٤٨

(١٢) رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ ٣ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ص٥٨-٨٤

(١٣) رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(١٤) رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، ص ٢٦٢- ٢٦٥ .

(١٥) جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة فى غبقرية المكان ، ص ٤٣٧ .

(١٦) رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ٥٩ – ٦٣ .

تدريبات على الفصل اثاني

السؤال الأول: **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* ● **إذا كانت خاطئة**

١- ولد السيد المسيح عليه السلام زمن الإمبراطور الروماني قسطنطين.

٢- ثار اليهود علي القديس بولس في عام ٥٤م.

٣- كان محور الصراع السياسي بين ليس السابع وهنري الثانى متمثلًا في مدينة نورماندیا

السؤال الثالث: **السؤال الثاني**: **تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها ● في شيت الإجابة**

١- اعتنق القديس بولس المسيحية في مدينة

(أ. روما – ب. بيت المقدس – ج. أنطاكية – د. دمشق).

٢- صدر مرسوم ميلان عام

(أ.٣١٤م–ب.٣١٣م– ج.٣١٢م– د.٣١١م)

الفصل الثالث

التنظيمات الإدارية فى مصر البيزنطية

أهداف الفصل الثالث

يهدف هذا الفصل إلى:

١- **التعرف على التنظيمات الإدارية في مصر البيزنطية**

٢- **الإصلاحات الإدارية**

٣- **إدارة المدن أو البلديات :**

إذا أردنـا أن نسـتعرض التنظيمـات الإداريـة فـى مصـر البيزنطيـة فلابـد أن نشـير إلـى هـذه التنظيمـات فـى فتـرة تبعيـة مصـر للرومـان أى الفتـرة السـابقة مباشـرة للعصـر البيزنطـى فـى مصـر ، فالمعروف أن الرومان قسموا مصر إلى ثلاث مناطق إدارية كبرى هى : طيبة ومصر الوسطى والدلتا ، وجعلوا علـى كل منهـا حاكماً وركـزوا السـلطة العليـا فـى يـد الحـاكم أو الـوالى الـذى كـان مقره فـى الإسكندرية والـذى جمـع فـى يـده السلطات كلهـا ، إذ كـان القـائد الأعلـى للجيش ورئيس الإدارة المدنيـة ومـدير الشئون الماليـة والمسئول كذلك عن سيادة العدالـة فـى البلاد يسـاعده عدد من كبـار الموظفين الذين عهد إليهم بالنظر فى كل هذه الأمور .

وظل حاكم الإقليم فى العصر الرومانى صاحب السلطة العليا فى الإقليم وله السيطرة التامة فى عاصمة إقليمه ومقره الرسمى على الرغم من أنه منذ أوائل القرن الثالث الميلادى ، غدا بكل مدينة من مدن الإقليم مجلس للشورى أو مجلس بلدى لم يؤد إلى جعل هذه المدن تظفر باللامركزيـة أو بالحكم الذاتى نظراً لأن حاكم الإقليم ولا يزال صاحب السلطة العليا فى الإقليم كله وله السيطرة التامة على مجالس الشورى هذه أو المجالس البلدية .

وفى أواخر القرن الثالث الميلادى وعلى عهد الإمبراطور دقليدانوس جرت إصلاحات إدارية هامـة فـى الإمبراطوريـة ، كـان لابـد وأن يتـردد صـداها فـى مصـر أيضـاً باعتبـار مصـر ولايـة تابعـة للإمبراطورية ، فقد جعلت الولايات محددة المساحة وجرى فصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وإدمـاج الولايـات فـى وحـدات إداريـة كبيـرة تعـرف كـل منهـا باسـم دوقيـة ، وجـرى تقسـيم مصر بالذات إلى ثلاث أقسام كبيرة هى : شرق الدلتا وغرب الدلتا وطيبة فى الجنوب ، ويحتمل أن هذه المقاطعات أو الأقسام الإدارية كانت تقابل على وجه التقريب أقسام الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا التى كانت موجودة فى الشطر الأول من العصر الرومانى .

وجرى تعيين حاكم على كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة غير أن حاكم غرب الدلتا بصفة خاصة الذى يشمل نفوذه مدينة الإسكندرية تميز عن الحاكمين الآخرين بلقب " حاكم مصر " وأضيفت سلطات أخرى إلى سلطته فاقت ما اختص به الحاكمان الآخران ، لكن الثلاثة كانوا من الموظفين المدنين عهد إليهم بالشئون المدنية فى أقسامهم بينما تولى السلطة العسكرية قائد آخر لقب " بدوق مصر " ولم تحظ عواصم هذه الأقسام بالاستقلال الذاتى فى الحكم إلا بعد أن تنحى دقلديانوس عن السلطة وترك العرش الإمبراطورى .

معنى هذا أنه وضع على رأس السلطة المدنية فى كل أنحاء مصر حاكم عام مقره الإسكندرية كان يهيمن على شئون الإدارة والمالية والقضاة ، بينما أسندت قيادة الجند إلى قائد مستقل . (١)

ومع بدايات القرن الرابع الميلادى ظهرت تنظيمات إدارية جديدة فى مصر البيزنطية غدت القرية بموجبها أهم هذه الوحدات الإدارية واحتلت القرى مكانة هامة فى تلك التنظيمات الإدارية الجديدة ، إذ غدا أهل القرية مسئولين عن زراعة زمامها أى الأراضى التابعة لها ، وكذلك مسئولين عما هو مقرر عليها من ضرائب وغيرها من الالتزامات وغدا للقرية وجهازها الحكومى الذى يسير أمورها وشئونها الداخلية يرأسه موظف معروف أصبح بمثابة عمدة القرية يساعده كاتب ومجلس مؤلف من شيوخ القرية يتولى النظر فى الأمور المحلية دون أن يكون للسلطات العليا أثر كبير فى عمله وتطور الأمر حد أن صار عمدة القرية هذا فى القرن السادس الميلادى أكبر موظف فى القرية وحل بمرور الوقت محل مجلس شيوخها .

ثم مع البيزنطيون كل عدد من القرى فى وحدة إدارية أكبر عرفت بالباجوس *Pagus* تلى القرية فى الأهمية يتولى أمرها موظف أكبر ربما كان عضواً من أعضاء مجلس الشورى الإقليمى أصبح له سلطة أكبر فى إدارة هذه الوحدة فهو المسئول عن زراعة الأرض وتقدير الضرائب عليها وجبايتها وممارسة القضاة أحياناً ، وهذا النظام الإدارى استحدثه البيزنطيون فى مصر ليشابه ما كان معروفاً حينذاك فى الغرب ، واستمر هذا النظام فى مصر البيزنطية ربما إلى أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين . (٢)

أدت الإصلاحات التى قام بها دقلديانوس إلى تغيير جوهرى فى نظام مصر الإدارى ، فقد أصبحت البلاد وقتئذ تنتظم ثلاث ولايات بعد أن كانت ولاية واحدة ، وجدت فصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية ، ونظمت جباية الضرائب وطريقة تقديرها على أسس جديدة ، بيد أن التغيير لم يشمل فى بادئ الأمر ناحية بعينها ، فقد ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم *Nomoi* ولم تتمتع عواصم هذه الأقاليم بالاستقلال الذاتى الكامل حتى اتخذت الخطوة الحاسمة فى هذا الصدد فى تاريخ غير معروف بين عامى ٣٠٧ و ٣١٠ عقب تنازل دقلديانوس عن العرش (أول مايو سنة ٣٠٥) وبفضل هذه الخطوة لم يعد الإقليم وحدة التقسيم الإدارى ، وألغى منصب المدير *Strategos* – وذلك على الأقل فى شكله القديم – كما ألغى منصب " الكاتب الملكى " ، ومنذ ذلك الوقت حمل مجلس الشورى المسئولية الكاملة عن الإدارة المالية والإدارة العامة على السواء ، لقد كانت مصر تتألف من عدة أقاليم لكل منها عاصمته ومديره الخاص ، فأصبحت الآن مجموعة من المدن أو البلديات *Civitates* التى تتمتع بالحكم الذاتى وتتبع كل منها منطقة ريفية تعرف فى اللاتينية باسم *Territorium* وفى اليونانية باسم *Enoria* ، وقد قسمت هذه المنطقة التى تقابل فى العادة الإقليم القديم (برغم حدوث بعض التعديلايت) إلى عدد من المراكز *Pagi* تقابل مراكز النظام القديم التى كانت تسمى *Toparchiai* ، وكان يشرف على الإدارة المالية فى كل مركز *Pagus* موظف يدعى *Praepositus* يخضع لموظف جديد فى البلدية يسمى *Exactor* ، وهو الذى انتقلت إليه الاختصاصات المالية لمدير الإقليم ، وقد آلت بقية اختصاصات هذا الأخير إلى رئيس مجلس الشورى *Propoliteumenos* ، وقد أدى هذا التشابه الجزئى بين اختصاصات " الاكساكتور " و " الاستراتيجوس " إلى أن أصبح الأول يحمل فى بعض الأحيان لقب الثانى ، لكن ذلك لم يكن سوى أثر من آثار النظام القديم ، واستحدثت بعد ذلك فيما يحتل ، ولكن قبل عام ٣٣٦ دون شك وظيفة جديدة هى وظيفة " النقيب " *Defensor* ، وكانت مهمة صاحبها الرئيسية حماية الفقراء *Humiliores* من بطش الأغنياء *Potentiores* .

وكانت النتيجة النهائية التى تمخضت عنها هذه التغييرات هى أن أصبحت مصر أكثر شبهاً بولايات الإمبراطورية الأخرى عما كانت من قبل برغم أن العوامل الجغرافية وغيرها أبقت على قسط

معين من الاختلاف ، والواقع أن أهم هدف سعى إليه دقلديانوس من وراء إصلاحاته كان توحيد النظام الإدارى وتبسيطه ، الأمر الذى يؤدى بطبيعته إلى تدعيم قوى الإمبراطورية وتحقيقاً لهذا الهدف اتخذت خطوة أخرى نرى آثارها واضحة فى وثائقنا البردية ، تلك هى اعتبار اللاتينية لغة رسمية حتى فى الولايات التى كانت الإغريقية لا تزال تحتل فيها هذه المكانة مثل مصر ، لكن التغيير الفعلى كان تافهاً فقد ظلت اليونانية لغة رئيسية فى المحاكم والإدارات الحكومية ، وكانت تصدر بها القرارات العامة . أما النتيجة الجوهرية للنظام الجديد تلك التى نراها واضحة فى الوثائق البردية فهى أن المحاضر الرسمية للقضايا أصبحت تصدر فى إطار لاتينى ، أى أن العنوان والتاريخ وموضوع القضية كانت تكتب باللاتينية ، وأحياناً كانت ملاحظات الوالى نفسه *Praefectus* تكتب بهذه اللغة ، أى أقوال طرفى القضية والشهود والقضاة ، وكذلك رئيسهم فى كثير من الأحيان فظلت تكتب باليونانية ، وثمة تغيير أبعد من ذلك مدى وهو العدول عن طريقة تاريخ الوثائق القانونية بسنوات حكم الإمبراطورية إلى التاريخ بسنوات القناصل ، مع ذكر موقع السنة من دورة تقدير الضرائب *Indictio* التى تحدث مرة كل خمسة عشر عاماً وظلت هذه الطريقة متبعة حتى ألغيت القنصلية على أيام الإمبراطور جستنيان فأعيد نظام التأريخ بسنوات حكم الإمبراطور ، وهناك نتيجة أخرى طيبة لسياسية دقليدانوس وهى أن عدداً كبيراً من البرديات اللاتينية التى ترجع إلى العصور البيزنطية وصلت إلينا لأن تعلم اللاتينية أصبح هدفاً يسعى إل

إدارة المدن أو البلديات :

اهتم الإمبراطور جستنيان بإعادة تنظيم إدارات المدن حتى يصلح الانهيار والتداعى الذى تعرضت له المدن منذ القرن الثالث الميلادى ، ومما لاشك فيه أن هذه الإصلاحات كانت بغرض إقرار الأمن ووحدة إقليم مصر حتى يتسنى لبيزنطة الاستفادة من ثروات مصر ، لذا نجد أن جستنيان قد أبقى على مكانى مدينة الإسكندرية فأقر وظيفة الموظف المعروف باسم *Vindex* الذى أقامه الإمبراطور أنستاسيوس لإدارة الشئون المالية والذى كان يخضع لسلطان نواب بلدية الإكندرية وهو فى نفس الوقت يعتبر ممثل السلطة المركزية ، وكان يخضع لسلطة الأوجستال فى الإدارة المالية ، ولعل

إقامة مثل هذا الموظف فى الإسكندرية (الموظف الإمبراطورى) كان له فائدة كبيرة للإمبراطور جستنيان لأن الإسكندرية كانت مشهورة بسرعة إثتثارة أهلها وميلهم إلى القلق والاضطراب الأمر الذى كان يهدد عملية جباية الضرائب وحفظ الأمن ، أما بالنسبة لخارج الإسكندرية فقد حرص جستنيان على اختيار أعضاء البلديات من بين العمال المخلصين للحكومة البيزنطية حتى يضمن استمرار عملية جباية الضرائب مع حفظ الأمن .

وضع جستنيان فى كل مدينة من مدن الأبروشيات نواب بلدية إلى جانب الباجرك ، وقد ورد ذكرهم فى القانون رقم ١٣ على أنهم عمال الجباية الخراج إلى جانب الباجرك – وكان يساعد نواب البلدية ديوان البلدية الذى كان يتكون من كاتب الحسابات ، والكاتب ومتولى الدعاوى أو الشكاوى ، والخازن المكلف بحفظ الضرائب بعد جبايتها ، ووجد بالمدينة كبير الأطباء وموظفيون للإشراف على صـــــيانة الجســـــور وآخـــــرون يشـــــرفون علـــــى الحمامـــــات العامـــــة بالمدينة .

أخذت أعمال البلدية تتضائل بسبب وجود وظيفة حامى المدينة الذى عدلها جستنيان ، فقد وضع حد للمظالم التى لم يتمكن الحماة من وقفها أو منعها بل فى أحيان كثيرة كانوا هم المتسببون فيها أو مرتكبيها ، فما كام من الإمبراطور جستنيان إلا أن جعل هذه الوظيفة من الالتزامات المفروضة على الأعيان .

ومنذ ذلك الوقت تضاءلت وظيفة حامى المدينة بسبب تضاؤل النظم البلدية وازدياد نفوذ كبار الملاك ، وعلى الرغم من ذلك لازال لحامى المدينة أهمية خاصة فهو يعتبر رئيس هيئة نواب البلدية ويشارك فى إدارة المالية وإدارة القضاء ، ويجرى عادة انتخابه من بين أعيان المدينة ، ويقوم ==== ملاك الأراضى ، ويخضع لسلطان حامى المدينة عدد من المستخدمين يساعدونه فى تأدية الأعمال الموكلة إليه .

وفى القرن السادس الميلادى ازداد نفوذ الكنيسة وأصبح لها دور فى الإدارة البلدية ، فأصبح من حق الأسقف الاشتراك مع الأعيان فى اختيار بعض الموظفين والإشراف على الموارد المالية للمدينة ، ويشارك الأسقف المواطنين فى صيانة الحمامات والشون والسقايات والجسور ، وأيضاً التأكد

من صحة الموزاين والمكاييل ، فكان بطريرك الإسكندرية حنا المتصدرق يبعث بموظفين من قبله للطواف فى أنحاء المدينة .

أما بالنسبة للقرى فقد بقيت منها نظام البلديات سواء أكانت هذه القرى تتمتع بالجباية الذاتية أم لا ، ويتضح مما سبق أن القرية المصرية أهم وحدة إدارية ، وكان لها حكومتها الخاصة التى تسير أمورها الداخلية وعلى رأس القرية يكون الأعيان الذين كانوا يتمتعوا بمكانة ملحوظة وكان الأعيان يعملون لصالح أهل القرية .

أما بالنسبة للكومارك فهم يؤلفون جانباً من هيئة الأعيان وكذلك بالنسبة للميزون إلا أن الميزون قد تعرضت وظيفته للتعديل ، فكان أحياناً يقصد به حاجب القصر وأحياناً أخرى كان يستمد من الباجرك ، وفيما عدا ذلك فإن الميزون يعتبر من موظفى بلدية القرية ويتقاضى مرتب مقابل ما يؤدى من أعمال .

على اية حال فقد كان لكل قرية مجلس كما سبق القول يتكون من أعضاء مكلفين بإدارة المالية مثل الجباة والكتاب وعمال البريد ومن المرجح أن القائمين على الشرطة المحلية كانوا ينتمون إلى هذا المجلس وقد يختلف هذا المجلس باختلاف حال القرى ، فإن كانت القرية تتمتع بحق الجباية الذتى ، صار لأعضاء المجلس علاقة قائمة مع دواوين رؤساء الأبروشيات ، فيما يختص بإدارة الشئون المالية ، ويتلقون الأوامر منها ، خاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب أو الشرطة وأيضاً يتلقون المخالفات التى تفرض على المخالفين ، وكان لهؤلاء الأعيان أيضاً علاقة بالباجرك الذى كانت تمتد سلطته للقرى الواقعة فى باجركيته .

وفى القرن السادس الميلادى فرض نظام الإلزام (التكليف) على أشخاص من ا'يان بشأن تكليفهم بتأدية أعمال عامة ، ونعرف من خلال الوثائق أنه لا يجوز تكليف شخصين فى وقت واحد بتأدية عمل واحد ، وأن بعض أعمال السخرة كانت وراثية مثل وظيفة جابى الخراج وفئة المجدفين فى سفن الدوق ووظيفة حامى المدينة كانت مثلاً واضحاً لأعمال السخرة فكان عليه أن يتولى وظيفته لمدة

عامين ، وكان نقل القمح يعد من الأعباء المفروضة والمقررة على البحارة إلا أن الحكومة البيزنطية حرصت على تعويض البحارة بفرض ضريبة الميرة (برسم البحارة) تمنح للبحارة حتى تعوضهم . (٤)

هوامش الفصل الثالث
التنظيمات الإدارية فى مصر البيزنطية

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٦٩ – ٧١

- آيدرس بل : مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة : عبد اللطيف أحمد على ، ص ٨٥ .
- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٨٣ – ٨٥ .
- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٧ .

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ٧٠ – ٧١ .

- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٧ – ١٨ .
- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٨٤ – ٨٥ .

(٣) آيدرس بل : مصر من الإسكندر حتى الفتح العربى ، ص ١٥٥ – ١٥٨ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٨١ – ٩٥ ، ص ١٥٥ –١٧٧ .
- منيرة محمد الهمشرى : النظام الإدارى والاقتصادى فى مصر ، ص ٥٧ – ١١٤ .
- صبرى أبو الخير : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٧٣ – ٩٣ .

(٤) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٨٤ – ٨٧ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٥٥ – ١٧٧ .
- صبرى أبو الخير : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ٧٣ – ٩٣ .

تدريبات على الفصل الثالث

السؤال الأول :

أكتب مقالًا تاريخياً عن التنظمات الإدارية في مصر خلال العصر البيزنطي

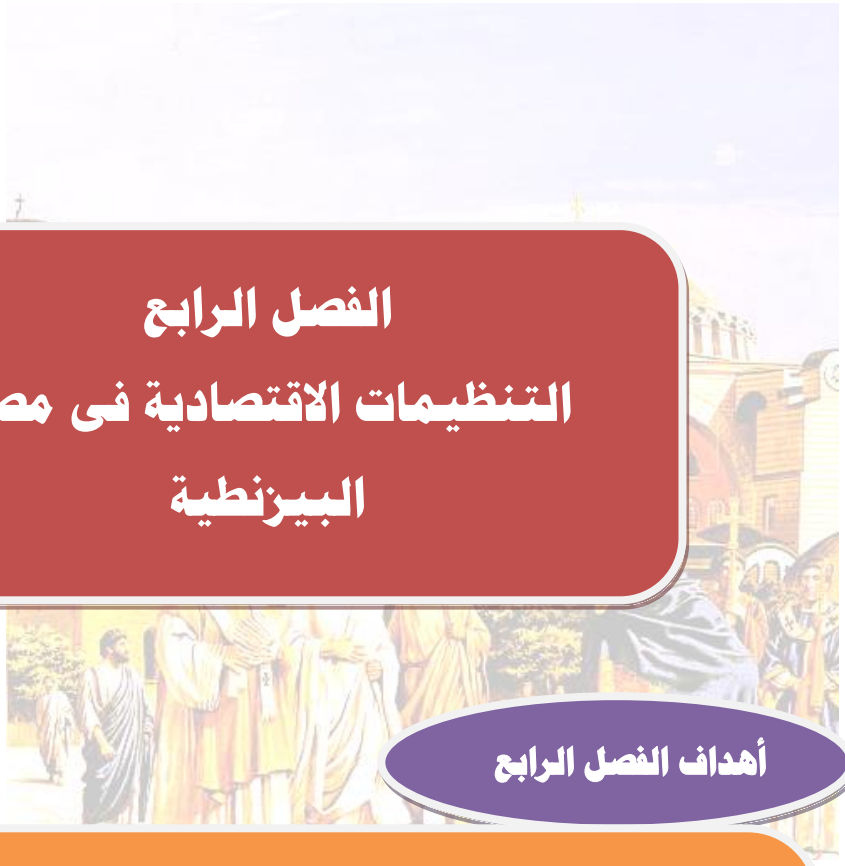

الفصل الرابع
التنظيمات الاقتصادية فى مصر البيزنطية

أهداف الفصل الرابع

يهدف هذا الفصل إلى التعرف:

١- التنظيمات الاقتصادية فى مصر البيزنطية.

٢- ثانيا : نظام الحماية والأبعاديات (الضياع).

٣- الزراعة والصناعة والتجارة في مصر البيزنطية

أولاً : نظام الأراضى الزراعية وملكيتها :

انقسمت الأراضى الزراعية فى مصر إلى ضياع إمبراطورية أرض التاج ، وأملاك خاصة بالإمبراطور ، وأرض الكنائس ، وقد آلت أرض المعابد قديماً إلى أرض تاج حيث اعتبرها الإمبراطور دقلديانوس من أراضى التاج إلى جانب ما صادره دقلديانوس من أملاك أهل الإسكندرية الذين ناهضوا حكمه واعتبرها من أرض التاج ، وكانت ضمن أملاك الإمبراطور فى مصر محاجر الجرانيت والمرمر والشب والنطرون ، ومن الواضح أن الملح كان احتكاراً حكومياً فى أنحاء الإمبراطورية .

وتدل السجلات والقرارات التى وجدت فى الفيوم على أن أرض التاج كانت موجودة فى سنوات ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥م ، وفى القرن الخامس أطلق على أملاك الإمبراطور الخاصة اسم البيت المقدس ، أما بالنسبة لأرض الكنائس والأديرة فقد آلت إليها عن طريق الهبات التى وهبا الأباطرة من أملاكهم الشخصية والأملاك المصادرة من أصحابها ، وكانت الكنائس والأديرة تقوم بزراعة أراضيها أو تأجيرها للمزارعين .

كما انتقلت كثير من أراضى التاج إلى الأفراد وأصبحت ملكاً خاصاً لهم ومنها ما صار أرض طعمة ، كما تم التصرف فى بعض الأراضى بالبيع لذلك أخذت أملاك الدولة فى التناقص ، ولم يعد الإمبراطور فى العصر البيزنطى المالك الوحيد أو أهم الملاك فى مصر .

ونستطيع القول أن الفلاحين قد استأجروا أرض التاج فى القرن الثانى الميلادى ، أما فى القرن الثالث فقد بدأت عملية شراء الأراضى الإمبراطورية أو أراضى الدولة والملكية العامة . حقيقة أن القرن الثالث الميلادى قد شهد بع التغييرات نتيجة قيام بعض الثورات ، وحدث فى النصف الثانى من القرن الثالث تضخم فى النقد وارتفع سعر القمح وهذا دليل على أن حرفة الزراعة أصبحت مربحة ، وربما أدى ذلك إلى إقدام أصحاب رؤوس الأموال إلى مد إيجارات الأراضى التى استأجروها من أرض التاج أو الأملاك الإمبراطورية ، وليس لدينا دليل يؤكد بيع أرض الإمبراطور رغم حاجة الأباطرة إلى المال ، ولكن يوجد إقرارات الأراضى تشيد إلى أن أرض التاج يجوز أن يملكها الحائز لها ، وازدادت هذه الظاهرة فى منتصف القرن الرابع الميلادى حتى أن فى مدينة هرموبوليس بلغت الأراضى الخاصة حوالى سدس مساحة الأرض الزراعية فى مصر كانت ملك كبار الملاك ، وفى القرن السادس ملكت أسرة " ابيون " وحدها خمسين المساحة الزراعية فى مدينة اكسريتوس .

ومن المحتمل أن الحكومة قد باعت الأراضى المهملة أو أراضى الأملاك الخاصة بالإمبراطور ، وأيضاً أراضى الأطراف التى كانت تباع بأثمان منخفضة ، وهناك أدلة فى القرن الرابع الميلادى تشير إلى اختفاء الأراضى العامة ، وما تبع ذلك من نمو الملكية الخاصة .

وتوجد سجلات عن بيع الأراضى بعد دقلديانوس ويبدوا أن هذا الأمر (حق الملكسة) قد انتشر بعد أن قضى دقلديانوس على ثورة أخيلسو وأعاد تنظيم البلاد ، وتقرر بيع الأراضى الزراعية بشط أن يقبل المشترى تحمل تسديد ما على الأرض من التزامات عامة فى المستقبل ، وقد جرى أيضاً بيع أرض الكنائس والمعابد ، وقد حفظت لنا سجلات مجموعة البردى بعض عقود البيع ، فقد أوردت كل ما حازه من أراضى أفراد يعيشون فى الحامية المرابطة غرب المدينة ، وكل ما حازه أهل انتينوى (الشيخ عبادة) من أرض فى هرموبروليس (الأشمونين) وتبلغ مساحة الأراضى كلها التى تم بيعها وأوردها هذا السجل نحو ٢٠ ألف فدان ، منها ١٧ ألف فدان أراضى خاصة ، ١٤٥٠ فدان أراضى عامة ، ومساحة صغيرة تبلغ حوالى عشرة أفدنة تعتبر أراضى زمام المدينة ، وربما نستطيع أن نؤكد من خلال هذا السجل أن انتقال هذه الأراضى إلى ممتلكات خاصة ، نشأت فى مصر زمن دقلديانسو

، ثم تطورت زمن قنسطنطين ، ويمكن لنا أن نفترض أن حاجة الإمبراطور للأموال للإنفاق على جيشه الجديد وإدارته الجديدة هى السبب وراء بيع هذه الأراضى ، وربما كان ما حازه الفلاحون من الأراضى عن طريق الإيجار ، قد انتقل إليهم بطريق الوراثة وتحول إلى أراضى خاصة ، والفرق الوحيد بين المالك والمستأجر ، أن الأول يدفع ضريبة ، والثانى يدفع الخراج للدولة ، وفى قانون سنة ٣٩٥ الموجه إلى والى مصر ما يدل على أن ملاك الأراضى أصبحوا من القوة مما جعلهم يتحدون سلطة الحكومة . (١)

ثانيا : نظام الحماية والأبعاديات (الضياع) :

يتضح لنا أن الأملاك الخاصة قد نمت واتسعت نتيجة قوة نظام الحماية التى اتخذها المالك القوى والغنى لحماية الملاك الصغار الذين كانوا يأنون تحت استبداد وظلم الجباة ، ويعتبر استبداد الجباة وقسوتهم سبب ظهور هذا النظام ، فلم يكن للوالى أية نفوذ أو سيطرة على أداء الإدارة الحكومية الفاسدة ، ولا يملك السيطرة أيضاً على القوات الحربية ، وكانت مدة بقائه فى منصبة قصيرة ، وكان الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية قد أدى إلى نتائج سيئة أهمها عدم التعاون بين السلطتين ، حقيقة لم تقع ثورات خطيرة تؤثر على الأقاليم وسلطة الحكومة ، لكن نمو الأبعاديات فى الشرق كان مصدر الأخطار أكبر على حياة الدولة البيزنطية حيث أصبح لأصحاب هذه الأبعاديات من القوة ما يمكنهم من تحدى جباة الضرائب والوقوف فى وجههم وعلى هذا فقد نمت الملكية الخاصة على حساب التاج ، وأصبح فى مصر ضياع كبيرة مثل التى وجدت فى الغرب .

ويدل سجل هرموبوليس المصدر الأساسى لهذا الاتجاه فى القرن الرابع الميلادى على نمو الضياع الكبيرة ، ويدل على أن الغالبية العظمى من أسماء أصحاب الأراضى من المصريين أو مصريين ويونانيين ، وقد بلغت أكبر مساحة نحو ١٣٧٠ فداناً قد حازها عدد من ورثة أمونيوس ولم يتم تقسيمها .

لم يرد فى برديات القرنين الرابع والخامس الميلاديين إلا أدلة قليلة عن الملكية الخاصة ، ولكن يوجد بعض المراسيم التى صدرت فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس وهى تعالج بعض أوجه القصور السائدة فى مصر ، وتكشف عن الجهود التى بذلها الإمبراطور لوقف نمو الضياع الكبيرة فى الإقليم المصرى ، وكيف لجأت الحكومة البيزنطية إلى سن قوانين لمنع نمو هذه الملكيات عن طريق الحماية التى يبسطها الموظفين الأقوياء والملاك الأغنياء على أصحاب الأملاك بسبب قسوة جباة الضرائب وشدتهم ، على أن ما جرى تطبيقه بمصر منن قوانين الأباطرة لم يكن من القوة ما يجعلها توقف نمو الضياع الكبيرة بمصر .

وتتوافر الأدلة التى تشير إلى ازدياد نمو الضياع الخاصة بمصر فى القرن السادس ، ولم يوجد دليل يؤكد أن أحد الملاك قد امتلك مساحات شاسعة من الأراضى مثلما كان فى الغرب ، ففى سجل أرض هرمويولس لم تتجاوز مساحة أكبر الضياع ١٣٧٠ فدان ، وبلغ متوسط الملكية نحو ٤٤ فدان ، مع العلم أن هرمويوليس كانت تعتبر من أغنى المناطق وأكثرها رخاء ، وخلاصة القول أن الضيعة التى كانت تبلغ مساحتها فى مصر ٨٠٠ فدان لم تكن تضارع بأى حال من الأحوال ما هو معروف فى الغرب من الضياع الإقطاعية .

أراضى القرية :

كانت أراضى القرية يتم تحديدها بما يجاورها من الأراضى التى تتفق معها فى تبعيتها للتاج ، وقد جمعت القرية بين الأرض الخاصة وأرض التاج ، وكان زمام القرية خاص بأهلها ثم انتقل فى القرن الرابع الميلادى الجانب الأكبر من أرض التاج إلى الملكية الجماعية للقرية التى يقع فى زمامها هذه الأراضى .

اعتبر الإمبراطور دقلديانوس القرية وحدة بالغة الأهمية فى زراعة الأرض ، واعتبرها مسئولة عن زراعة الأرض المحيطة بها ، وبذلك أدخل فى زمامها جزءاً من أرض التاج ، ويتضح لنا من قانون ٣٩٥م الموجه إلى مصر أن ملاك الأراضى أصبحوا من القوة ما جعلهم يتخذون سلطة الحكومة كما سبق القول ، كما أن بعض القرى قد بلغت من الرخاء والثروة أنها استطاعت أن تشترى من كبار الموظفين ما صار إليهم من حماية .

وقد زاد من مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضى القرية لأى أجنبى عنها ، بينما أجازت البيع لأهل القرية الواحدة ، فأصبحت القرية بذلك تؤلف نقابة للفلاحين ومسئولة عن زراعة الأرض التابعة لها ودفع الضرائب المقدرة عليها .

من أنواع ملكية الأراضى ما عرف بأراضى الكنائس ، وقد أتت إليها هذه الأراضى كما سبق القول عن طريق الهبات ، وكانت الهبات تأتى عادة من الأراضى المصادرة ، والواضح من الوثائق الرسمية أن كلاً من كنيسة القسطنطينية والإسكندرية كان لهما أملاكاً خاصة بمصر ، ومع وجود كنيسة فى كل قرية تقريباً فى القرن السادس الميلادى فكان لكل كنيسة أرض خاصة بها جاءتها من الهبات الخيرية سواء هبات عامة أو هبات خاصة ، فقد اشتهر عن الأباطرة السخاء ، كما أن المصريين قد جعلوا فى وصاياهم نصيباً للكنيسة .

وقد كثرت أملاك الكنائس والأديرة فى القرن السادس الميلادى وصار لهما الصفة القانونية فى امتلاك الأراضى ، وتدل سجلات حسابات أمونيوس فى أفروديتو (كوم أشقاو) على أن جانباً كبيراً من الأراضى كان مستأجراً من الأديرة المجاورة ، وقد تولى أسقف أهناسيا الإشراف على عدد كبير من الرهبان والراهبات أثناء قيامهم بالعمل فى الأراضى ، وكان أكبر دليل على أملاك الكنيسة الكبيرة ما ورد فى سجلات الضرائب الخاصة بالقرن السادس الميلادى .

وقد دخلت فى حوزة الكنيسة أرض الحياة (الطعمة) وهى أصلاً من الأراضى المهملة والقابلة للإصلاح ، وتعتبر من أراضى الدولة أو بيت المال ، فكان يجرى تأجيرها لمدة طويلة مقابل دفع خراج منخفض على أن يقوم الحائز لها بإصلاحها وزراعتها أو غرسها بأشجار الكروم والزيتون .

وقد حازت الكنيسة أيضاً أراضى عجز أصحابها عن دفع الضرائب المستحقة عليها فعرضوا أراضيهم تحت حماية الكنيسة لكى تخلصهم من ظلم واستبداد جامعى الضرائب ، وكانت هذه الحالات موجودة فى الإسكندرية والقسطنطينية ، وكان على الكنيسة امتلاك ما بيدهم من أراضى فى مقابل دفع ما عليهم من ضرائب متراكمة أو تعهدات والتزامات عليها ، ويتم استئجار صاحب الأرض لها من الكنيسة وزراعتها وقد حرصت الكنيسة على عمل عقود إيجار طويلة الأمد .

القنيـــة :

ارتبط الفلاح فى مصر منذ العصور القديمة بسيده بعلاقات إقطاعية حيث كان الملوك والكهنة فى مصر القديمة يمتلكون الأرض وكان الفلاح يستأجر هذه الأرض ويقوم بزراعتها ، وفى العصر البطلمى ظل الملوك يملكون الأرض فيما عدا ما منح لليونانيين أو الجند ، وعلى الرغم من عدم وجود قوانين تلزم أو تربط الفلاح بالأرض فإن أفقه لم يتجاوز الحدود الضيقة لقريته وأصبح أبناءه يتعلمون حرفة الزراعة وأصبحت حيازة الأرض وراثية ، وعادة ما كان يتخذ الأبناء حرفة أبيهم ، غير أنه لم يوجد قاعدة تلزم بذلك فنجد فى كثير من الأحيان أن الأبناء كانوا يتخذون مهنة من المهن عن طريق التلمذة الصناعية ، وقد كان من جراء دخول مصر فى محيط تجارة البحر المتوسط ، أن نمت المدن الصناعية مثل الإسكندرية ، واجتذب نشاطها الصناعى أعداداً كبيرة من سكان القرى ، فلم يكن مطلوب من الفلاح الالتزام بمسقط رأسه وكل ما كان يطلب منه هو تسجيل اسمه فى موطنه لأهمية ذلك فى تعداد السكان .

على أية حال فإن الفلاح المصرى كان يؤثر الإقامة فى مسقط رأسه حيث اعتاد العيش فيه ، وأن الأراضى التى كانت تقع على حافة الصحراء هى التى تعرضت للإهمال والخراب وهجرة السكان

بسبب انخفاض منسوب النيل أو إهمال تطهير الترع أو رداءة المحصول ، ومن المعروف أن الفلاح فى ظل النظام الإدارى الجديد قد التزم بزراعة أرض التاج عن طريق السخرة .

وكان الفلاح المصرى فى العصر البيزنطى ينتمى إلى ثلاث فئات من الفلاحين :

الفئة الأولى : هم الفلاحين الذين كانوا يعيشون فى القرية ، وكانوا يعملون بالزراعة سواء كانوا أحرار أو مستأجرين أو يندرجوا تحت العبودية (القنية) .

الفئة الثانية : الفلاحون كان عليهم زراعة أراضى القرية فإذا هجروا القرى التى أقاموا بها وانتقلوا إلى قرى أخرى أو ساد آخرين تحتم عليهم العودة إليها ، وإذا حاول سادتهم الجدد منعهم وجب عليه تعويض سادتهم السابقين عن الخسائر التى لحقت بهم .

الفئة الثالثة : اشتملت على الفلاحين القرايين وبمعنى آخر فلاحين أحرار وهم الفلاحون الذين ارتبطوا بالأرض فى قريتهم وجرى حسابهم فى التعداد وسعوا بمحض اختيارهم إلى الحصول على حماية بعض الأفراد الأغنياء والأقوياء فأصبح بذلك مستأجر لأرضه .

ويعتبر أبناء هؤلاء الفلاحين الأحرار أيضاً أحراراً وينبغى عليهم زراعة أراضى آبائهم وقد ورد لفظ فلاح قرارى لأو مرة فى برديات سنة ٤٩٧م أى خلال حكم الإمبراطور انستاسيوس حيث ورد فى وثائق من محفوظات أسرة أبيون فى البهنسا ، وكانت العلاقة بين السيد والفلاح تتمثل فى أن الفلاح يعترف بتسلمه أدوات خاصة بالزراعة فى المزرعة التى يعمل بها ، وأن يقوم بأعمال الرى ويؤدى ما تقرر عليهم من خراج الأرض لسيده ، وأن يعلم ولاءه وخضوعه لسديه .

ويقوم السيد أحياناً بإقراض المستأجر أموالاً فى مقابل أن يتعهد الفلاح المستأجر بتسديد ما عليه من الديون بضمان كل ممتلكاته وفى حالة تعذر تأدية ما قد اتفق عليه كان لزاماً عليه دفع ما قد يتضمنه العقد من شروط جزاء .

وعلى الرغم من هذا فإن الفلاح المصرى كان يعتبر حراً ، وهو مواطن رومانى ولد ونشأ ودرج على أن يذكر اسم أبيه وأمه ، وهو بذلك يختلف تماماً عن النظام القنية المعمول به فى الغرب ، فلم يكن بمصر صيغات خاصة كبيرة مثلما كان عليه الأمر فى الغرب ، صحيح أن قيان الملكيات الكبيرة

زمن الحكم البيزنطيى كان أمر معترف به ، ولو أنها أقل مما كان فى الغرب ولكن وجود القنية فى مصر كانت تحتاج إلى دليل ، أو بمعنى آخر أنه لم يكن فى مصر قنية (عبودية) بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

وقد ناهضت المسيحية ولاسيما الديرية كل المحاولات التى قام بها المالك لإنزال الظلم بمزارعيه وفلاحيه ، وعملت على حماية الفارين من ظلم الملاك فهكذا عملت الديرية على منع تدهور الفلاح المصرى وإنزاله إلى مرتبة العبودية .

بيع وإيجار الأراضى :

تقرر بيع الأراضى الزراعية كما سبق القول منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس واستمر ذلك الأمر إلى ما بعد عهد هذا الإمبراطور ، فتقرر بيع الأراضى الزراعية بشرط أن يقبل المشترى تحمل مسئولية الوفاء بما على الأرض من التزامات عامة فى المستقبل .

وكان إيجار الأرض فى العصر الرومانى يتم بدفع جزء من المحصول بالنسبة للأراضى التى تزرع حبوباً ، وبالنسبة للأراضى التى تزرع الكروم وأراضى البساتين فيتم إيجارها نقداً ، وفى حقيقة الأمر فإن هذه القاعدة لم تستمر بعد القرن الرابع الميلادى حيث كانت حسابات الإيجارات تدفع نقداً ، وفى بعض الحالات كان المستأجر يحصل مقدماً على سلفة من البذور فى حالة الأراضى التى تزرع بالحبوب مثل القمح ، وكان يأخذ نصف المحصول خالياً من كل الالتزامات ، كما يجرى إمداده بالماشية وسائر أدوات الزراعة حتى زمن الحصاد ، وفى مقابل ذلك كان على المستأجر ألا يتخلى عن عقد الإيجار وأن يؤدى جميع الأعمال فى الأوقات المحددة .

وأحياناً كان المستأجر غير آمن على نفسه فى حالة تعرضه للطرد من أرضه وكان يحتج فى بعض الأحوال على انتهاء مدة الإيجار ، وكثيراً ما كان يتمسك بالبقاء فى أرضه . (٢)

الضرائب :

لما كانت مصر تعتبر من الأملاك الخاصة للإمبراطور ، وليست ولاية من ولايات الإمبراطورية صار ما يجمع منها من الخراج ينتهى إلى خزانة الإمبراطور بروما ، وأهم هذه الضرائب

ما كان يؤخذ منها عيناً ، وهى التى تقررت على الأرض الصالحة للزراعة وجرى استخدامها فى إمداد أهل روما بالمؤونة .

ترتب على نشوب الحروب وازدياد الجيش وكثرة عدد الموظفين فضلاً عن كثرة نفقات البلاط ، وتكاليف المنشآت المعمارية أن ازدادت الأعباء على مالية الدولة ، ونجم عن انخفاض سعر العملة أن ما تحصل من الضرائب لم يسدد حاجات الدولة ، كل ذلك أدى إلى تقرير ضريبة نوعية ينفق منها على الجيش وتقرر تحصيلها بناء على أمر الإمبراطور من الأقاليم التى تجتازها الجيوش واشتهرت هذه الضريبة الخاصة باسم الميرة *Annona* ، ولم تلبث أن صارت زمن دقلديانوس ضريبة دائمة ، وما تحصل من هذه الضريبة صار يعتبر أساس اقتصاد الدولة ، فكانت تؤخذ عيناً ، وتقررت على كل الإمبراطورية وارتبطت بما ينتج من المحصولات ، ومن ثم جرى إعفاء سكان المدن منها .

ولتحقيق جباية هذه الضريبة جرى تقدير عدد الوحدات التى تلتزم بدفع الضريبة (الميرة) وتقررت مراجعتها كل خمس سنوات ثم صارت مراجعتها كل ١٥ سنة وهذه العملية هى المعروفة بالدورة *Indictio* .

وما جرى اكتشافه حديثاً من بردية احتوت على المرسوم الخاص بهذا النظام ترجع فى تاريخها إلى ٦ مارس سنة ٢٩٧ وصدر عن والى مصر الذى جعل لوائح الضريبة موضع التنفيذ ، ويشير فيه " إن لأقر صراحة ما يخص كل فدان من الضريبة وفقاً لطبيعة أرضه ، وكذا ما يخص كل رأس من الفلاحين من الضريبة " فكأن ضريبة الأرض وضريبة الرأس تقررتا معاً " .

ومن هذا المرسوم يتبين وجود ضريبتين رئيسيتين فى مصر إذ تقرر لكل فدان نصيب معين من الضرائب وفقاً لنوع الأرض ، ومن الواضح أن هذه الضريبة النوعية تقررت أساساً على الفدان *Jugum* ، أما صفة الأرض فالمقصود بها نوع الأرض وتربتها سواء أرض صالحة للزراعة أو أرض مراعى أو أرض كروم أو مستنقعات أو حدائق ، ونستخلص من المرسوم أنه لابد من فرض ضريبة موحدة على الأرض بحسب صفتها ، وبذلك تقرر فرض ضريبة موحدة على أرض التاج والأراضى الخاصة وأراضى الكنائس ، وتقرر إزالة ما كان من امتياز لليونانيين لاسيما فى أوائل عهد الإمبراطورية .

أما الضريبة النقدية فتقررت على من ينزل بالريف من الناس فى أعمار مختلفة فلم يشر القانون إلى سكان المدن وإلى ما إذا كانت الضريبة على المهن ظلت مستمر ، ومن الواضح أن كل الضرائب المفروضة قبل كراكلا ، لابد أن يحل مكانها ضريبة واحدة تفرض على الأشخاص ، أما الرسوم الجمركية فكانت خاضعة لسيطرة الحكومة ولذا لم يرد لها ذكر فى هذا القانون .

وتولى تقدير الضرائب مندوبون جرى تعيينهم لهذه المهمة ، واشتد حرص الدولة على أن تبقى ما كان قائماً من الوحدات ، ولذا إذا أهمل المزارعون حقولهم قامت الحكومة بمنحها لغيرهم ، فيعتبرون مسئولين عن تسديد ما عليها من الضرائب ، ومتى تم التعداد لا تجرى مراجعته إلا فى حالات استثنائية ، على أن مقدار الضريبة المطلوبة من الوحدة لم يكن ثابتاً بصفة مستمرة إذ أنه يجرى كل عام بمقتضى أمر إمبراطورى تقدير ما تحتاجه الحكومة ثم تتولى إدارة الوالى التى تعتبر أهم سلطة مالية توزيع هذا المقدار عى الإقليم فيقوم حكام الأقاليم باتخاذ الخطوات اللازمة لجمع الضرائب فإذا حدث لسبب من الأسباب أن المبلغ المقرر بمقتضى أمر الإمبراطور لم يكن كافياً تقرر فرض مبلغ إضافى .

ويقوم بجمع الضرائب الموظفون الخاضعون لحاكم الإقليم وتحت إشرافه ويقوم بهذه المهمة بوجه خاص أعضاء مجالس البلديات وتعتبر من التكاليف المفروضة عليهم ويتحتم على المكلفين بجمع الضرائب تسديد العجز الناجم عن الضرائب التى لم تتم جبايتها ، فإذا لم يؤدوا هذا العجز وقعت المسئولية على هيئة الأعضاء التى عينتهم ، فلا عجب إذا قررت الدولة جمع الأفراد فى طوائف ، حتى لا يفلتوا من دفع المقرر عليهم وبهذه الوسيلة ترتب على لوائح الضرائب نمو الالتزامات الوراثية ، وارتباط الفلاح بالأرض وارتباط المستأجر بنظام الحيازة .

وتدل الشواهد عن ضرائب القرن السادس على أن الضريبة النوعية كانت موحدة ومقررة على سائر الطبقات فى كل باجاركية ، غير أنه ليس معروفاً عما إذا كانت هذه الضريبة اختلفت فى مقدارها من باجركية إلى أخرى ، وما كان يجبى برسم الجيش من الضريبة لا دليل عليه إلا فى أنتيابوليس وأفروديتو وجر تقديرها بأقل نصف أردب عن الفدان .

وما كان يجبى لخزينة الإمبراطور من الضرائب العادية يبلغ فيما يبدو واحد وثلاث قيراط عن الفدان ، فإذا جرى اعتبار ما كان يجبى برسم الإمبراطور وقدره ٦ آلاف دينار ضريبة خاصة ، صار تقدير الضريبة العادية فى أنثيابوليس بنحو قيراطين عن الفدان ، وإذا اعتبر هذا التقدير (٦ آلف دينار) ضريبة دائمة صار السعر نحو ٥ قراريط للفدان ، فإذا كان السعر العادى للقمح فى القرن السادس ، هو أن كل عشرة أرادب ثمنها دينار ، كان مجموع الضريبة (تشمل النقدية ، والميرة المدينة ، والميرة العسكرية) تساوى تقريباً ثلاث ونصف أردب عن الفدان .

أما ضريبة الرأس فى القرن السادس فلا زالت موضع دراسة فلم يرد فى سجل أنتيابوليس دليل على هذه الضريبة ، ولعلها لم تجمع من تلك المنطقة عند تحرير هذا السجل ، وفى حسابات أسرة أبيون قامت نقابات الفلاحين لا الأفراد بدفع ضرائب معينة من حين إلى آخر ، وفى حسابات ضيعة بهرموبوليس عن مدة أربع سنوات لم يرد دليل عن ضريبة راس تقررت على الأبناء الأربعة والأرقاء والمستأجرين للأرض . (٣)

أما حسابات أمونيوس فى أفروديتو فمنها ما شمل أربع سنوات فى ثلاث سنوات منها دفع بعض المستأجرين ديناراً أو أقل وهذا القدر دفعه النساء والرجال على السواء غير أنه لم يرد دليل عن هذه الضريبة فى السنة السابعة للدورة المالية .

وفى البهنسا حصلت *Stephanous* على قطعة أرض اتفقت على أن تدفع ضريبة دينارا بًرسم ضريبة *Canonica* ، وديناراً آخر برسم ضريبة *Arcarica* وهذا هو الدليل الوحيد فى القرن السادس الميلادى عن ضريبة قدرها دينا (يخرج منه تكاليف جمع الضريبة) ، غير أنه ليس ثمة ما يفسر طبيعة هذه الضريبة ، وهذا هو أقرب مثال لضريبة الرأس على سكان القرى .

وتضمن قانون جستنيان ما أًدره دقلديانسو من قانون يقضى بإعفاء سكان المدن من دفع ضريبة الرأس ، وليس معروفاً إذا كان دقلديانوس ألغى الضريبة المقررة على المهن والحرف والتى كانت تجبى على الرؤوس ، ولم يرد فى العصر البيزنطى من الأدلة الواضحة ما يشير إلى الطريقة التى تحدد بها الضريبة على سائر الحرف . وفى العصر المتقدم اختلفت القيمة بين سائر الحرف وفى

سائر المدن ، غير أن هذه التفرقة إنما ترجع إلى التطور الاقتصادى فإذا جرى إعفاء أهل الإسكندرية من هذه الضرائب ، كان ذلك راجعاً إلى ازدياد النشاط الاقتصادى بالمدينة ، وما هو معروف باسم *Diagraphia* ليس إلا نوعاً من الضرائب المقررة على المهن أو على سكان المدن .

وفى القرن السادس يدل سجل أنتيابوليس على أن كل الأراضى الزراعية فى الباجركية تقرر عليها ضريبة موحدة ، وفى سجل أفروديتو ما يدل على أنه فى سنوات الفيضان المرتفع جرى جمع ما يقرب من ٦ آلاف أردب للميرة المدنية ، أما سجل الجند المرابطين فأشار إلى ما تقرر لهم فى السنة ، ويقدر بنحو ٧٠٠ مد (٢٢٥ أردب) أى نحو ثلاثة ونصف % من الميرة المدنية ، فإذا كان هذا المقدار يمثل متوسط ما هو مقرر لمؤونة الجيش فى مصر فيعتبر ذلك ضريبة معتدلة ، وفى بعض الأحوال تتحول الضريبة المدنية (الميرة) إلى الكنيسة (دير ميتانويا) فتحل بذلك محل الضريبة السنوية ، ولا تعتبر ضريبة إضافية .

ومجموع الضريبة المطلوبة من مصر حسبما أورده جستنيان يبلغ نحو ٨ مليون أردب ، والمفروض أن هذا المقدار يمثل الميرة المدنية للقسطنطينية ، غير أنه من الراجح أن ينطوى أيضاً على مقدار طيب برسم الجيش فى أوروبا ، فإذا افترضنا أن مقدار الضريبة فى أنتيابوليس كان موحداً فى سائر القطر المصرى فإن مساحة الأرض المزروعة يصح تقديرها بنحو ٦.٤٠٠.٠٠ فدان .

لم يجر تقدير للضريبة النقدية بعد دقلديانوس ، والضريبة الرئيسية هى التى تقررت فى القرن السادس على الأرض ، ومن الأدلة ما يشير إلى أن سعر الضريبة النقدية فى أنتيابوليس صار واحد ونصف قيراط للفدان ، وفى أفروديتو قيراطان ، بينما تقرر عن كل فدان من الكروم ٨ قراريط ، وبلغ سعر الضريبة على الفدان المنزرع فى الفيوم قبيل الفتح الإلامى نحو ثلاث قراريط .

فإذا افترضنا أن السعر المقرر على الفدان قيراطان ، وأن متوسط الأفدنة بمصر ٦.٤٠٠.٠٠ فدان كان مجموع المقرر نحو ٥٠٠ ألف دينار بعد خصم النفقات وأجور الجباية ، وما جرى جمعه من القمح زمن جستنيان إذا حولناه إلى مال صار يساوى ٨٠٠ ألف دينار ، والمعروف أن الميرة النقدية *Iargitionalia* تضيف ٨٠٠ ألف دينار ، كما أن الميرة النقدية بافروديتو تبلغ سدس الميرة العينية

Canonica ، والراجح أن كل ذلك يعتبر جانباً من الخراج الذى يرسل إلى القسطنطينية ، فإذا أضفنا إلى ذلك المكوس الجمركية والضرائب المقررة على الكروم والحدائق والمهن ، وما يؤخذ من الضياع الإمبراطورية واحتكارات الحكومة صار مجموع نصيب الحكام البيزنطيين سنوياً من الدخل نحو ٢ مليون دينار .

واللالتزام (السخرة) وفقاً لنظام البلديات زمن اليونان والرومان يعتبر ضريبة واشتدت وطأتها فى أحوال كثيرة أدى إلى أن يهرب الفقراء من السكان ليتخلصوا من أعبائها والتزاماتها ، ومن كان منهم فى حوزته أرض تنازل عن خراجها لمن عينوهم ، على أن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من الضرائب .

وحدث فى العصر البيزنطى نزوع إلى دفع ضرائب برسم موظفى الباجركية أو الإقليم ، فتقاضى جباة الضرائب عمولة تتراوح بين واحد ونصف إلى قيراطان ونصف عن الدينار ، وفقاً لطبيعة الضريبة .، وتقاضى عمدة القرية *Meizon* أجره نقداً أو عيناً ، على أن نظام الأجور فى القرن السادس خضع لتشريع الإمبراطور ولذا حصل معظم الموظفين على مكافآت مهما كان قدرها .

ومن الالتزامات المعروفة فى العصر المتأخر ما كان يقوم به من يسمى *Hydrophylax* الذى من واجبه أن يراعى ما إذا كانت القرية حصلت على نصيبها المقرر لها من مياه فيضان النيل فهو يتولى منصبه سخرة على حين أن حراس الحقول يتقاضون عن خدماتهم أجوراً .

أما السخرة المعروفة باسم *Munera Sordida* كالعمل فى تطهير القنوات وإقامة الجسور فلم يرد عنها إشارة فى الوثائق على أنها من أعمال السخرة ، غير أن إغفالها ليس دليلاً على إعفاء الفلاحين منها ، فيذكر مؤرخو العرب السخرة فى مصر بعد الفتح والراجح أن المسلمين أخذوا هذا النظام عن البيزنطيين .

ومن المعروف أن الحرف المختلفة انتظمت فى نقابات وانتقلت العضوية فى هذه النقابات من الأب إلى الابن ، واستخدم الرومان نظام الحرف على أنه وسيلة ناجحة لجمع الضرائب وتقرير الالتزامات ، والمعروف أن كل عامل يدفع من الضريبة التى قررتها الحكومة ما يدفعه سائر العمال دون الالتفات إلى القدرة على الإنتاج ، وليس من المحقق أن الرهبان الذين يؤدون أعمالاً دنيوية فى الأديرة جرى إعفاؤهم من الضريبة .

وليس ثمة ما يدل على أن ضريبة الميراث كانت تجبى فى العصر البيزنطى ، بينما تقرر زمن فالنتنيان الثالث ضريبة موحدة على المبيعات فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، أما المكوس فجرت جبايتها فى الموانى عند وصول المتاجر إليها ، وتقرر تحصيل ١٢ ونصف % من أثمانها وتقررت ضريبة تصدير على الفخار لموازنة خراج الإسكندرية زمن أنستاسيوس غير أنها ألغيت زمن جستنيان .

والحديث عن التنظيمات الاقتصادية والفلاح المصرى يقودنا إى الكتاب القيم الذى وضعته الأستاذة الدكتورة / زبيدة عطا وعنوانه " الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى " ، وقد أوضحت فى هذه الدراسة حقبة تاريخية أخرى (العصر الإسلامى) وهى نقله تاريخية هامة ، تقول الدكتورة / زبيدة فى مقدمة الكتاب :

الأرض والفلاح هما عصب الحياة فى مصر على مر العصور فتلك الأرض الخصبة التى وهبها الله لمصر هى التى شكلت حياة أهلها وأوجه نشاطهم ، فكانت الفلاحة من أهم المهن التى مارسها الشعب المصرى فى عصوره المختلفة .

ولقد كتبت العديد من الدراسات فى مصر والخارج عن الفلاح المصرى عبر الفترات التاريخية المختلفة ، درست وحللت وضعه وتطور الملكية الزراعية ، وقد أرادت بهذا البحث دراسة وضع الفلاح فى نهاية فترة تاريخية وبداية حقبة تاريخية أخرى : القرن الأخير من الحكم البيزنطى حيث بلغت التنظيمات الإدارية البيزنطية نهايتها ، وتحددت العلاقة بين الفلاح والدولة والمالك والمستأجر ، واتخذت الملكية الزراعية صورتها الواضحة التى تختلف كثيراً عن القرن الأول الميلادى ، ثم الفترة الأولى من الحكم الإسلامى إلى نهاية حكم الأمويين وهى الفترة التى وضعت فيها أسس الحكم الإسلامى ، وبدأت الملكية تتخذ صورة جديدة لم تكتمل إلا فى العصور التالية وهى نفس الفترة التى شاهدت نقلة تاريخية هام حيث بدأ العنصر العربى يترك المدينة ويستوطن الريف ويبدأ امتزاجه بالمواطن المصرى ، وقد حددت الشريعة الإسلامية موقفها من الأرض ، وكان اعتماد العرب فى إدارة البلاد على ما ورثوه من تقاليد إدارية من العصر السابق ، وظلت الجباية فى يد الموظفين الأقباط وظلت الدواوين والمكاتبات تسير على النمط السابق وتستعمل فيها اللغة اليونانية .

ولقد تناول العصر الرومانى والبيزنطى عدد من الكتاب كجونسون فى كتابه " مصر والإمبراطورية الرومانية " و " مصر البيزنطية : دراسة اقتصادية " ورولايارد عن الإدارة البيزنطية وميلين وهانتو وهاردى وبيل عن الفلاح والأرض فى العصر الرومانى ، وقد اختلفت الآراء حول وضع الفلاح كمالك ومستأجر وعلاقته بالدولة ، فبينما يرى جونسون : أن الفلاح المصرى تمتع تحت الحكم البيزنطى بالعديد من المزايا بل تمتع بوضع أفضل مما يتمتع به الفلاح فى العصر الحديث وأن هناك فروقاً جذرية بين الفلاح المصرى والأوروبى الذى تطور وضعه نحو العبودية والرق . ويرى آخرون أن الفلاح تعرض لكثير من الاضطهاد والعنت على يد الإدارة البيزنطية وأن هدف الدولة كان استغلاله إلى أقصى حد حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من العبودية وقد لقى كلا الرأيين تأييداً ومعارضة من بقية المؤرخين .

ولقد أفادتنى تلك الدراسات جميعها بالإضافة إلى المجموعات البردية الوفيرة من يونانية ولاتينية وقبطية ، والتى تعود إلى القرن السادس حيث حفظت لنا أراشيف كاملة من سجلات ضياع إقضاعية ، وأوامر إدارية ، وقرارات ومراسيم أصدرها الأباطرة خاصة بمصر ، وعقود إيجار وديون وبيع وتمليك وبعد دراسة تلك المجموعات فإنه يمكن القول أن وضع الفلاح تحت الحكم البيزنطى لم يكن بالوضع المميز ، ولكنه لم يكن أسوأ فترات تاريخه إذ ليس بأسوأ من سابقه أو لاحقه ، فقد خضع تحت حكم اليونان لوضع شبه إقطاعى يربطه بالأرض إلى حد كبير ، وإذا أردنا التحديد فإن الفلاح فى القرون الثلاثة الأولى من حكم الرومان كان فى وضع مشابه لما كان عليه فى العصر البطلمى ، ولكن الأمور تغيرت فى القرون التالية تملك المزارع أرض التاج ، ونستطيع القول من واقع البرديات : إن مصر لم تشهد عصر عبودية الفلاح ولم تتحول أراضيها إلى إقطاعيات تشبه إقطاعيات الغرب ، بل تمتعت بوضع مختلف ، فالضياع فيها لم تتجاوز الألف أرورة إلا فى حالات قليلة وكانت تشمل أراضى مؤجرة من كنائس ، وكانت علاقة المالك بالمستأجر علاقة حر بحر لا سيد بتابع .

وحرص الأباطرة من جانبهم على حمية مصر وحماية المالك الصغير وحاربوا نظام الحماية بتشريعات وقوانين ، فهناك مراسيم أصدرها ثيودسيوس وجستنيان خاصة بمصر وإدارتها ، وكان دافعهم

إلى ذلك حرصهم على دخل مصر وجباياتها وخاصة أن القمح يمثل المصدر الأساسى للطعام فى عاصمتهم والشحنة التى كانت تعرف بالشحنة السعيدة والتى كانت تذهب إلى روما ثم القسطنطينية كانت من عوامل استقرار نظام الدولة .

ولكن آفة هذا النظام التى أدت لعدم تحقيق الفاعلية لمراسيم الأباطرة هو هذا الجيش من الموظفين الذى يمثل البيروقراطية الإدارية والذى حرص قبل كل شئ على مصلحته الشخصية وأجحف بالموطنين ولم يؤد فى الوقت نفسه لما ابتغته الدولة من جبايات وليس أدل على ذلك من قول جستنيان فى مرسومه رقم ١٣ : أن أموال مصر تستنزف عند الجباية ، ولقد سعى فى قوانينه الخاصة بالإصلاح الإدارى إلى أمرين : ضمان العدالة للفلاح وضمان أموال الخزانة ، ولكن يتضح من إحدى البرديات وهى رد على شكوى أرسلها أحد الملاك من قرية أفروديتو (كوم أشقوه) التى تتمتع بالجباية الذاتية إلى جستنيان بالقسطنطينية أن أوامر الإمبراطور لم تنفذ حيث ذكر الإمبراطور فى رده عليها أن الجباة أقوى من أوامره ويذكر أنه أرسل مرسوماً سابقاً لصالح الشاكى ولكن الباجارك (حاكم المقاطعة) لم ينفذه وقد اعتمد فى هذا على بعد العاصمة الإمبراطورية عنه ، ولقد سعى الأباطرة إلى جعل الموظفين المحليين من أهل الأقاليم وجعل انتخابهم فى يد كبار الملاك والكنيسة لضمان سلامة الجباية وعادة كانوا ينتخبون من بين ملاك الإقليم ، ولم يؤد هذا إلى تحقيق العدالة بل أدى إلى جعل الوظيفة الرسمية مسخرة لخدمة مصالحهم الشخصية ، فقد أصبح أفراد الأسر الإقطاعية كابيون وأيميميانوس هم كبار موظفى الدولة حيث تولوا القنصلية والباجاركية ، بل أن رؤساء الإدارات عملوا كوكلاء لهؤلاء الملاك ولم يجد إنشاء الإمبراطور " ليو " لوظيفة حامى المدينة فى القرن الخامس والتى أنشئت أصلاً لحماية الأهالى من ظلم الموظفين فمبرور الوقت أصبح الحامى أحد وكلاء السيد الإقطاعى وأحد الملاك فى المنطقة . (٥)

فالمشكلة الحقيقية تتمثل فى تلك الإدارة أو فى هؤلاء الموظفين الذين أصبح من الصعب على الدولة التحكم فيهم ، فهم كبار الموظفين وكبار الملاك ، وذهبت كل التشريعات التى أصدروها هباء

أمام التلاعب بالقانون ، ولقد أدى هذا بدوره إلى اضطراب النظام فى القرى وكثرة اعتداءات القرى بعضها على بعض ، وعدم انضباط الأمن وخاصة أن الدولة – لضمان جمع الضرائب – منحت ما يعرف بالجباية الذاتية لعدد من الضياع والقرى المستقلة وللكنيسة ، فتعددت السلطات واختلف وضع الفلاح كمستأجر فى ضياع كبرى أو تابع لمجلس قرية أو مستقل يدفع ضرائب للدولة ، ولكن على أية حال لم يصبح قناً بل كان فلاحاً حراً ، كما ذكرت برديات عديدة وعقود البيع والشراء ، والإيجار ، ومن حقه أن يشكو الباجارك ، أو مسئول الإقليم إذا أساء إليه وهناك ملاحظة هام وهى أن القانون الإمبراطورى منذ ثيودسيوس يمنع تملك الأجانب لأرض مصرية فكبار ملاك القرن السادس كابيون وغيره كانوا من المصريين وكذلك غالبية موظفى الإدارة المالية .

وأهم النتائج التى نستخلصها من تلك الدراسة هى أن الفلاح المصرى كان تحت الحكم البيزنطى فلاحاً حراً ولم يكن قنتاًا للأرض ، وأن تشريعات الأباطرة استهدفت تحقيق العدالة للفلاح لضمان حصول الدولة على دخلها ، ولقد فشلت تلك التشريعات عند التطبيق والمسئول عن ذلك مجموعة البيروقراطية الإدارية المتمثلة فى الجباة والموظفين ، وساعدهم على ذلك ترك انتخابهم لكبار الأعيان إلى جانب تولى كبار الملاك للوظائف الكبرى ، فربطوا بين مصلحتهم واختصاص وظائفهم ، كل هذا أدى إلى عدم نجاح أى تشريع بفرض جزاء أو رقابة عليهم كإنشاء وظيفة حامى أو فرض عقوبات كما ورد فى مرسوم ١٣ ضد استغلال السلطة .

هذه هى الأوضاع التى واجهت العرب غداة الفتح الإسلامى لمصر فموقفهم من الأرض حددته الشريعة الإسلامية ، وقررت معاهدة الفتح ما هو مفروض على الفلاح من الضرائب وأبقت الأرض فى أيدى أصحابها على أن يدفعوا عنها الخراج الذى بلغ ما يقرب من دينار على الفدان إلى جانب ضريبة الطعام التى حددت فى بعض المراجع بمدان من الحنطة وثلاثة أقساط من الزيت وثلاثة أرادب من القمح بالإضافة إلى الشعير وعدد آخر من المحصولات ، وأصبحت شحنة القمح تذهب إلى مكة كما

كانت تذهب إلى القسطنطينية من قبل .

وقد اهتم العرب منذ البداية بخراج مصر وأراضيها ، وحرصوا على نفس النسبة التى كان يجمعها البيزنطيون وفقاً للرسائل المتبادلة بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ، ولقد اختلفت سياسية الخلفاء بين السماحة والشدة فى الجباية فإذا كان هناك خليفة كعمر بن عبد العزيز رفع الجزية عمن أسلم ، فإن الخليفة سليمان بن عبد الملك كتب إلى واليه فى مصر قائلاً أحلب الدر حتى ينقطع واحبي الدم حتى ينصرم ، ويذكر ابن عبد الحكم أن عمراً أقر المصريين على جبايتهم ، وإن كانت قد حدثت تعديلات على هذا النظام فاختفى نظام الجباية الذاتية ، بل اختفت الضياع الكبرى ، ولا نجد إشارة لوثائق أبيون بعد سنة ٦٢٠ ميلادية ، والبرديات لا تذكر إلا ملكيات صغيرة ولم تذكر أواسى إلا فى القرن الثانى الإسلامى وكان أصحابها من العرب ، وأصبحت القرية هى الوحدة الأساسية فى التقدير الضرائبى واحتفظت بالموظفين السابقين بما فيهم الميزون الذى يرد فى الوثائق البردية العربية باسم المازوت وهو أحد رؤساء مجلس القرية فى العصر البيزنطى والباجارك ويمسى فى الوثائق العربية رئيس الكورة " والكورةلفظ مشتق من اليونانية أيضاً بمعنى قسم " ، وكذلك الدوق والقمص ، ورغم تحديد معاهدات الفتح للجزية بدينارين والخراج بدينار فإنها لم تكن أموراً ثابتة والدليل على ذلك أن صاحب أخنا جاء لعمرو بن العاص وطلب معرفة مقدار الجزية التى عليهم ليستطيعوا جمعها أو التدبر لها فقال عمرو وهو يشير إلى ركن الكنيسة " لو أعطيتنى إلى السقف ما أخبرتك ما عليك إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خف علينا خففنا عنكم " ، وهذا يرجع إلى عامل أساسى وهو أنه من الصعب فرض جزية موحدة على الجميع بنفس النسبة ، فلو نظرنا إلى ما هو مفروض على الفلاح من الضرائب لو كان مستأجراً لفدان مثلاً : دينار جزية ودينار خراج ثم ضريبة الطعام ٣ كيلات من القمح ورغم اختلاف ثمن القمح فالمتوسط أن ثمن ثلاث كيلات يعادل ديناراً فيصبح على الفلاح أربعة دنانير من الضرائب إلى جانب أن هناك ضرائب أخرى صغيرة كضريبة الجسور وضريبة النزل فى حين أن نتاج المحصول ٢١ كيلة عن الفدان ، فما يبقى له هو النزر اليسير فإذا كان أجيراً فعليه ضريبة :

ديناران جزية فى حين أن ما يتحصل عليه فى العام وفقاً للبرديان لا يتجاوز ٢ أو ٣ دنانير ويعد هذا إجحافاً به ، لذلك نرى الجبايات الإسلامية تتفق ومقدرة الشخص ، ولدينا برديات يدفع فيها أشخاص ضريبة الجزية سدساً وثمناً ، وإذا كانت هذه الطريقة فى عدم تثبيت الجزية قد حققت نوعاً من العدالة فإنها فى أيدى ولاة وجباة قساة كانت تتعرض للتلاعب حيث فرضوا ضرائب أكثر مما يتحمله البعض خوفاً من التعرض للوم الخلفاء وعزلهم كما حدث لعمرو مع عمر وعثمان ، فالمشكلة هنا أيضاً تتمثل فى الجباة وطرق الجباية ، فإذا كان هناك ولاة كقرة بن شريك حرصوا على العدالة فإنهم حرصوا أولاً على خراج الدولة وضمان عدم تأخير الجباية وحملوا الباجارك مسئولية التأخير وهذا بدوره حمل الموظفين الذين اشتدوا فى الجباية مما دفع بالفلاحين إلى هجرة أراضيهم ، وهناك مرسوم من والى مصر فى القرن الثامن يطلب من الفلاحين عدم ترك أراضيهم إلا بعد الحصول على موافقة الوالى أو تصريح تحدد فيه الفترة التى يترك فيها موطنه إلى مكان آخر وتاريخ العودة ليضمن دفع الضرائب ، وفى مرسوم آخر يطالب بعمل تعداد لأهالى القرية الواردة فى البردية ومعرفة الأجانب ومراجعة السجلات لخمسة عشر عاماً والقبض على المتهربين وإحضارهم للوالى ، وإذا تباطأ فى ذلك عرض نفسه للعقاب ، ولقد أصبح هذا النظام شائعاً منذ بداية القرن الثامن للميلاد ومع ذلك استمر الفلاحون فى الهرب ، والدليل على ذلك أن عبد الله بن الحباب بعث إلى الخليفة هشا ابن عبد الملك يطلب منه إرسال عرب من قيس وذكر له أن هناك كوراً خالية فى بلبيس وعلى ذلك فإنهم لن يؤثروا على الخراج ولقد أدت محاولة الخليفة عبد الملك بن مروان زيادة الخراج رغم انخفاض النيل فى عام ٧٨ هجرية إلى قيام ثورات للقبط فإنتاج الأرض فى مصر مرتبط بالفيضان .

وبذلك يتضح أنه فى كلا العهدين كان هناك خلاف بين النظرية المثالية والتطبيق الفعلى ، فرغم أن التشريع يتوخى العدالة فإن المقياس الحقيقى هو التطبيق وهو ما لم يتحقق للفلاح المصرى فلم يتمتع بثمرة أى تشريع عادل بل حول أولئك الجباة والموظفين القانون إلى أعباء أثقلت كاهله ، فالمشكلة الأساسية تمثلت فى طرق الجباية ووسائلها وموظفيها والاختلاف بين النظرية والتطبيق فالإسلام تشريع سمح لم يرهق أهل الذمة ولكن طريقة التنفيذ هى التى أثقلت كاهلهم . [٦]

الصناعة والتجارة فى مصر البيزنطية :

يروى أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عميان من الإسكندرية مبيناً كيف فقد كل واحد منهم بصره ، فأحدهم كان يعمل صناع زجاج ثم فقد بصره بسبب النار التى يستخدمها فى صنعته ، والثانى كان يعمل قبطان سفينة وأصابه مرض فى عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه . أم ثالثهم فكان لصاً وأصيب فى بصره بينما كان يسرق قبراً . ولا تخلو هذه القصة من دلالة فهى تعكس لنا صورة من العمل الشائع فى الميناء الكبير فقد استمرت الإسكندرية فى العصر البيزنطى أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، ولكن ما من شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالى الاضطهادات أثر فى قدرة البلاد الإنتاجية وفى نوع الإنتاج أيضاً ، فصناعة الزجاج مثلاً استمرت فى الإسكندرية ولكن ما عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج المصرى من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضاً قدرة ما عثر عليه من الزجاج المصرى فى الخارج إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه .

وكذلك صناعة البردى التى اشتهرت بها مصر منذ القدم فقد استمرت ولكن تأخر مستواها عن ذى قبل ، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه ربما كان لرواج صناعة الكتب من رق الجلد *Codex* الذى كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحى الجديد تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الرقية من البردى القديم ، ومع ذلك استمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل ، ويثبت ذلك ما جاء فى حسابات كنيسة روما التى كانت لها ممتلكات بالقرب من الإسكندرية وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى ، ومما يدل على أن البردى المصرى كان لا يزال سلعة عالمية أنه ذكر فى نقش يحتوى على جزء من قائمة الأسعار التى أصدرها دقلديانوس ولكن لسوء الحظ أن الثمن غير موجود .

أما الصناعة المصرية الثالثة التى كانت منتشرة أيضاً وهى نسج الكتان فقد وجدت أيضاً فى ذلك العصر ، ويذكر دقلديانوس فى قائمة أسعاره كتان الإسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان فى الإمبراطورية بأسرها .

أما صناعة العطور والتوابل التى كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع فى مصر ويعاد تصديرها فقد استمر أيضاً نظراً لأن التجارة الشرقية لم تتوقف وإن قابلت بعض الصعوبات أحياناً ، ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما فى مصر المشار إليه سابقاً أن مئات الأرطال من الزيوت والتوابل والعطور بأنواعها كانت تصنع فى مصانعهم بالقرب من الإسكندرية .

نستنتج من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة فى مصر فى العصر البيزنطى حين تقاس بالعصر الرومانى الأول فإن الصناعات الأساسية استمرت فى مصر وإن كانت قد استمرت فى مستواها عن ذى قبل .

أما التجارة الخارجية فلها قصة أخرى ، فقد رأينا فى الفصل السابق مدى النشاط الذى حققته مصر فى مجال التجارة العالمية على أيدى تجار مدينة الإسكندرية الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد ، كما كان أسطولهم التجارى فى البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً ، ورأينا مقدار الثروات الضخمة التى أفادها الإسكندريون من وراء هذه التجارة ويكفى أن نذكر فيرموس الذى تمكن من دخله من تجارة البردى والصمغ العربى فى أسوأ فترات الإمبراطورية الرومانية فى القرن الثالث أن يُكون جيشاً وأن يطمح إلى منصب الإمبراطور نفسه .

لذلك ليس بمستغرب أن يتمسك تجار الإسكندرية بهذه التجارة بكل ما أوتوا من قوة ، ويبدو أنهم نجحوا فى المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية فى العصر البيزنطى أيضاً ، فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند مستمراً دون انقطاع .

ويبدو أن النشاط الذى أبداه الأثوبيون كوسطاء فى التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الإسكندرية فى هذا المجال ، وتثبت إحدى قوائم الضرائب من منتصف القرن الرابع والتى تحتوى على قائمة بالمكوس المستحقة عند مدخل قناة الإسكندرية أن الملاحين الإسكندريين كانوا على اتصال

مباشر بالهند *Nautai Indias* ، وفى النصف الأول من القرن السادس تثبت مرة أخرى رحلات الراهب المصرى كوزماس الذى كان يعمل فى التجارة الشرقية من قبل وفى الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف .

أما فى البحر الأبيض المتوسط فإن الملاحة كانت تمتد من الإسكندرية إلى جميع الموانى الرئيسية .

ولكن يجب أن نذكر تغييراً جديداً حدث فى خطوط الملاحة وهو أن الخط بين الإسكندرية والقسطنطينية أصبح أهمها بدلاً من خط روما ، والسبب فى ذلك التغيير هو تحويل القمح المصرى من روما إلى القسطنطينية التى اتخذها قسطنطين عاصمته الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠ ، ومع ذلك فيبدو أن العلاقة التجارية بين مصر وروما لم تهمل كثيراً ، فهذا هو القديس جيروم فى سنة ٤٠٢ يخاطب الرومان بقوله : " وها أنا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الإسكندرية إلى روما " .

أما عن صادرات مصر فهى معروفى ، القمح طبعاً ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والعطور والتوابل ، ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن ، كما أن تجارة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق .

أما من الواردات الأساسية فهى أن المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح) والخمور والحرير والعطور والتوابل من أجل صناعتها محلياً وإعادة تصديرها ، وفى دراسة حديثة لهذه الواردات اتضح أنها كانت تأتى إلى مصر من شتى بقاع العالم من الصين والهند وشرقاً إلى أسبانيا وبريطانيا غرباً ، وما من شك أن ما لم يكن يصدر من هذه الواردات كان يباع فى الإسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة البورجوازية المزدهرة فى هذه المدينة ، وكذلك كبار الأسر الغنية فى الريف .

أما الطبقة البورجوازية فى الريف فقد انكمشت كثيراً فى هذا العصر وفقدت قدرتها الشرائية القديمة أما سائر السكان فكان أكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير .

أما عن موقف الدولـة من هذه التجارة فيبدو أنها كانت حرة فى أيدى الأفراد باستثناء الجزيـة التى كان على مصر إرسالها إلى روما أولاً والقسطنطينية بعد ذلك ، ويوضح وجود هذه التجارة الحرة البيان الذى أصدره دقلديانوس لتحديد أسعار السلع ، فهو فى هذا البيان يتحدث عن جشع التجار وطمعهم فى أكثر من موضع ، ولكن يهمنا بصفة خاصة قول : " إن هذا البيان العالمى سيصبح بمثابة ضابط بين المشترين والتجار الذين يزورون الموانى والولايات الأجنبية عادة ، فحين يعلمون أنه عندما ترتفع الأسعار لا يستطيعون أن يتعدوا الأسعار المقررة للسلع فيجب حسبان المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع ، حتى تتضح عدالة بياننا حين يمنع كل من تحدثه نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعار أكثر ارتفاعاً .

نقطة أخرى لها طرافتها فى مجال النشاط المالى مارسها كبار الممولين وهى القروض المالية فى الخارج ، ففى وثيقة بردية من القرن السادس نجد مصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال فى القسطنطينية ، ومقدار الدين هو عشرون سوليدوس *Solidi* من الذهب بفائدة ٨/ % ، ورغم أن العقد تم فى القسطنطينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين فى الإسكندرية .

وأطراف هذا العقد هم المدينان وهما شخصان من قرية أفروديتو (كوم أشقاو فى مصر الوسطى) والدائن ويمسى فلافيوس أناستاسيوس *Fl-Anastasius*الذى يصف نفسه بأنه ممول ورئيساً للبنك المقدس(أى الإمبراطورى فى القسطنطينية) وتفيدنا البردية فوق ذلك أن لهذا الممول الكبير " مكتب " *Apotheke* فى الإسكندرية حيث يستطيع المدينان أن يدفعا المبلغ المقترض بالإضافة إلى الفائدة المقررة .

مثل هذه الوثيقة توضح أيضاً العلاقات المالية الوثيقة التى ربطت الإسكندرية بالقسطنطينية فمكتب أناستاسيوس موجود بالإسكندرية ليقوم بوظيفتين ، الأول : عقد الصفقات التجارية ، والثانية : القيام بأعمال البنوك الدولية ، فالمبلغ الذى سيدفعه المدينان المصريان فى الإسكندرية لم يكن يرسل إلى القسطنطينية ، وإنما كان يبقى فى الإسكندرية ليستغل فى عقد الصفقات التجارية ، وتظهر لنا هذه الوثيقة أيضاً كيف أن كبار الممولين فى القسطنطينية قد حلوا محل ممولى روما فى عصرها

الإمبراطورى الأول ، وكان لهم مكاتبهم ووكلائهم فى الإسكندرية كما كان لسابقيهم من الرومان ، كان بعض هؤلاء الأثرياء من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية ، وكثيراً ما تمسكوا بالعقائد الوثنية القديمة ، وفى ظروف اضطهاد الوثنيين القاسية وحين تضيق بهم الحياة فى القسطنطينية كان فى استطاعتهم أن يفروا إلى مصر وأن يختفوا فيها مستعينين بأموالهم هناك ، ويمكننا أن نورد مثالاً على ذلك وهو أجابيوس الهلينى ، وكان من كبار الممولين فى القسطنطينية ، ويصفه الكاتب المسيحى سوفرونيوس بقوله : ولم يقصر نشاطه على الأعمال المالية فحسب بل كان متحدثاً مشهوداً له باللغة اليونانية شديد الولع باقتناء التماثيل ، وكان يخدم المخلوق ضد الخالق " ، وحدث أن ألقى القبض عليه فى القسطنطينية ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الإسكندرية حيث مرض ومات ، واختياره الإسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتقاد بأنه كانت له أعمال وأموال هناك . [٧]

هوامش الفصل الرابع

(١) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٩١ – ٩٣ .

- السيد البز العرينى : مصر البيزنطية ، ص
- محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٨٣ – ٩٨ .
- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٢٢

(٢) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص

- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٢٣ – ٢٦ .
- زبيدة محمد عطا : إقليم المنيا فى العصر البيزنطى ، ص ٥٥ – ٧٥ .
- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٠١ – ١٢٥
- *Johnson (A.Ch): Egypt and the Roman Empire (U.S.A. 1951)*

(٣) السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ١١٨ – ١٢٦ .

- محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ١٠٠ – ١٢٧ .
- سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص١٠٠ – ١١٢ .

وعن نظام الضرائب فى العصر البيزنطى انظر ك

- نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة : د / حسين مؤنس
- محمود يوسف زايد ، (القاهرة : ١٩٥٠) ، ص ١٢٨ – ١٤٤ .

(٤) السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٢٦ – ١٢٩ .

- سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٠٠ – ١١٢ .

(٥) زبيدة محمد عطا : الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى ، (القاهرة : ١٩٩١) ، ص ٩– ١٢ .

(٦) مصطفى العبادى : الإمبراطورية الرومانية ، النظام الإمبراطورى ومصر الرومانية ، ص ٢٧٨ – ٢٨٤ .

- السيد البز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٢٠ – ١٢٩ .
- محمد محمد موسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ١٩٠ – ١٢٦ .
- محمد محمد مرسى الشيخ : الأهمية العسكرية والتجارية لمدينة الإسكندرية فى العصر البيزنطى ، مقال منشور فى كتاب سواحل مصر الشمالية عبر العصور ، سلسلة تاريخ المصرين ، العدد رقم ٢٠٠ ، ص ٦٧ – ٧٨ .

تدريبات على الفصل الرابع

السؤال الأول: **ظلل في شيت الإجابة** *True* ● **إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل***False* ● **إذا كانت خاطئة**

١- من أنواع ملكية الأراضى ما عرف بأراضى الكنائس.

٢-- كانت مصر تعتبر من الأملاك الخاصة للإمبراطور

السؤال الثالث: **السؤال الثاني**: **تخير الإجابة الصحيحة من بين الأقواس ثم قم بتظليلها** ● **في شيت الإجابة**

١- انقسمت الأراضى الزراعية فى مصر البيزنطية إلى.......

(أ. ضياع إمبراطورية ب. أملاك خاصة بالإمبراطور ج. أرض كنائس د. جميع ما سبق)

الفصل الخامس
التنظيمات الحربية والقضائية
فى مصر البيزنطية

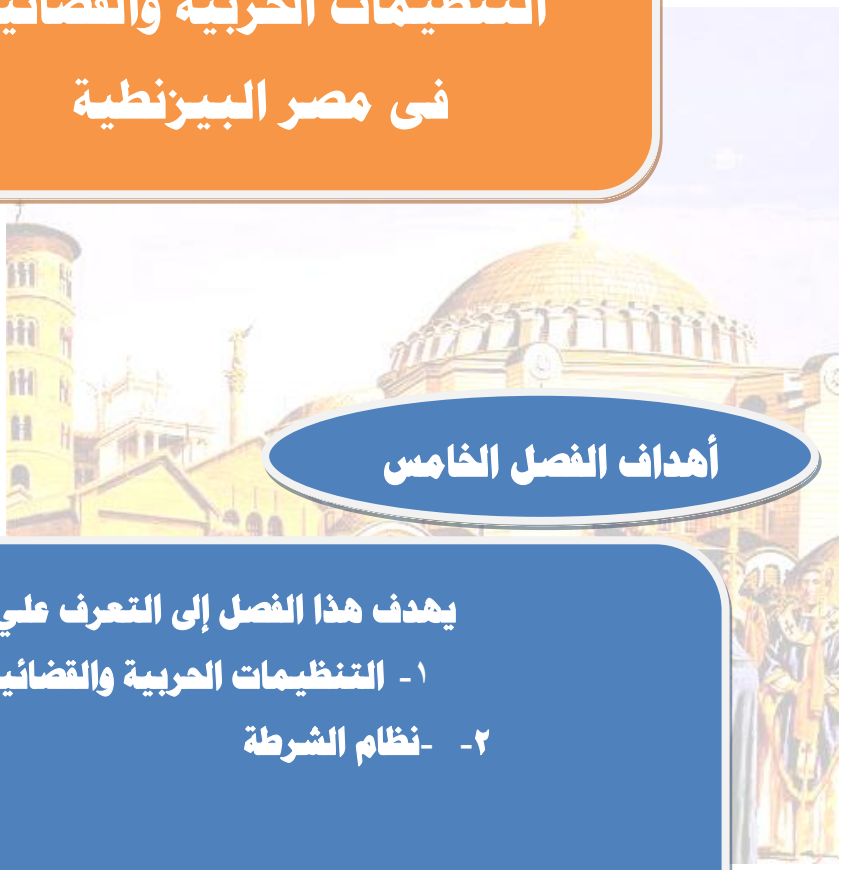

أهداف الفصل الخامس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف علي

١- التنظيمات الحربية والقضائية

٢- نظام الشرطة

اختلفت الخصائص الأساسية للنظام الحربى الذى نشأ فى القرن الرابع عن تلك التى اختص بها النظام الحربى زمن العصر الأول من الإمبراطورية بما حدث من تأليف جيش نظام ينتقل فى يسر وسهولة من موضع إلى آخر ، وبما جرى من انفصال قوة الفرسان عن قوة المشاة واعتبارهم قوة مستقلة ، وبما حدث من تصغير أو تقليل حجم الفرق العسكرية .

ذلك أن دقلديانوس ومن بعده قنسطنطين أقام جيشاً يستطيع الإمبراطور أن يحركه إلى أى مكان من ممتلكاته يتعرض لخطر من الأخطار، على حين أن أطراف الإمبراطورية تولى حمايتها فى نفس الوقت جيوش ترابط فى أقاليم الحدود ، وبذلك تألفت القوى العسكرية من فئتين أساسيتين : الجيش النظامى المعروف باسم *Comitatenses* والذى يدل على هذا الجيش يصحب الإمبراطور فى تحركاته وأن الإمبراطـــــور يتـــــولى القيـــــادة فـــــى كـــــل الحـــــروب الهامـــــة ، ومـــــن ثم تعتبر هذه القوات حاشيته وأتباعه *Comitatus* ، ويطلق هذا الاسم على المشاة *Legiones* والفرسان معاً *Vexillationes* ، وفى أوخر القرن الرابع الميلادى صار يدخل فى نطاق الجيش النظامى قوتان اشتهرت إحداهما باسم *Pseudo-Comitatenses* واشتهرت الأخرى باسم *Palatni* التى تعتبر من خيرة الفئات التى يتألف منها الجيش النظامى واحتفظت بما للحرس الإمبراطورى من صفات خاصة ويرابط معظمها بجوار القسطنطينية أو فى إيطاليا والمعروف أن القوات النظامية كانت أعلا مكانة من الجند المرابطين على الأطراف الخارجية للإمبراطورية ، يضاف إلى هاتين القوتين جماعات من المشاة اشتهروا باسم القوات المساعدة *Auxilia* التى جرى تجنيدهم أساساً من غالة ومن الفرنجة وسائر المتبربرين الجرمان ، ومن المشاة أيضاً فرق صغيرة يبلغ عدد الفرقة الواحدة ألف رجل على حين أن عدد أفراد الفرقة من الفرسان لم يتجاوز خمسمائة فارس .

أما الفئة الثانية من الجيش الرومانى فهى المعروفة باسم جيوش الأطراف (الحدود) *Limitanei* الذى يرابط على أطراف الإمبراطورية ، ويقوم الجند بزراعة الأرض الواقعة على امتداد الحدود *Terrae Limitaneae* ويحوزونها على أنها نوع من الإقطاع الحربى ويرث أبناؤهم هذه الإقطاعيات عند دخولهم فى الخدمة الحربية . [١]

وفى القرن الخامس تألفت فئة جديدة من العساكر اتخذت أيضاً اسم المعاهدين *Foederati* يجرى اختيار عساكرها من العناصر الأجنبية عادة ، وتتولى الحكومة دفع مرتباتهم ويقودهم قادة من الرومان وصاروا يؤلفون قطاعاً خاصاً فى النظام الحربى وأضحوا فى القرن السادس من أشد العساكر قوة وأكثرهم أهمية فى الجيش الإمبراطورى .

وثمة فئة أخرى من المحاربين لعبت دوراً كبيراً فى حروب القرن السادس واشتهرت باسم البقلار أى الأتباع ، إذ دأب كبار القادة بل كبار المدنيين أيضاً على أن يؤلفوا لأنفسهم حاشية مسلحة أو حرساً خاصاً ، واتخذ هؤلاء العسكر اسم البقلار ، وعلى الرغم من أن هذه القوات العسكرية الخاصة تعتبر غير قانونية وأن الأباطرة حرموا استخدامها فإن هذا الإجراء شاع استعماله وتوقف عدد الأتباع على ثروة السيد الذى لجأ إلى تأليف حرس خاص له ، كما اتخذ صغار القادة أيضاً أتباعاً مسلحين .

والمعروف أن السلطة فى الولايات اقتسمها أغسطس مع مجلس الشيوخ أو السناتو ، وأن مصر كانت من الولايات الخاضعة لسلطة الإمبراطور وأنه كان حريصاً على ألا يسمح لأحد من طبقة السناتو أن يدخل مصر دون تصريح خاصة منه ، وذلك لما لمصر من أهمية خاصة من حيث كونها مستودعاً للغلال فى الإمبراطورية ، ومن حيث نزوع أهلها إلى مقاومة الدولة الحاكمة واشتداد الحاجة إلـــــــى حفـــــــظ الأمـــــــن تتطلـــــــب إقامـــــــة حاميـــــــة عســـــــكرية قويـــــــة بها ، لذا وضع أغسطس بها ما لا يقل عن ثلاث فرق رومانية ، فضلاً عن القوات المساعدة الملحقة بها *Auxilia* ، ثم أمر تيبيريوس الذى خلف أغسطس فى الحكم بسحب فرقة من الفرق بعد أن تبين أن الحاجة ليست ماسة إلى هذا الجيش الضخم نظراً لسهولة الدفاع عن مصر .

لم يختلف الجيش الإقليمى فى تكوينه عن الجيش الأساسى للإمبراطورية، ونستطيع أن نتبين فيه الفئات الثلاث الأساسية فضلاً عن الأتباع :

فالفئة الأولى : المعروفة باسم *Comitatenses* يعتبر أفرادها من خيرة الجند ويمثلون أحسن ما تبقى من آثار الجيش الرومانى ، والمعروف أن أفرادها يجرى تجنيدهم بطريق الإلزام أو التطوع أو

بالوراثة (إذ أن أبناء المسرحين يجرى إثباتهم وإلحاقهم بالفرق التى كان آباؤهم ينتمون إليها) ، وترتب على التطوع أن دخل فيها عناصر متبربرة .

وإلى جانب هذه الفئة توجد فئة أخرى من الجند ترابط على الحدود وهى المعروفة بجيش الأطراف ، ومهمتها حراسة الحدود والقلاع ، ويعيش أفرادها على الأراضى الزراعية الواقعة على الحدود بشرط ألا يغادروها ، ومن المحقق أن هذا النظام جرى تطبيقه فى إفريقية عقب هزيمة الوندال زمن جستنيان .

أما النوع الثالث من الجيوش فهو المعروف بالمعاهدين ، وهم من عناصر متبربرة ، وانحاز إليهم كل المقامرين الوافدين من خارج حدود الإمبراطورية ويتولى قيادتهم قادة معينون من قبل الإمبراطور .

ومن المأجروين أيضاً الفئة المعروفة بالبقلار التى سبق الإشارة إليها ، ويعتبرون جنداً خاصاً لكل من يقوم على دفع رواتبهم وإعاشتهم ، وهؤلاء الجند على نوعين ، فئة تنتمى إلى كبار موظفى الإمبراطورية أمثال دوقات الأقاليم وقادة الجيش ، أما الفئة الأخرى فتؤلف جنداً خاصاً لبعض الأفراد ، ولم يكن لهؤلاء صلة بالجيش غير أنه يحدث أحياناً أن يقدم سيد هؤلاء الأفراد بعرض خدماتهم على الدولة فى مقابل أجور خاصة فيسهمون بذلك فى الدفاع عن الإمبراطورية .

هذه الفئات جميعها كانت ممثلة فى الجيش البيزنطى المرابط بمصر ، ففيما يتعلق بالجيش النظامى *Comitatenses* تشير البرديات إلى الحاميات المرابطة فى بعض مدن الأقاليم أمثال السيزيين *Scythians* فى *Apollonopolis* والمقدونيين فى *Antaiou* والداسيين فى أرسينوى ، والآيسيوريين فى الإسكندرية ، والواقع أن هذه القوات إنما جرى انتزاعها من الجيش الإمبراطوى ، وتقرر إنزالها بهذه المواضع على أن ما ارتبط بهذه الحاميات من أسماء لا يدل على أن هؤلاء الجند يرجع أصلهم إلى هذه العناصر ، إذ أن هذه الأسماء جرى إطلاقها منذ العصر الرومانى حينما ساد استخدام العناصر المتبربرة ، وبعد أن اتخذت مواضعها فى سائر جهات الأقاليم فظل الاسم عالقاً بالحاميات على الرغم من تغيير نظام التجنيد ، فالمعروف أن الجند جرى تجنيدهم بأن يقدم كل مالك عدداً من

الجند يتفق مع مساحة أراضيه أو عن طريق التطوع أو الوراثة ، ومعنى ذلك أن سكان كل إقليم هم الذين يؤلفون القوة المرابطة به أو الجانب الأكبر منها ، ومن ثم كان الجيش المرابط بمصر يتألف معظمه من المصريين .

وإذا كان القتال هو المهنة الأساسية للجندى تحتم عليه أثناء أزمنة السلام المضى فى ممارسة استخدام السلاح تحت إشراف قائده وحرم القانون أن ينصرف الجند عن مزاولة استخدام السلاح ، وقضى بألا يعملوا لحساب فرد من الأفراد وألا يعملوا فى التجارة وألا يقوموا بتأجير أراضيهم .

وهذا الإجراء الأخير كان سائداً فى مصر إذ أن بعض الجند صاروا ملاكاً إما عن طريق الوراثة أو بوسيلة من الوسائل ، مثال ذلك فيكتور من أفروديتو جرى تجنيده من بين البربر النازلين فى هرموبوليس وكان يملك فى مسقط رأسه داراً وقطعة أرض لم يكن يستغلها بنفسه إنما كان يستأجر من يقوم على زراعتها على أن بعض الجند مارسوا من الأمور المدنية ما طغى على حياتهم الحربية .

والمعروف من الناحية النظرية أن الخدمة العسكرية كانت تمتد إلى أن يبلغ عمر الجندى أربعين سنة ، كما جرت العادة بذلك فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، فإذا جاوز هذا الحد من العمر تقرر إعفاؤه من الخدمة وصارت له امتيازات وحقوق خاصة مثل الإعفاء من الضرائب والالتزامات البلدية .

وما أصدره الإمبراطور أنستاسيوس فى مستهل القرن السادس الميلادى من مرسوم إلى دانيال حاكم ينتابوليس يوضح بعض الأمور الهامة المتعلقة بالإدارة لا سيما ما يرتبط منها بحقوق وواجبات الجند المرابطين بهذا الإقليم .

وهذا القرار يشرح لنا الوضع الحربى فى بنتابوليس وتضمن المرسوم فئتين من الجند : الجند النظاميين بالجيش ، والجند الفلاحين (جيش الأطراف *Limitanei*) الذين يحصلون من الحكومة على أراضى على الحدود مقابل الدفاع عنها ، على أن الإشارة إلى هؤلاء الجند الفلاحين الذين تركزوا حول القلاع إنما يدل على وجود حدود *Limes* .

غير أن المرسوم ينطوى أيضاً على قدر من التفاصيل المتعلقة بنظامهم إذ أن من واجبهم حراسة الطرق وملاحظة القبائل المتمردة ومنع الرعايا الرومان من أن يهربوا إلى بلاد البربر إلا بعد الحصول على إذن من الدوق ، فرابط الجند الفلاحون على امتداد الحدود التى قامت عليها قلاع متقاربة ، والراجح أن ما حدث فى ليبيا من إقامة جيش حدود أو أطراف ، جرى أيضاً فى الأطراف الشرقية والجنوبية .

والمعروف أن الخدمة فى جيش الأطراف كانت وراثية إذ أن جند الأطراف كانوا يخدمون فى الجهات التى يقيمون أو ينزلون بها ، ويجرى تجنيدهم بانتظام ، فكل مجند يصير إثبات اسمه فى سجل الفرقة بناء على ما يحمله من أمر من قبل الدوق ، وهذا المر هو المعروف باسم *Probaloria* على أن يخصص الجند جانباً من وقتهم لممارسة التدريبات الحربية .

على أنه لم يرد إلا النذر اليسير فى البرديات والمصادر التاريخية عن جيش الأطراف والمعاهدين *Foederati* وما حدث من الإشارة إلى هؤلاء المعاهدين إنما تنطوى على انحياز مقدم المتبربرين فى زمن متأخر _جستنيان) إلى الجماعة التى تقدمت للاتصال ببطريرك الإسكندرية الخلقدونى للتوسط فى إعادة الدوق الأوجستالى حنا إلى منصبه بمصر لما اشتهر به من السيرة الطيبة وحرصه على نشر العدل بين الناس ومراعاة مصالحهم ، ووجه الأهمية فى هذه العبارة أنه كان بمصر وقتذاك فئة من المعاهدين غير أنه من العسير أن نتبين الدور الذى قام به هؤلاء المعاصرون فى مصر ، أما المخالفون الذين يمثلون الشعوب أو الأقوام المجاورين للإمبراطورية وتعهدوا بمقتضى المعاهدات أن يقدموا الدولة عدداً معيناً من الجند للاشتراك فى الحروب ، ويتولى قيادتهم جماعة منهم يمثلهم النوباد على الطرف الجنوبى لمصر ، وظل الأباطرة البيزنطيون يدفعون لهم ما قرره دقلديانوس لهم من الإعانات حتى يخلدوا للهدوء والسلام ، ولكى سدافعوا عن الحدود ضد غيرهم من المتبربرين ، ومن حلفاء الدولة البيزنطية فى غرب مصر قبائل البدو المعروفين بالمازيك *Maziques* فعلى الرغم من عدم وجود إشارات تدل على أنهم كانوا حلفاء فإن الدولة أفادت من مساعدتهم الحربية .

وما يتعلق بالجيوش الخاصة المعروفة بالبقلار *Bucellarii* إنما تتمثل فيما اتخذه ملاك الأراضى لأنفسهم من حرس خاص مؤلف من الجند المأجورة وفيما لجأ إليه بعض المغامرين من تأليف جماعات مسلحة يصح أن تكون عند الحاجة قوى نظامية ، وقد أشارت بعض البرديات إلى طوائف من المأجورين انحازت بصفة دائمة إلى الجيش النظامى فتقاضوا بذلك ما هو مقرر لهم من الرواتب والجراية .

وعلى الرغم من أن الأمن والسلام توافر لمصر منذ منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن السابع الميلادى ، فإن الحكومة الإمبراطورية بم يسعها إلا أن تقيم فى البلاد قوة وفيرة العدد لحفظ الأمن والقضاء على ما تعرضت له من غارات المغيرين من أجل النهب ، يضاف إلى ذلك ما لهذه القوات من أهمية فى جباية الضرائب وفى حفظ الأمن داخل البلاد ، لاسيما بعد أن أدت المنازعات الدينية إلى المظاهرات والثورات ، وكان لزاماً على الحكومة أيضاً أن تظهر ما لها من السيادة المطلقة فى أمر مصر ، إذ كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على مصر فيما تحصل عليه من القمح لغذاء أهل القسطنطينية ذلك أن أى اضطراب بالعاصمة إنما يؤدى إلى نتائج وخيمة فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، هذه الأسباب كلها تكفى للتدليل على حرص الحكومة المركزية على أن يكون لها بالقطر المصرى جيش قوى التنظيم وعلى ما لهذا الجيش من صفة خاصة . [٢]

إصلاحات جستنيان العسكرية فى مصر :

جاء الإمبراطور جستنيان وأجرى إصلاحاته ، فأعاد للدوق الجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وقام بتحديد ثلاث نقاط دفاعية عن مصر :

١- العريش   ٢- بوريون *Borion*   ٣- جزيلة فيلة

وبالنسبة للعريش فإنها تقع فى أقصى الشرق وتقع حدود مصر بينها وبين مدينة رفع على الحدود المصرية الفلسطينية .

وبوريون تقع فى أقصى الغرب بإقليم ليبيا وعندما أضيفت ليبيا إلى إقليم مصر أصبحت تابعة لمصر .

أما الحد الجنوبى فكان ينتهى عند جزيرة فيلة وذلك بعد انسحاب القوات العسكرية زمن دقلديانوس من النوبة وقد اهتم دوق طيبة بعمل استحكامات قلعة فيلة لمنع غارات النوباد .

ومن المؤكد لدينا أن حكام بيزنطة قد اهتموا اهتماماً كبيراً بصحارى مصر خاصة الصحراء العربية (الشريقة) التى توفرت فيها المعادن والأحجار الكريمة مثل المرمر والزمرد ، بالإضافة إلى وجود مصادر المياه فى الآبار والعيون حيث تقوم عليها حرفة الزراعة ، وأيضاً كانت صحراء مصر العربية غنية بالأعشاب الطبيعية التى كانت تستخدم فى أغراض علاجية ، وقد جرى الاهتمام باستخراج المعادن من الصحراء العربية فى مختلف العصور ، وبفضل اهتمام الإمبراطورية الرومانية ومن بعدها بيزنطة بالطرق وصيانتها سارت القوافل من طيبة ومدينة قفط إلى موانئ البحر الأحمر مثل برنيس (قرب سفاجة) وميوس هورمز (القصير) حيث كانوا يمارسون التجارة مع الهند وغيرها من دول جنوب آسيا .

والملاحظ أن سلطة الحكومة البيزنطية فى هذه الجهات لم تكن قوية وعلى العكس من ذلك فقد كانت مدينة القلزم (السويس) يتركز فيها النفوذ الرومانى ومن بعده البيزنطى ، حيث وجد بها حاميات بيزنطية ، وكانت الأديرة المجاورة لهذه المنطقة مثل القديس أنطونيوس على البحر الأحمر يستقبل الجنود .

أما بالنسبة للصحراء الغربية فقد حرص البيزنطيون على توطيد سلطانهم فى الواحات المعروفة بخصوبتها مثل هيبس التابعة لدوقية طيبة ، وفى أنجيلا التى شيد بها الإمبراطور جستنيان كنيسة كبيرة كانت سبباً فى تحول الناس إلى المسيحية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان البربر يقومون بغارات على حدود مصر الغربية ، وأحياناً كانوا يتوغلون حتى نهر النيل ، وكان أن تصدرى لهم أريستوماك دوق

مصر زمن الإمبراطور موريس ، وأنزل بهم الهزيمة ، وكثيراً ما كان رهبان وادى النطرون يتعرضون لغارات المغيرين من الواحات الداخلة ، وقام المازيك بمهاجمة برقة وواحة سيوة وأديرة وادى النطرون فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين .

على أية حال فقد كان من مهام الجنود فى العصر البيزنطى حماية البلاد من الغارات الخارجية ، وأيضاً المحافظة على الأمن الداخلى ومساعده جامعى الضرائب ، وأصبح لزاماً على كل موظف الاستعانة بالجيش والجنود فى حفظ الأمن وتوطيد مركزه داخل مصر خاصة فى مدينة الإسكندرية عاصمة مصر لما كان لها من أهمية تجارية وأهمية خاصة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كما سبق لنا القول ، فكان جيش مصر الكبير الذى يتكون معظمه من المصريين إنما فى حقيقة الأمر يقوم على المحافظة على الأمن الداخلى وحماية جباة الضرائب .

ومثلما كان وضع مصر الأمنى فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين حرص الإمبراطور جستنيان على استمرار هذا الوضع مع إضافة بعض النقاط التحصينية الأخرى التى تريد من قوة حصانة ولاية مصر .

وقد أبقى الإمبراطور جستنيان على نظام التحصينات على الحدود الليبية المصرية التى جاءت فى مرسوم الإمبراطور أنستاسيوس من شرح ما تؤديه القوات المرابطة بإقليم مصر من واجبات فكان لزاماً على جيش الأطراف الذى يرابط جنده بالقلاع الواقعة على الحدود أن يخضعوا القبائل المتمردة وأن يحرسوا الطرق ويراقبوها كما سبق وذكرنا ، ومن المؤكد أن الإمبراطور جستنيان أبقى على هذا النظام وظل كذلك منح الجند المرابطين اقطاعات مقابل الدفاع عن الإقليم .

وأضاف جستنيان فرقة عرفت بفرقة جستنيان الليبية ، وقام بتعمير أسوار عاصمة ليبيا ومدن وحصون كثيرة وتقرر إضافة تحصينات جديدة فى جنوب جزيرة فيلة من سيين وجزيرة أقنتين إلى ما وراء فيلة ، وأصبح دير القديس سيمون المواجه لأسوان مقراً لحامية عسكرية .

أما من ناحية الحدود الشرقية من جهة آسيا حد إقليم أوجستامنيكا والمناطق الواقعة إلى الشرق منها والخارجة عن حدودها جرى تحصينها مثل القلزم والعريش خوفاً من هجوم يأتى إلى مصر منها

كما حدث زمن الإمبراطور أنستاسيوس الثانى ، فقد توغلت القوات الفارسية فى الدلتا حتى وصلن إلى ضواحى الإسكندرية لذلك حرص جستنيان على تحصين هذه الأماكن تحصيناً فوق تحصيناتها السابقة حتى يحافظ على الطريق المؤدى إلى العاصمة الإسكندرية ، وجرى إقامة خط حدودى قوى من ناحية السويس وعلى حافة الدلتا على امتداد خط دفاعى يتجه من بيلوزيوم إلى قلعة حصن بابليون وهذا الخط هو الخط الذى تسير فيه قوافل الشام وتركزت التحصينات عند الطرف الجنوبى للدلتا .

وقد حظيت مدينة الإسكندرية باعتبارها عاصمة الإقليم المصرى وميناء هام يشحن منه القمح إلى القسطنطينية باهتمام الإمبراطور جستنيان بتحصينها وفرض أقسى العقوبات على الموظفين الذين يتراخو فى أداء واجبهم فى مهمة شحن القمح سليماً وكاملاً إلى القسطنطينية واشتهرت الإسكندرية بأسوارها الحصينة الضخمة التى أعدت فوقها أدوات للدفاع عن المدينة فى حالة تعرضها للأخطار .

وحظيت كذلك عواصم أقاليم مصر فى الداخل والنقاط الحدودية على اهتمام من جانب الإمبراطور جستنيان ومن هذه المدن : العريش التى أحيطت بأسوار ضخمة ظلت قائمة حتى القرن الثانى عشر وبيلوزيوم وسايس وهليوبوليس ونقيوس والبهنسا فى أركاديا وانتينوى (أنصنا) الموجود حالياً ناحية الشيخ عبادة مركز منوى بمحافظ أسيوط الحالية .

اختيار جند مصر :

ومن الملاحظ أن تنظيمات الجيوش ظلت معروفة فى مصر زمن الإمبراطور جستنيان : فكان الجيش فى مصر يتكون من الفرق النظامية *Mitatenses* مختلفة الأجناس والتى كانت ترابط فى الحاميات فى بعض مدن الأقاليم مثل البربر فى هرموبوليس والسكيزيين فى أبوللونوبوليس (قوص) والراسيين فى أرسينوى ، والأيويسوريين فى الإسكندرية ، وقد ظلت أسماؤهم تطلق على الحاميات المرابطة فى هذه المواضع حتى بعد تغير نظام التجنيد .

على أية حال فقد أصبح جنود الجيش من المصريين كانوا من سكان الأقاليم الأخرى وألزم الملاك بتقديم عدد من الأفراد يتناسب مع مساحة ما يملكونه من أراضى وأيضاً حسب ثروة المالك

وتجرى القرعة تحت إشراف موظف مختص بعدها يأخذ كل مجند شهادة تثبت أنه قد تقرر تجنيده وتشتمل على أمر من الدوق موجه إلى السلطات الموكلة بالتجنيد بإثبات اسم صاحب هذه الشهادة فى سجل الكتيبة وبعدها يتقدم هذا الشخص إلى الفرقة الذى حددت له .

وغالباً ما كان الجنود المرابطين فى الحاميات إنما كانوا يرجعون أصلاً إلى نفس المنطقة ونفهم من ذلك أن سكان كل إقليم تتألف منهم القوة المرابطة به ، أو الجانب الأكبر منها والجدير بالذكر أن أبناء الجند المسرحين كان يجرى تسجيلهم فى أماكن ولادتهم ويتم تأدية خدمتهم العسكرية فى تلك الجهات وكثيراً ما كان يتم تجنيد أسرى الحرب من أجناس وأصول فارسية أو قوطية أو وندالية .

وهكذا كان معظم جنود الجيش النظامى فى مصر من الإمبراطور جستنيان من المصريين سواء كانوا فى الجيش النظامى أو جيش الأطراف فكان يتم التجديد بطريق التجنيد الإجبارى أو بالتطوع أو بالالتزام على أبناء المقاتلين بضرورة أن يخلفوا آبائهم فى الخدمة الحربية وثم بالجيش إلا قلة نادرة من البربر وبعض الكتائب من الجند المرتزقة لعهد جستنيان .

وقد تراوحت فى مصر ما بين ٢٥ ألف و ٣٠ ألف جندى وحدات فى كل وحدة ما بين ٣٠٠ و ٥٠٠ جندى ، وتولى قيادة قائد عرف باسم التريبون *Tribun* ، وتعد هذه وحدة مقاتلة من الفرسان والمشاة ، وعلى أية حال فلم يكن الجيش البيزنطى فى مصر جيشاً دفاعياً إقليمياً مهمته الدفاع عن الجهات التى يرابط بها والمحافظة على الأمن الداخلى ، وكان الجندى المصرى لا يترك الجهة المعين فيها إلى جهة أخرى ، وظهر القائد بمظهر أحد موظفى الإقليم يتولى قيادة الجند فى حدود منطقته المعين بها .

الـدوق :

هو القائد الأعلى لكل الكتائب التى يتألف منها جيش إقليمه فكان يجمع بين السلطتين الإدارية والعسكرية

التريبون :

كان يتولى منصب الحاكم العسكرى للمنطقة التى يدير جيوشها الباجرك وكثيراً ما كان يجمع بين الوظيفتين التريبون والباجرك .

ومنذ نهاية العصر الرومانى كتان جيوش مصر تخضع لسلطة القائد الأعلى للجيش فى الشرق ولكن بمرور الوقت أخذت سلطة القائد الأعلى لجيوش الشرق تتضاءل فى مصر فلم يكن للجيش المصرى أى علاقة بجيوش الشرق ، فهو لم يخر من مصر مطلقاً ولم يكن للدوق الأوجال بالإسكندرية سلطة عامة على سائر الدوقات لذلك نجد أن الجيوش البيزنطية فى مصر قد خضعت لخمس دوقات متساويين فى المكانى ويلى الدوقات التريبونات الذين يقابلهم الباجركات فى النظام الإدارى .

ويقيم التريبون عادة فى الباجركية وبها يقع أكبر معسكر أو ثكنة للجيش جرى تشييدها خارج سور المدينة أو فى أحد أبراج سور المدينة أو اتخذت مواطن دائمة أو مؤقتة فى بعض الجهات لحماية مركز له أهمية استراتيجية أو كانت ترابط فى بعض الكفور التابعة لإحدى القرى المعرضة لخطر ما ، وكانت أحياناً ترابط فى دير قريب من القرية مثل دير *Baullo* فى جهة *Apollonopolis Magna* (إدفو) .

وعادة كان التريبون يتلقى تقليده بوظيفته من الإمبراطور من الناحية الرسمية ولكن فى حقيقة الأمر كان الدوق هو الذى يختاره وهو الذى يقوم بعزلة وكان يتم اختيار التريبون من أعيان المدينة التى يتم فيها مباشرة عمله .

وتركزت عادة الكتائب العسكرية النظامية فى الأماكن الاستراتيجية والتجارية الهامة ، وعلى الأسوار والأبراج على حدود المنطقة أو فى بعض الأديرة والقرى والنجوع فى حين كان جيش الحدود يرابط فى القلاع القائمة بالأطراف ، وقد تطلبت ضروريات الدفاع وجود هيئة عامة فى القرن السادس الميلادى لكى تشرف على جميع القوى الموزعة على القلاع والمعسكرات فى سائر الأقاليم لرد الأخطار ، وقد ظل هذا النظام معروفاً فى مصر فى القرنين السادس والسابع ، وأيضاً تألفت فى أقاليم الحدود

هيئة تشرف على إدارة القوى المرابطة لكى تقوم بالفصل فى الخصومات بين الجند ، وفى تسجيل أسماء المقترعين للجندية وجباية الميرة اللازمة للجند .

أما بالنسبة للمواضع الحربية التى رابطت بها القوات بمصر فلم تقل عن ٨٤ مدينة باستثناء الإسكندرية فإذا تمت إضافة مدن ليبيا إليها أصبح المجموع ٨٧ موضعاً كل موضع رابطت فيه كتيبة وأحياناً كان يحدث أن يرابط جند موضوعين تحت قيادة تريبون واحد وربما كان سبب هذا قلة العدد نحو ٧٥ كتيبة .

رواتب الجند :

كان الجندى يتقاضى نوعين من المرتبات :

الأول : راتب نقدى *Solatium* الثانى : جراية .

وكانت الحكومة تتولى إمداد الجيش بالسلاح والكسوة وقد وضح ذلك فيما تقرر رصده فى ميزانية مدينة انتيابوليس من مبالغ معينة تحت بند الإنفاق على أسلحة الجند .

وإلى جانب ذلك يتم جباية المخصص لمؤونة الجيش ، فقد تكلفت كل منطقة الجند المرابطين بها ، فكان يؤخذ من القمح الميرة العسكرية لكى يعيش عليها الجند وكانت خزانية المدن وكبار الملاك يتعهدون بدفع نفقات الجند المرابطين بها ، ومثلما تكلفت كنيسة أبوللونوبوزليس بدفع نفقات السيثيين المرابطين فى منطقتها العسكرية ، وكانت قرية *Kerke* بالفيوم تكلفت بدفع نفقات جند أرسينوى وتشتمل جراية الجند على القمح والشعير والنبيذ والخل والزيت والأتبان للدواب والبغال والفحم النباتى ، فضلاً عن الأموال .

السفن والأسلحة :

ونظراً لأن موقع مصر استراتيجى ممتاز لوقوعها على بحرين كبيرين هما المتوسط والأحمر ، وهما من أهم طرق الاتصال البحرية بين الشرق والغرب ، ونقلت عبرهما المتاجر منذ اقدم العصور ، فقد امتلكت مصر أسطولاً ضخماً من السفن التجارية ، وأيضاً أسطولاً حربياً ضخماً ولذا برع المصريون فى صناعة السفن التجارية والحربية .

وقد صنعت فى مصر نوعين من السفن حربية والبوارج الضخمة التى تسع البارجة منها ألف رجل والطردات وهى السفن الصغيرة وتحمل الواحدة منها مائة رجل ومهمتها السير واللف بسرعة حول السفن الكبيرة .

ومن الأسلحة البحرية التى كانت تحمل على هذه السفن المنجانيق (آلات رمى الحجارة) والصروح العالية التى تحمل فوق ظهورها حتى يصبح المهاجمون فوقها على نفس العلوم من المدافعين فى حالة مهاجمتهم للأسوار أو للحصون البحرية العالية فتساعدهم على القفز على الأسوار أو إقامة قنطرة يعبرون عليها إلى الأسوار .

وفى مصر تم اختراع سلاح بحرى فى تلك الفترة ألا وهو النار الإغريقية ، وكانت مزيجاً قوياً من مواد كيماوية سريعة الاشتعال لا يمكن إطفاءه حتى فوق صفحة الماء كما كانت ذات قوة عالية فتاكة سريعة النسف والتخريب والتمزيق ، ويقال أن صاحب هذا الاختراع رجل يدعى قلينيكوس من مدينة هليوبوليس وكان يعمل مهندساً مصرياً .

وعلى الرغم من أن هذه الأنظمة الحربية فى الجيش البيزنطى فى مصر والتى تبدو فى الظاهر أنها خلقت جيشاً قوياً عظيماً فإن عوامل الضعف والتدهور والعيوب كانت تمكن داخل جسد هذا النظام (٤) .

ثانياً : القضـــاء :

دخل القضاء ضمن الأعمال والوظائف البيزنطى ، فقد كان القضاء المدنى يختص به الحاكم العام ، وكان الحاكم يلقب بلقب استراتيجوس الرومانى ، وهو القائد الأعلى للنوموس والذى يتولى المسئوليات القضائية والإدارية ، وكان يلقب فى أحيان أخرى بلقب بريفيكتوس *Praefectus* بمعنى القائم بالأعمال وهو والى مصر *Praefectus Aegypti* الذى يعنيه الإمبراطور كممثل له فى حكم البلاد .

أما بالنسبة للمحاكم العسكرية التى يكون فيها القاضى *Praepositi* فتختص بالفصل فى القضايا التى يكون أحد طرفى الخصوم من العسكريين وعادة يكون الحكم على الجانى أو المقصر هو

الطرد أو مصادرة أملاكه وكانت الشرطة تختص بالقبض عليه ، وكتابة تقرير عن هذه الحالة أو الحالات الأخرى ، وقد كانت الأوامر والتعليمات الصادرة فى الفترة من سنة ٣٦٧م إلى سنة ٣٧٠م إلى جانب ما أًدره الإمبراطور ثيودسيوس الأول من مرسوم تنص على ما كان يطبق فى هذه الحالات فكانت تمنع المجرمين من الحضور إلى القضاء .

وفى أحد المراسيم الذى أصدره حاكم مصر *Flavius Eutolmius Tatiapus* يطلب من كل مدنى يتعرض للأذى من أحد العسكريين أن يتقدم بشكواه ضده إلى المحكمة العسكرية وعلى القاضى العسكرى أن يراعى العدالة ومصادرة أملاك هذا العسكرى حتى ولو كان سناتوريا وتحفظ لنا أوراق البردى شكاوى كثيرة فى هذا الصدد وعلى رأسها شكوى بنت أحد المتوفين ضد عمها المدعو *Eudaemon* الذى استولى على أملاك أخيه وعى ما يبدو أن أودامون كان رجلاً عسكرياً وقد حكمت المحكمة فى النهاية بربع الأملاك لهذا الأخ والباقى لابنه المتوفى .

وقد أوضحت أوراق البردى وظائف هؤلاء العسكريين فى مصر منها حماية البلاد من اللصوص وقطاع الطرق وكذلك الدفاع عن الحدود ضد أعداء البلاد والمغيرين عليها .

وقد جاءت إصلاحات الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلاد وأدت إلى تبسط الإجراءات القانونية والتى سهلت على المتقاضين تقديم الالتماسات إلى محاكم الإقليم بدلاً من تقديمها إلى محاكم العاصمة الإمبراطورية وهكذا تحمل ولاة الأقاليم إدارة القضاء ، وقد عرفنا من قبل أن الدوقات كانوا يتقلدون الوظائف المدنية فأصبحوا على هذا الأساس يمارسون وظيفة القضاء .

محكمة الدوق :

وتعتبر محكمة الدوق أهم المحاكم المحلية وكانت تعقد جلساتها فى عاصمة الدوقية ، وقد مارس الدوقات القضاء الجانى العالى ، وكانوا يفصلون بين الخصومات التى كانت تقع بين الموظفين

داخل الدوقية ، ومن يخضع لإدارتهم فكانوا ينظرون فى الدعاوى المتعلقة بالإدارة المالية ويحكمون فى القضايا المدنية الهامة خاصة تلك التى كان طرفيها القادة والجند .

وتحتفظ أوراق البردى بالعديد من الالتماسات التى كانت موجهة إلى دوقات طيبة ونستطيع أن نعرف منها الكثير مما كان ينظر فى محكمة الدوق ومن أمثلة ذلك التماس من جانب جماعة من السناتنوريين بجهة أومبوس *Ombos* يطلبون إلى دوق طيبة ويدعى فلافيوس ماريانوس *Flavius Marianos* أن يعاقب شخاصً يدعى كوللوتوس *Kollouthos* لشكهم فيه بأنه وثنى وأنه أثار البلميين ضد سكان المدينة ، وقام بشن غارات بمساعدة هؤلا البلميين على البلاد ونهبها ومنها أيضاً مثال آخر ويتضمن شكاوى سكان أفروديتو ضد الباجاركة ، وشكاوى سكان أنتيابوليس ضد الموظف المعروف باسم *Stratege* إلى جانب احتجاجات دافعى الضرائب على ما تعرضوا له من إيذاء الضرائب ، وقد انتهت هذه الشكوى إلى محكمة الدوق ، وما تظلمت به إحدى الأرامل لدى الدوق ضد بلدية قريتها لأنها فرضت عليها من أعمال السخرة التى زعمت أنها معفاة منها ، وتظلم أحد الفلاحين بضيعة كبيرة من ورثة سيده حيث جردوه من كل شئ وألزموه بأن يدفع من الضرائب ما لم يكن مقرراً عليه .

كما طلبت إحدى الأرامل من أفروديتو من دوق طيبة أن ينصفها من مندوب القاضى بالقرية المسمى *Boetnos* الذى انتزع منها طفلها ولم يرده إليها ومثال آخر لشكوى رهبان دير بطيبة ، طلبوا فيها إثبات حقوقهم فى قطعة أرض انتقلت إليهم بطريق الوصية غير أن بعض الأفراد نازعوهم على ملكيتها ، وأن راهباً آخر بدير *St.Jermie* فى أنتايو *Antaiou* استنكر ما تعرض له من اعتداءات .

وفى سيرة رئيس الدير دانيال قصة زاهد راهب شديد الورع جرى اتهامه باطلاً بأنه سرق الأوانى المقدسة فألزمه الموظف الموكل من قبل الكنيسة بعقابه بالمثول بين يدى الدوق الذى أمر فوراً بالتنكيل به ولم يستطع انتزاع اعترافاً منه بالجريمة التى ألصقت به .

وقد تفرع من ديوان الدوق إدارة خاصة كما سبق القول وكان يتولى إدارتها موظف كبير اتخذ لقب كونت ، كانت ترفع إليه الشكاوى والالتماسات وعن طريق هذا الموظف كانت ترفع الشكاوى للدوق .

إدارة الجنايات *Commentariensis* :

فقد اختصت لما يفهم من اسمها بالقضايا الجنائية وقد جرى تكليف الموظف الملحق بإدارات أوجستال مصر بمطاردة مثيرى الفتنة والثورة بالإسكندرية وكذلك الذين كانوا يخلون بالأمن ويفرون إلى مينيلانيس ومريوط .

المستشار القضائى :

كان للدوق مستشار قضائى تحت إمرته وارتبط بمحكمة الدوق محامون وكان بوسع المتقاضين أن يلجأوا فى بعض الحالات إلى نائب عنه ينتدبه الدوق ، ولم يكن هذا الأمر يتم إلا فى الحالات الاستثنائية ، وكان إرسال نائب الدوق إلى سائر المدن بالدوقية لا يتعارض مع الحقيقة الواقعة وهى أن الباجرك كان يقيم فى هذه المدن التى يتوجه إليها مندوب الدوق ، وأن صلاحية الباجرك للنظر فى القضايا لا تتعارض مع صلاحية مندوب الدوق ، ويمكن أن يقوم كل من الباجرك والدوق بتنفيذ الأحكام الصادرة من الدوق بين المتخاصمين الذين يقيمون فى دائرة الباجركية .

فى واقع الأمر أن الدوق قد أصبح فى يديه اختصاصات رئيس الأبروشية وعلى هذا فقد أصبح كبير القضاة فى إقليمه ، بينما فقد رئيس الأبروشية ماله من امتيازات تتعلق بالقضاء ، وأصبح مجرد مرؤوء للدوق ، صحيح أن ورود إشارة فى إحدى الوثائق التى ترجع إلى القرن السابع إلى محكمة رئيس الأبروشية فإن ما كان ينظر من قضايا فيها لا يزيد دوره على أنه مجرد قاضى .

محاكم الباجرك وحماة المدن :

قام بالباجركية محكمتان ، محكمة الباجرك ومحكمة حامى المدينة ، وتدل الوثائق على أن الباجرك لم يمارس من القضاء إلا وظيفة قاضى المصالحات فينظر فى عقود الضمان وفى الشكاوى فيرد الحقوق إلى أصحابها ، أما بالنسبة لاختصاص حامى المدينة فقد وردت فى قانون ١٣ فى الملحق ١٥ الذى قاتم جستنيان بإصداره وبمقتضى ذلك صار لحامى المدينة حق القضاء المدنى والجنائى .

فكان حامى المدينة من الناحية المدينة ينظر فى قضايا المعاملات المالية التى تتجاوز قيمتها ٣٥٠ صولداً ذهبياً وبمقتضى هذا القانون أيضاً منع الحماة من إصدار أحكاماً بالديات فى القضايا الجنائية ، لم يسمح لهم جستنيان إلا بتوقيع العقوبة بشرط ألا تبلغ بأية حال من الأحوال حد القسوة ، وصار لحماة المدن المصرية وسائر المدن الإمبراطورية الحق فى أن ينظروا فى القضايا غير الجنائية ، أما فى حالة وقوع جريمة كبرى أو جنائية فليس من حق حامى المدينة سوى أن يأمر بالقبض على الجانى وإيداعه السجن ثم يقوم بتقديمه إلى محكمة رئيس الأبروشية وذلك وفقاً لنصوص الملحق ١٥ من قانون ١٣ .

وكان من اختصاص حامى المدينة فى العقود فكان عليه تسلم عقود الضمانات وأن يصدر القرارات بشأنها ، وربما كان ينظر فى قضايا الصلح وتلقى شكاوى من يتعرض للأذى حسبما تشير الوثائق وكان عليه أيضاً أن يقضى فى الأمور المتعلقة بالإدارة المالية ، وكان مساعده يشترك فيما يجرى بالمحاكم من مناقشات وعلى ما يبدو أن حامى المدينة كان يتم اختياره من بين المحامين .

أما بالنسبة للقرى فإن رجال الشرطة المحلية كانوا يباشرون السلطة القضائية فهم يتسلمون من سكان القرية الشكاوى ويبادرون إلى فحص موضوع الشكوى وربما كان يجوز لهم بعد فحص الشكوى أن يلزموا المتهمين بإصلاح ما أفسدوه وإذا امتنعوا عن تنفيذ ذلك قاموا بإرسال المتهمين إلى المدينة لكى يتولى محاكمتهم حامى المدينة أو الباجرك وفى حالة مثول المتهمين أمام المحكمة ، اقتصرت مهمة الشرطة على مراقبتهم حتى لا يختفوا قبل المحاكمة .

أما فى حالة المنازعات البسيطة فكان عادة يجرى الاتفاق بين المتخاصمين على أن يحتكموا إلى أشخاص يتم اختيارهم وعادة ما كان المتخاصمون يرضون بحكمهم وكانت مهمة الموظفين فى أمور التحكيم تقتصر على مجرد الإشراف والمراقبة .

القضاء الكنسى :

أنشأ القضاء الكنسى منذ زمن الإمبراطور قنسطنطين الكبير ، وكان يجير للمتخاصمين فى الأمور المدينة أن يلجأوا باختيارهم إلى تحكيم الأسقف ، وكثيراً ما أصبحت أعباء القاضى والمحاكم تثقل كاهل الأسقف وكان ما يصدره الأسقف من أحكام يجرى الاعتراف بها قانوناً

ومع وجود هذه المحاكم إلا أنه كان من حق سكان مصر أن يرفعوا مباشرة أمورهم وقضاياهم إلى محكمة الإمبراطور بالقسطنطينية فى صورة التماس ويصدر الحكم فى هذه الحالة فى صورة أمر .

وقد حفظت لنا أوراق البردى العديد من الأوامر الإمبراطورية القضائية كانت صادرة من بيزنطة فى قضايا مصريين وربما لجأ جستنيان إلى ذلك حتى يجعل سلطته محسوسة لدى المصريين الذين كانوا يلجأون فقط إلى الأعيان وكبار الملاك لما لهم من نفوذ محلى .

وكان القضاء الخاص الذى كان يتمثل فى المحاكم العسكرية ومحاكم الكنيسة معروفاً فى القرن السادس الميلادى ولكنه كان مختلطاً بالقضاء المدنى وعلى أية حال فقد قامت محاكم عسكرية كانت تتألف من ضباط وتنظر فيها يسند إليها من القضايا التى يكون فيها الجند متخاصمين ، وكان رجال الدين يخضعون للقضاء الكنسى فلم يكن مسموح لهم المثول أمام محاكم مدينة إلا فى حالات الدعوة الجنائية وكان ما يصدره الأسقف من أحكام يتولى تنفيذها القاضى نيابة عنه إذا وافق الطرفان على ذلك ، ولا يجوز أن يلجأ أحد من رجال الكنيسة إذا اتهم إلى القضاء المدنى بعد أن اعتبرته الكنيسة الأسقفية مذنباً . [٥]

أما فيما يختص بالاستئناف فلم تكن هناك محكمة استئناف تقع وسطاً بين محكمة الدوق ومحكمة والى الشرق ، ولهذا كان الناس يضطرون للسفر مسافات طويلة للذهاب إلى العاصمة القسطنطينية ، ويتكبدون تكاليف باهظة فى ذلك ، ربما فاقت أحياناً المبالغ المتنازع عليها فضلاً عن أن كثيراً منهم كان يترك زراعاته أو مصالحه فى مصر معرضاً تلك الزراعات والمصالح للإهمال الشديد فيفاجأ بأن موظفى القضاء فى العاصمة مشغولون بالنظر فى قضايا كانت فى كثير من الأحيان أقل أهمية من قضاياهم ، بل هى فى أكثر الأحيان قضايا تافهة ، فى الوقت الذى كانت

القسطنطينية زاخرة بأخلاط الناس من سكان الأقاليم المختلفة الذين شغلت قضاياهم رجال القضاء فى العاصمة .

لهذا صمم جستنيان على تعديل نظام القضاء فى مصر والاهتمام بموضوع الاستئناف لحاجة الناس إلى محكمة استئناف لما اشتهرت به الإدارة فى مصر البيزنطية من التباطؤ والتراخى وعدم الإسراع فى حسم القضايا لهذا قرر جستنيان أن ينشى محاكم متوسطة بين محكمة والى الشرق فى بيزنطة وبين محاكم الأدواق وولاة الأقاليم فى مصر ، وجرى هذا الإصلاح بمصر البيزنطية اعتباراً من سنة ٥٣٦م بجعل دوق الإسكندرية باعتباره الوالى الكبير بمصر البيزنطية مكلفاً بالفصل فى كل القضايا التى لا تزيد قيمة الدعوى فيها على خمسمائة دينار أو (صولد) ذهبى ، وبصفة نهائية ولا يجوز استئناف مثل هذه القضايا أو القضايا من هذا القبيل أو اللجوء بها إلى سلطة أخرى .

لكن جاز لهذا الدوق فى الإسكندرية أن تستأنف لديه القضايا التى أصدر الحكم فيها رئيس الأبروشية بشرط ألا تقل قيمة المبالغ المتنازع عليها فى تلك القضايا عن خمسمائة دينار (صولد) وجاز لهذا الدوق الكبير فى الإسكندرية النظر فى الأحكام التى ترفع إليه والتى يصدرها أدواق مصر الآخرين ، وهذه القضايا التى أصدر الأحكام فيها أدواق مصر الآخرين جاز الاستئناف فيها لدى محكمة والى الشرق والمستشار القضائى فى العاصمة البيزنطية وجاز أيضاً أن يرفع المتخاصمون أحكام القضاء إلى محكمة الأسقف كمحكمة استئناف مثلما كان لهم الحق أيضاً فى رفع هذه الأحكام إلى محكمة الإمبراطور.

وعلى الرغم من تأكد جستنيان من أن هذا الاستئناف قد يؤدى إلى بطء القضاء بعض الشئ إلا أنه رأى فى هذا الاستئناف وسيلة لإقناع الرعايا بما تبذله حكومته من الهمة والنشاط والإصرار على القيام بالإصلاحات الهامة والتنظيمات التى تحتاج إليها البلاد ، على الرغم من أن هذا البطء لم يكن هو النقيصة الوحيدة التى شاعت فى القضاء فى القرن السادس الميلادى ، إذ ما لبث القضاة أن انزلقوا إلى الفساد والرشوة والاستخفاف بواجباتهم وغلب عليهم الجشع والشراهة للمال ، حتى أصبح القضاء سلعة يجرى بيعها لمن يدفع أكثر ، الأمر الذى دفع جستنيان مرة ثانية إلى إصدار القوانين وملاحق

القوانين لمحاولة علاج هذا الخلل ومحاولة إصلاح ما فسد من أمر القضاء ، واشتد جستنيان كثيراً فى ذلك فتنصت مرسوماته على ما ينبغى على القضاة أن يتبعوه عند مباشرة القضاء فى أنحاء البلاد ، واهتم بصفة خاصة بتطبيق هذه الإجراءات فى مصر البيزنطية . (٦)

الشرطة :

يعتبر الدوق فى إقليمه رئيس الشرطة لأنه يقوم بمساعدة الجند على حفظ الأمن العام ، ويكفل انتظام جباية الضرائب بنما يبذله لعمال الخراج من المساعدة بالقوة العسكرية ، ويؤدى رئيس الأبروشية فى إقليمه مهمة قائد الشرطة فيصدر من ديوانه أوامر القبض والاعتقال ، وفى إقليمه سجن يلقى فيه من يعيث فساداً أو يرتكب جرماً .

وتضمن قانون ١٣ تفاصيل دقيقة تنظيم الشرطة فى منطقتى مينيلاتيس ومريوط اللتين تعرضتا بصفة خاصة للاضطرب والقلق نظراً لقربهما من الإسكندرية ، والمعروف أن هاتين الجهتين تدخلان فى اختصاص ليبيا ، فدرج حاكم ليبيا على أن يرسل إلى هاتين نائباً عنه عهد إليه بأن يقبض على من يلجأ إلى هذين الموضوعين من مثيرى الفتن بالإسكندرية ، والذين أرادوا أن يتجنبوا مطاردة مندوبى الأوجستال لهم ، ولمندوب الوالى القضائى أن يتصرف فى هذه الحالة إما من تلقاء نفسه أو بناء على طلب الأوجستال بأن يسلم المذنبين إلى نواب الدوق الأوجستال ، ولتنفيذه ما صدر عن محكمة نائب والى ليبيا من أحكام ، ومن أجل القبض على المشبوهين وتسليمهم إلى نائب الأوجستال كان لدى نائب حاكم أو والى ليبيا إلى جانب الموظفين المدنيين الذين يؤلفون خمسون جندياً اتخذهم من الحامية المعسكرة أو المرابطة بالمنطقة ذاتها .

ومهما يكن من الأهمية لما قام به الجيش المرابط بمصر من أعمال الشرطة فإن الجند لم يكونوا وحدهم هم المكلفون بالسهر على حفظ الأمن فى البلاد إذ أن فئة خاص من الموظفين توارت أيضاً تأدية أعمال الشرطة فى المدن والقرى .

ففى المدن صارت إدارة الشرطة فى القرن السادس موكولة دائماً إلى حامى المدينة وإلى من يخضع لسلطانه من رجال الشرطة *Riparii* والراجح أن مهمة هؤلاء المساعدين كانت فى القرن

السادس مثلما كانت فى القرن الخامس من قبيل السخرة والتكليف على الرغم من أن متوليها حصلوا على أجر وراتب أما من باشر منهم *Riparii* مهمة الشرطة العادية كما سبق أن رأينا فقد جرى تكليفهم بحفظ الأمن فى المدينة وفى التحرز والتحفظ على أشخاص المهتمين وجعلهم يمثلون أمام القضاء .

ونظراً لأنهم ورثوا ما كان لولاة المدن *Strateges* فى العصر الرومانى من امتيازات وحقوق أصدروا الأوامر بالقبض على المشبوهين والمذنبين ، وأبدوا للمحكمة استعدادهم لمساعدتها فى إعلان الأحكام ويرأسهم موظف معروف باسم *Archiuperetes* ويخضع لأوامرهم رجال البريد وما يصدر من إدارتهم من القرارات يجرى نقلها إلى الفئة المعروفة باسم *Irenarques* (الحراس) الذين يرأسهم تريبون ، وفى كل مدينة إنشاء سجن ، وفى القرى أيضاً جماعة من رجال الشرطة *Riparii* بينما اهتم أعيان القرية بالقبض على المتهمين وإرسالهم للمثول أمام المحاكم مثل محكمة رئيس الأبروشية وذلك إذا تلقوا من المحكمة المذكورة أمراً بذلك .

ولاشك أن أعيان القرية برغم ما بيدهم من السلطة العامة كانوا يلجأون على المذنبين إلى الموظفين المكلفين بأعمال الشرطة أمثال الحراس *Irenarques* فى القرية الذين يخضعون لأوامر التريبون والذين جرى تعيينهم من قبل رئيس الأبروشية وفى القرى أيضاً كان يوجد جماعة أخرى باسم *Phylacites* الذين يرأسهم *Kephaliotes* .

وبذلك تألف من *Phylacites,Irenarques* فئة أو جماعة من الشرطة المحلية التى تقابل القرية العسكرية التى يمثلها جيش الإمبراطور على أن العساكر ورجال الشرطة كانوا يتعاونون فى المحافظة على الأمن فى بعض الجهات .

وإذا حدث أنه لم يكن فى وسع أعيان القرية وقوات الشرطة المحلية أن يقوموا بتسليم المجرمين أو أهملوا تأدية ذلك الواجب نتيجة سوء قصد ظاهرة جرى الالتجاء إلى الاستعانة بالعساكر الإمبراطورية إذ أن السلطات المسئولة قد تبادر فى بعض الأحوال إلى استدعاء قائد العساكر *Tribun* من مدينة مجاورة فلا يلبث أن يقدم على رأس ثلة من العساكر تعيد السكان إلى رشدهم وصوابهم .

وإلى جانب الشرطة المحلية قام بالقرى المصرية فى القرن السادس موظفون صغار يعتبرون من رجال الشرطة يؤدون أعمالاً معينة على الرغم من تنوعها ، فحراس الحقول الذين يخضعون لسلطة *Irenarques* كانوا يؤدون أعمالاً هامة فى القرية *Come* ، أما الرعاة المكلفون بحراسة القطعان والحراس المكلفون بالإشراف على الحقول فينبغى عليهم جميعاً أن يلاحظوا رى المزروعات وأن يهتموا بالمنشآت العامة على اختلاف أنواعها ، وأن يعملوا على حفظ الأمن وإلزام سكان المدن بالمثول أمام المحكمة من اقتضى الأمر ذلك .

وجرى تقسيم زمام القرية إلى أقسام اختص بكل قسم منها حارس أو عدة حراس ، وذلك وفقاً لما تم الاتفاق عليه بين هيئة الرعاة *Choinon* وبين موظفى القرية ، وينبغى أن يخض الرعاة وحراس الحقول مباشرة لشرطة القرية *Riparii* ، وذلك لأنهم " رؤساء الشرطة " هم المسئولون عنهم فى تأدية أعمالهم .

وفى الجهات الواقعة على أطراف الصحراء لاسيما ما كان تابعاً منها لطيبة حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين ، جرت إقامة أبراج منيعة يصح الالتجاء إليها والاحتماء بها عند حدوث خطر شديد ويعتبر حارس البرج فى هذه الحالة مندوب الشرطة ، جرى تعيينه بصفة خاصة فى هذه المواضع ، أما رجال الشرطة فى القرية فإنهم يقومون بهذا العمل فيما يبدو على سبيل التكليف والإلزام مثلما كان حادثاً فى العصر الرومانى .

وعلى الرغم من أن كبار الملاك صار لهم فى مصر نفوذ قوى واستقلال داخلى كبير ، وانشأوا لأنفسهم فى ضياعهم جيوشاً خاصة (البقلار) وأخذوا ينفقون عليها ، فالواقع أنه لم تكن لهم ولاية قضائية على أملاكهم ، ومع ذلك كانت لهم شرطة خاصة بهم .

ومن العقود المعروفة عقد (اتفاق) مبرم بين مالك فى البهنسا اسمه فنفيوس أبيون ورئيس حراسه المعروف باسم *Protophylax* ، وفى ضياع أسرة أبيون وهى أسرة من كبار الملاك الأغنياء ومنها أفراد تولوا وظائف كبيرة لم يقم بأعمال الشرطة حراس الحقول فحسب بل تولاها أيضاً فئة خاصة معينة من قبلهم من رجال الشرطة *Riparii* .

ولاشك أنه كان بالضياع الكبيرة الواقعة بالجنوب ، وفيما كان منها معرضاً لغارات البدو طائفة من الحراس الطوافين جرى تكليفهم بمنع ما يجئ من الأخطار من الصحراء الغربية منهم ، والراجح أنه بالضياع الكبيرة الهامة سجون خاصة .

والخلاصة أنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن بذل مجهود كبير لإصلاح النظام الإدارى بمصر بعد أن أصابه من الانهيار الكبير ، ما ألحق الأذى والضرر بمصالح بيزنطة فى مصر ، وبفضل ما اشتهر به الإمبراطور جستنيان من المهارة الفائقة حرص على أن يجرى تغييراً حاسماً فى النظم القائمة ، فقام بإصلاحات خطيرة واستخدم فى ذلك نهجاً بالغ المرونة فكان تارة يكتفى بأن يلفت نظر سكان الإقليم والموظفين إلى الاهتمام بواجباتهم التى أغفلوها بما كان يورده فى دقة متناهية من تفاصيل الإدارة ، وكان تارة يقضى نهائية على ما جرى فى الماضى بالالتجاء إلى اتخاذ تدابير بالغة الصرامة غير أنه كان دائماً يسعى إلى تحقيق هدف واحد . (٧)

هوامش الفصل الخامس

(١) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

(٢) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٣٥ – ١٤٣ .

- سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٢٧ – ١٦٥ .
- محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ١٢٧ – ١٦٥ .
- نحوم شعير : تاريخ ======= ، ص ٢٨٣ – ٢٨٥ .

(٣) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٢٣ – ١٤٠ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٣٢ – ١٩٨ .
- محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص

(٤) سهير إبراهيم نعينع : المرجع السابق ، ص ١٤٠ – ١٤٤ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ١٩٢ – ٢٤٧ .
- محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ١٤٠ – ١٦٥ .
- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٢٠ .

وعن الإمبراطور جستنان انظر :

- محمد فتحى الشاعر : السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، (القاهرة : ١٩٨٩) .

(٥) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١١٥ – ١٢٠ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٢١٦ – ٢٣١ .

(٦) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ١٩٦ – ١٩٨ .

- السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ٢٣٠ – ٢٤٢ .

(٧) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ٢٢٥ – ٢٢٩ .

- محمد محمد مرسى الشيخ : المرجع السابق ، ص ١٩٨ – ٢٠١ .

تدريبات على الفصل الخامس

السؤال الأول: **ظلل في شيت الإجابة** *True* **● إذا كانت الإجابة صحيحة و ظلل** *False* **● إذا كانت خاطئة**

١- عُرفت جيوش الأطراف بإسم المعاهدين

٢-كان معظم جنود الجيش النظامى فى مصر من الرومان

السؤال الثاني:

أكتب مذكرات تاريخية مختصرة عن:

١- رواتب الجند في مصر البيزنطية

٢- النظام القضائي في مصر البيزنطية

الفصل السادس
الحياة الاجتماعية والثقافية

أهداف الفصل السادس

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :

١- دور المرأة فى العصر البيزنطى

٢- أحوال الأسرة والعادات والتقاليد

٣- حياة الترف فى الإسكندرية.

٤- معالم الحياة اليومية

٥- الملابس

٦- التعليم

دور المرأة فى العصر البيزنطى :

فـإذا بـدأنا بالحـديث عـن مركـز المـرأة فـى الحيـاة المصـرية فـى العصـر البيزنطـى ومكانتهـا الاجتماعية تأكدنا أن هذه المكانة انسابت إلى مصر عبر الحقب القديمة وإن تهذبت وتأثرت بظروف مصر وعقيدتها فى ذلك العصر إذ احتلت المرأة مكانة هامة ومميزة فى حياة المجتمع المصرى منذ أقدم العصور لأنها كانت مصدر الوحى والإلهام ومبعث جهاد النفس والروح ورمز البر والصدق ، فقد جعل المصريون القدماء الإلهة ماعت أو معات رمزاً للعدالة والحق والبر وقدسوا هذه القيم فى تلك المعبودة الأنثى تأكيداً لما احتلت المرأة من مكانة هامة فى حياة المصريين القدماء بل حفظ لنا تاريخ مصر القديم أسماء إلهات وكاهنات وملكات لعبن أدواراً هامة ومؤثرة فى حياة مصر القديمة وكان لهن مكانة هامة بين عظماء الرجال فى تلك العصور .

وفـى العصـر البيزنطـى وبعد أن اعتنق المصريون المسيحية ظلت المرأة أيضاً مصدر الوحى ومبعث الإلهام والداعية إلى جهاد النفس والروح ، فضلاً عن أنها حرصت على أن تسمو بنفسها وخلقها وتروض نفسها على أن تكون نموذجاً طيباً وقدوة حسنة أمام جموع الوثنيين ليكون ذلك مدعاة لجذبهم إلى العقيدة الجديدة التى تحث على الطهارة والنقاء والسمو الخلقى فى الوقت الذى كان فيه المجتمع الوثنى يتباهى بما هو فيه من الفساد والانحلال ويسخر من كلمة الطهر والعفاف ولازال ماثلاً فى الأذهان ما كان يسود ذلك المجتمع من مهرجانات فاسدة وحفلات داعرة خاصة فى المجتمع الرومانى وبين جموع الوثنيين فى كل مكان ، الأمر الذى بدا فى ظله النقاء والطهارة والعفاف الذى دعت إليه المسيحية وحث عليه آباء الكنيسة الأول أمر بالغ الأهمية ونموذجاً طيباً ومثالاً يحتذى .

فقد سمت المرأة فى ذلك العصر بالصلة الزوجية والعلاقات الزوجية وأعطتها نصيبها من الاحترام والتبجيل وارتقت بها إلى مراتب سامية مما كان له أثر فى تحو الناس تدريجياً إلى العقيدة الجديدة ، فإذا كانت المرأة فى مصر البيزنطية قد أدركت قدسية الزواج وارتقت بالصلة الزوجية إلى المراتب العالية ، فإنها أدركت أيضاً قدسية الأمومة ، فاهتمت بأولادها وسهرت على تربيتهم وتنشئتهم الطيبة بما يتفق وقيم ومثل العقيدة التى اعتنقتها والتى أخلصت لها ، ولم تنصب أمومتها على أولادها فحسب بل أيضاً شملت الأولاد المحتاجين إلى العناية والرعاية ممن تيتموا وفقدوا حنان الأم .

ولعل خير دليل على ذلك أن أحد أعلام الفكر المصرى الناضج وأحد من أنجبتهم الكنيسة المصرية وهو أوريجين كان والده قد استشهد فى الاضطهادات التى قام بها الإمبراطور سبتيموس سفروس فى أواخر القرن الثانى ومطلع القرن الثالث الميلاديين وكان أوريجين لا يزال صبياً وكان أكبر أخوته السبعة ، وكان الإمبراطور قد صادر أموالهم بعد قتل والدهم وعندئذ اعتنت بهم سيدة من سيدات الإسكندرية وسهرت على تربيتهم فهيأت الفرصة لأوريجين ليصبح منن أبرز المعلمين الذين أنجبتهم الكنيسة المصرية ومن أهم أعلام الفكر المصرى فى ذلك العصر .

كما شاركت المرأة فى الحياة العلمية والثقافية فى مصر البيزنطية وأجات النساء الكتابة والقراءة وتعلمت وحصلن على قدر من العلوم والثقافة والدليل على ذلك أنه حين شرع أورجين – باعتباره رئيساً لمدرسة الإسكندرية التبشيرية – فى نسخ الكتاب المقدس بعد أن انتهى من تسجيله فى لهجات مختلفة اختار سبع شابات يجدن الخط والكتابة ولديهن قدراً من الثقافة الدينية والفكر المتقدم ليقمن بكتابة الكتاب المقدس فى صيغته النهائية بعد أن جرى تنقيحه وتعديله على يديه فوجد ضالته وتقدمت النساء السبع لأداء هذه المهمة مما يدل على مشاركة المرأة فى النشاط العلمى والفكرى والدينى أيضاً فى مصر البيزنطية .

كما أظهرت نساء مصر شجاعة عظيمة وثباتاً خلال الاضطهادات الدينية التى نزلت بمصر من قبل الأباطرة الرومان ، بل كانت نساء مصر فى كثير من الأحيان من أسباب ثبات الرجال وعدم ارتدادهم عن المسيحية خلال تلك الاضطهادات الرهيبة بما بثته فى قلوب الرجال من روح الإيمان

والحمية والغيرة على الدين ، فأقدم هؤلاء الرجال على الموت فى غير تهيب وتقدموا نحو الاستشهاد فى غير وجل ، وأدى ذلك إلى تحول كثير من الوثنيين إلى العقيدة الجديدة ودخولهم فى الدين المسيحى ، فقد شددت المرأة من عزيمة الرجال وبثت فيهم الشجاعة وقوة الاحتمال ووقفت بجانبهم ترقبهم وتشجعهم وهم يتعرضون لأقصى أنواع التعذيب والتنكيل بل تلقت أحياناً ما تلقاه الرجال من التعذيب والتنكيل فى سكينة وثبات .

وشاركت نساء مصر فى الحياة الدينية والرهبنة والانقطاع للزهد والعبادة فى دورهن أو فى أديرة النساء التى انبثت فى كل جهات مصر من أقصى جنود الوادى حتى الإسكندرية حيث انقطعت للعبادة والتأمل ومارست أيضاً العمل اليدوى والعقلى والخدمة الاجتماعية للبيئة المجاورة فاختارت المرأة أن تكون راهبة أحياناً أو شماسة أحياناً أخرى أو كليهما معاً ، فتفقدت المرضى ورعت المسجونين واعتنت بالمعوزين والغرباء وزادت العائلات لرعاية الناس وتخفيف آلامهم وألحت فى عمل الخير وأنيط بكل واحدة منهن رعاية حى من الأحياء وخدمة سكانه وإدخال الطمأنينة إلى نفوسهم وتشجيعهم على الحضور إلى الكنيسة بانتظام تصاحبهم حياناً لينالوا حظهم من الرعاية الروحية أو تقدم تقارير عنهم فى أحيان أخرى للكاهن فضلاً عما وكل إليهما غير ذلك من الأعمال الخيرية والواجبات الدينية وإقامة الشعائر والطقوس .

وإلى جانب ذلك عملت المرأة فى خدمة الطب والتطبيب إذ تميزت بعض النساء بمعرفتهم بالأعشاب وفوائدها الصحية وبتركيب العقاقير فعملن فى هذه الخدمة وقمن بتركيب العقاقير للمرضى مجاناً فى أغلب الأحيان ، على الرغم من أن كثيراً منهن لم يتلق العلم من الأساتذة أو يذهبن إلى مدارس متخصصة وإنما جاءتهن المعرفة بالتسليم من امرأة عن امرأة . وساعد على ذلك أن البيئة التى عشن فيها كانت فى أغلب الأحيان بيئة بسيطة يعيش معظم أهلها على الفطرة ويندر فيها من يعرف القراءة أو الكتابة أو أن أهلها من السذج تندر فيها دراسة مثل هذه العلوم ليصبح الطب فيها بالممارسة والتسليم من شخص إلى شخص . (١)

وإذا انتقنا إلى الحديث عن **الأســرة والعــادات** فى مصر البيزنطية نجد أن الأسرة كانت وحدة البناء الاجتماعى وأظهر رجال الدين اهتماماً كبيراً بحياتها كأساس لبناء مجتمع سليم فغدت رابطة الزواج ركناً هاماً من أركان المجتمع كما غدت حفلات الزواج فرصة مواتية لتعبر فيها الأسر المصرية عن مشاعر الفرح والابتهاج بصورة لا تختلف كثيراً عما نعهده الآن باشراك الجيران والفقراء فى مظاهر الفرح وبتوزيع الكساء والمأكل والحلوى عليهم ، فى حين كانت الأسر الثرية بالذات تحتفل بهذه المناسبة لعدة أيام فتنحر الذبائح وتقيم الولائم وموائد الطعام وتوزع الكساء على الفقراء وتتبارى فى إكرام الأهل والجيران وفى الليلة السابقة على العرس يجتمع الأهل والأقارب فى بيت العروس لتوديعها ، وفى ليلة العرس ذاتها يجتمعون فى بيت العريس للاحتفال به وكذلك فى صبحية العرس حيث يتلقى العروسان هدايا العائلة والأصدقاء .

وحينما يولد للعائلة طفل يجرى الاحتفال به اليوم السابع لميلاده فتدعو الأسرة الكاهن ليبارك الوليد ويجرى اختيار اسم لهذا الوليد وتقام طقوس فى تلك المناسبة فترفع صلاة شكر لله من أجل سلامة الوالدة والوليد ويشترك الكاهن مع الأسرة فى اختيار اسم للوليد وغالباً ما يكون هذا الاسم من أسماء القديسين والشهداء المشهورين بمثلهم العليا ، وعند بلوغ الوليد أربعين يوماً من عمره يحمل إلى الكنيسة ليعمد وينال سر العماد ، ويختارون له رعاياً روحياً ينوب عن الكنيسة فى رعايته روحياً إلى أن يصل إلى سن الدراسة فيجرى إلحاقه بمدرسة الكنيسة .

ومن العادات التى سادت فى مصر البيزنطية أنه حين تبنى الأسرة منزلاً جديداً أو تنتقل إلى منزل جديد يدعى الكاهن ليبارك المسكن الجديد بصلاة شكر خاصة ورش الماء المقدس فى جنبات المنزل استجلاباً للخير ودرءا للشر خشية أن يكون المكان غير مريح أو تسكنه الشياطين ، ففى مصر فقط دون سائر البلاد يعتقد الناس أنه قتل إنسان فى مكان ما فإن روح هذا القتيل أو شبحه تظل ترتاد المكان أو تسكنه وظل هذا الاعتقاد سارياً بين المصريين وربما كان سبباً فيما

أقدمت عليه الأسرة المصرية من إقامة الشعائر والطقوس والصلوات ورش الماء المقدس عند الانتقال إلى منزل جديد أو عند بناء منزل جديد .

وإذا نذرت الأسرة نذراً عند شفاء مريض أو الخروج من ضائقة أو شر أو نجاح شخص فى عمل أو تجارة أو دراسة دعت الأهل والأقارب والجيران والفقراء إلى سهرة حافلة يجلسون فيها فى حلقة يتوسطها مرتلو المدائح والألحان الدينية وقارئو السير الشعبية والأشعار حيث يتبارون فى ارتجال مقطوعات شعرية تدور معانيها حول المناسبة التى يجتمعون للاحتفال بها وسط بهجة وسرور وبعد تقديم الولائم وموائد الطعام كما هى العادة دائماً .

أما فى الأحزان والمآتم وحالات الوفاء فى مصر البيزنطية فجرت العادة على أن تشيع الجثة إلى الكنيسة حيث تقام صلاة جنائزية استمطاراً للرحمة وطلباً للعزاء لأهل المتوفى ثم تقام صلاة خاصة فى بيت المتوفى فى اليوم الثالث للوفاة لتخفيف وطأة الحزن على أهله وفى اليوم السابع والخامس عشر والأربعين تقام صلوات وقداسات فى الكنيسة كانت فى واقعها فرصاً مناسبة للتنفيس عما فى النفس من آلام والتعبير عن مشاعر الحزن والأسى .

غير أنه جرت أحياناً عدات مرتبطة بهذه الأحزان لاسيما فى صعيد مصر وعند النساء بالذات اختلطت بمظاهر وثنية ربما انسابت إلى هذا المجتمع المسيحى من الماضى البعيد ومن تراث مصر القديمة فيها كثير من المغالاة والتجاوز فى إظهار الأحزان مثل : لطم الخدود وشق الثياب وحل الشعر وصبغه بالنيلة ، والضرب بشدة على الصدور وفقد زمام النفس والتمايل باهتزازات توقيعية مع أنغام التعديد التى هى غالباً تعديد مآثر الفقيد وقدر الخسارة التى لحقت بفقده إلا أن بعضها ينحرف إلى عبارات التذمر وينزلق إلى معانى الجحود .

لكن من الأمور الطيبة فى هذه المناسبات وما يدل على ما كان من روح التآلف والتضامن بين المصريين إسراع العائلات المجاورة لمنزل المتوفى للمشاركة فى تقديم العزاء تخفيفاً لوطأة الحزن على أهله وشغلهم عن التفكير فى هذا الحزن من ناحية وكذلك مشاركتهم فى استضافة المعزين القادمين من

قرى أخرى أو بلاد بعيدة بتقديم الطعام وأماكن المبيت من ناحية أخرى وكذلك إظهار شعور الامتنان والشكر لهؤلاء المعزين المتجشمين عناء الانتقال للتعزية من ناحية ثالثة .

وكان الخروج إلى المقابر من العادات القديمة التى ورثتها مصر البيزنطية عن الماضى إذ يعتبر ذلك من دلائل الوفاء ومن مظاهر التكريم لذكرى المتوفى خاصة الخروج فى أيام الأعياد وفى المناسبات الخاصة حيث توزع الصدقات وتقدم المأكولات للفقراء وترفع الصلوات طلباً لرحمة للفقيد ، لكن الناس غالوا أحياناً فى ذلك فباتوا فى المقابر عدة ليال وتمادوا فى إظهار الحزن والأسى فى تلك المناسبات .

وجرت كذلك عادة بعض الأسرات فى ذلك العصر أن تتناوب إقامة الولائم فى إيوان ملحق بالكنيسة حيث يجتمع الناس حول مائدة يتناولون معاً الطعام ، بينما يقوم أفراد هذه العائلات بخدمتهم أثناء هذه الولائم ، ويبدو أن الكنيسة شجعت هذا التقليد لتقوية الروابط الاجتماعية بين الناس من ناحية وإزالة الفوارق الاجتماعية بين الطبقات من ناحية أخرى وهذا الدور يضاف إلى الأدوار التى لعبتها الكنيسة فى كل مكان .

هذا فضلاً عماً ألحق بالكنيسة من غرف لإيواء الغرباء واستضافة المسافرين ورعاية الفقراء وكلها واجبات رأت الكنيسة فيها خدمة المجتمع والناس ، وكان يتكفل بهذه أحياناً بعض الموسرين أو تتكفل بها الكنيسة أحياناً أخرى من حصيلة النذور والهبات التى كانت تتلقاها من الخيرين ، كما ألحقت بالكنيسة أيضاً مدرسة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب ودراسة الكتاب المقدس وسير القديسين وتعلم الألحان الدينية الكنيسة وأحياناً أخرى تخرج رجال الدين ، كما كان بجوار الكنيسة فى بعض الأحيان مستشفى لعلاج المرضى لاسيما من فقراء الناس ومن تعوزهم الحاجة ووجود مثل ذلك يعد مظهراً من مظاهر التضامن الاجتماعى ودليلاً على دور الكنيسة فى الحياة الاجتماعية فى مصر البيزنطية .

بقى أن نشير إلى جانب من الحياة الاجتماعية التى عاشتها بعض الأسر المصرية الموسرة خاصة فى الريف المصرى من كبار الملاك الزراعيين الذين ازداد نفوذهم على حساب صغار الحائزين

للأرض والذين أدخلوا تحت حمايتهم من جاورهم من الفلاحين فاشتدت شوكة هؤلاء الإقطاعيين وازداد عددهم فى القرن الخامس بصفة خاصة ، ثم لم يلبث أن تألف منهم فى القرن السادس الميلادى طبقة من النبلاء الإقطاعيين مثال ذلك أسرة أبيون فى البهنسا الذين كانوا من كبار الأعيان وظفروا بالوظائف العليا فى مصر وبالرتب الرفيعة وحازوا أملاكاً شاسعة لا فى البهنسا فحسب بل فى سائر أنحاء الفيوم بل امتلكوا قرى بأكملها بما يحيط بها من أراضى وعاش أفاد هذه الأسرة فى قصورهم فى المدينة على نحو ما يعيش الأمراء ، وتولى زراعة أراضيهم الفلاحون وأقنان ، وكان لأسرة أبيون هذه أسطول صغير يسير فى نهر النيل واتخذوا لأنفسهم جنداً خصوصيين وشرطة تولوا حراسة أراضيهم وماشيتهم وآلاتهم الزراعية بل أن هذه الأسرة سكت عملة باسمها .

وإلى جانب أسرة أبيون كان هناك أسر أمونيوس وفويبامون وغير هؤلاء كثيرون غدا لهم من القوة ما كان يكفى لمقاومة الحكومة وتقلد أفراد هذه الأسر الوظائف الهامة فازداد نفوذهم سلطانهم فى المدن والقرى التى سكنوها وإن أظهر بعض هؤلاء السادة العداء للسيادة البيزنطية وكانت تحركهم أحياناً نوازع وطنية وهذا التطور الاجتماعى جعل من كبار الملاك السادة الحقيقيين للبلاد الذين أصبحوا يمثلون خطراً على السيادة البيزنطية فى مصر . (٢)

حياة الترف فى الإسكندرية :

على الرغم مما أصاب المدينة فى القرن السادس من الاضمحلال ، فإن ما اشتهرت به من الرخاء الاقتصادى جعل منها مدينة الترف والثراء وازداد اهتمام سكان الإسكندرية بالاحتفال بالأعياد وشاع فيها العبث والمجون ، وحدث حوالى أواخر القرن الثالث الميلادى أن وجه كلمنت الإسكندرى النقد الشديد إلى نساء الإسكندرية لاشتداد ميلهن إلى استخدام المساحيق وما ينزعن إليه من ارتداء المنسوجات الحريرية والثياب الموشاة بالذهب والثياب ذات الذيول الطويلة التى تهدئ من المسير وتبدو كأنما تكنس الأرض على حد قول هذا الأخلاقى المسيحى الكبير ، واتخذن من الثياب القصيرة ما

يكشف عن الركبة كالتى اتخذها فتيات إسبرطة وما اتخذته من الأحذية التى انطبع على نعلها عبارات الحب جعل مشيهن يثر الأفكار الشهوانية ، واشتد كلمنت فى لوم النساء لما يبدين من عناية واهتمام بشعورهن وصياغتها ، وكان اللون الأصهب هو المستحب عندهن ، واتخذن الشعر المستعار وحرصن على أن يجعلن من شعورهن تراكيب هندسية بالغة التعقيد وأمعن فى المحافظة عليها ، وبلغ من شدة خوفهن على إتلافها وإفساد نظامها أنهن لم يجرؤن على المسير إلى فى حذر شديد ولم يستسلمن للنعاس .

وأنكر كلمن على (الحلاق) ما دأب عليه من التفنين فى إجراء الضفائر المثيرة التى اشتد شغف النساء بها ، ومن الطبيعى أن يلجأن إلى تزيين الوجه فيطلين الخدود ويزججن بخط من السواد باطن جفون عيونهن ويتعطرن بالزيوت والأدهان والعطور . أما اتخاذ الحلى والأثواب الدقيقة التطريز فلم يكن أقل أهمية وكل ذلك كان معروفاً فى القرن الثالث زمن كلمنت ، وظل سائداً فى المجتمع البيزنطى فى القرنين الخامس والسادس ، ومن الدليل على ذلك ما جرى العثور عليه فى السنوات الأخيرة بمقبرة بأخميم (بانوبوليس القديمة) ، وفى أنتينوى *Antinoe* ، من المنسوجات الصوفية الجميلة ومنسوجات الكتان والحرير ذات الألوان الزاهية الحية والتى امتازت برسوم متنوعة تأثرت بمؤثرات هلينية أو شرقية ، ففى النسيج أختلط معاً المناظر الميتولوجية وحلقات الصيد وموضوعات عن المخلوقات البشرية والصور المستمدة من حياة السيرك (الملعب) ، والشخوص (الرسوم الكاريكاتورية) ، والموضوعات الدينية المستمدة من الإنجيل والكتاب المقدس .

فإذا أدركنا أن هذه المنسوجات إنما عثروا عليها فى بعض مدن الأقاليم صار من اليسير أن نتصور ما أتخذه نساء الإسكندرية وقتذاك من أسباب الترف والرشاقة ولا يقل دلالة عن هذه الأبهة والروعة ما عثر عليه فى مصر فى السنوات الأخيرة ، من الحلى الجميلة التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى إذ شملت عقوداً من الذهب انتظمت فى صفوف ، وتوسط العقد نقود بيزنطية تحمل رسم الأباطرة ومن هذه الحلى أيضاً خواتم وأساور وجلاجل (حلقان) .

أما هيئة النساء فى زينتهن الرائعة وشدة ولعهن بترتيب شعورهن على نحو ما نراه فى صور دير بوطيط *Baouit* التى ترجع إلى القرن السادس ، وفى المنسوجات الملونة الواردة من حفريات أنتينوى فإنها تدل على أن قاله كلمنت فى القرن الثالث عن نساء الإسكندرية ينطبق أيضاً عليهن فى القرن السادس وأن المتأنقات فى العاصمة المسيحية (الإسكندرية) لم يكن أقل عدداً وأقل جمالاً وشهر منهن فى المدينة الوثنية (الإسكندرية) .

ولم يكن كلمنت أقل عنفاص وشدة فى نقد الإسراف فى الطعام فاعتبر من دلائل الانحلال الخلقى بالمدينة ما اشتهر به أهل الإسكندرية من الحياة الوادعة ، والميل إلى خمول والكسل والولع بالزهور وحب الملاهى والشغف بالملعب (السيرك) ، ومع ذلك اشتهر الإسكندرى بسرعة الخاطر والذكاء الفطرى وأبقى العصر البيزنطى على كل هذه الصفات وحافظ على كان كان معروفاً من التقاليد .

ومن المحقق أن المسيحية أضفت على هذا المجتمع صفة بالغة الاتزان والرزانة على الأقل من الناحية الشكلية أو الظاهرية ففى الوثائق إشارات عديدة إلى ما يلتزم به الأزواج من واجبات وإلى متانة تكوين الأسرة على الرغم من أن عبارات هذه النصوص غلب عليها من البلاغة ما يثير الشك فيما ينطوى عليه من حقيقة واقعة ، كما تضمنت وثائق الطلاق الأسباب التى أدت إلى الانفصال بين الزوجين على أنه ينبغى ألا ننسى أن عدد الفقراء بالإسكندرية كان كبيراً ، وقد تكفلت الكنيسة برعاية ومؤن عدد من هؤلاء الفقراء . يضاف إلى ذلك أنه ترتب على الفروق الاجتماعية فى العنصر والثروة والامتيازات ما وقع بين طبقات المجتمع من منازعات وأحقاد على الرغم فى أن المظهر الخارجى إنما ينم عن الانسجام والوفاق . (٣)

الرهبنة النسائية :

كان لنساء مصر مثل الرجال السبق فى اتخذا الرهبنة نظاماً وسلوكاً وإن اختلفن بعض الشئ فى الأسباب والنشأة عن الرجال ، والجدير بالذكر أن الباحث عن أصول الحياة النسكية الخاصة

بالنساء فى القرون الأولى لانتشار المسيحية بمصر يجد صعوبة فى ذلك لما يحيطها من الغموض فما توفر من كتابات مبكرة تركز جل اهتمامها بالمواد اللاهوتية على حساب المعلومات التاريخية .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الدوافع والأسباب التى أدت بالنساء إلى حياة النسك والعزلة فنجد البداية تتعلق أيضاً بالجوانب الدينية طمعاً فى رضاء الرب والبعد عن المجد الزائف ، وذلك اتباعاً لنصائح بولس الرسول الذى أوصى بوضع الأرامل والعذارى الراغبات فى ذلك للإقامة فى بيوت أطلقوا عليها بيوت العذارى تخضع لإشراف كامل من ناحية الكنيسة كذلك كان هناك من العذارى اللاتى رغبن فى العزوف عن الزواج وفضلن أن يكون عرائس للسيد المسيح *Brides of Christ* .

كذلك كان للأوضاع الاجتماعية دوراً أساسياً فى لجوء الكثير من العذارى إلى تلك البيوت هرباً من الفساد الخلقى خلال هذه الفترة وملاحقة أصحاب السلطة والنفوذ لهن من أجل ممارسة الرذيلة ، ومنهن من أتت لها نتيجة ضغوط عائلية لإجبارهن على الزواج دون رغبة منهن لذلك ، إضافة إلى أن بعض منهن فرضت عليه الظروف الانخراط فى هذه الحياة مثلما حدث عندما أودع ديمتريوس بطريرك الإسكندرية (١٨٨-٢٣٠) زوجة إحدى تلك الدور عندما رسم بطريركاً ذلك تنفيذاً لقوانين الكنيسة فى بتولية البطرير ، كذلك عندما شرع الأنبا أنطون فى دخول حياة الرهبنة اتفق مع أخته على أن تسكن مع العذارى اللواتى كن يجتمعن فى بيت ومكان واحد فى ذلك الوقت يعشن متفردات للعبادة ومنعزلات عن سواهن للتأملات والرياضة العقلية ، فوضع أخته عندهن وأوصاهن أن يعاملنها بالعطف واللطف ، وقد سلك نفس المنهج الأنبا آمون عندما قرر وضع زوجته إحدى تلك الدور عندما خرج أيضاً للبرية للتفرد التام لحياة النسك .

والجدير بالذكر أن الرهبنة النسائية فى مصر مرت بمراحل عدة حتى وصلت إلى الصورة الأخيرة التى شاهدناها فى بيوت العذارى المنتشرة فى أنحاء كثيرة من القطر المصرى ، والتى كان أشهرها القصر الذى عاشت فيه القديسة دميانة بوادى الزعفران بصحبة أربعين عذراء من بنات أكابر المدينة فى القرن الثالث الميلادى وقد عشن بالتعبد والصلوات فى جميع الأوقات ، وقد لقين جميعاً

حتفهن على يد رجال الإمبراطور دقلديانوس بعد رفضهن التخلى عن عقيدتهن إلى جانب بعض الصور التى ذكرناها سالفاً فى الحديث عن أسباب الرهبنة النسائية .

ويرى بعض المؤرخين أن ما قامت به القديسة دميانة هو بداية الحياة الديرية فى مصر باعتبار أن تلك القديسة بدأت بمجموعة من العذارى عشن حياة الشركة إلا أن ذلك لا يمكن أن نطلق عليه نظام الرهبنة بعينه ، والذى عرف فيما بعد فى القرن الرابع الميلادى على اعتبار أن هذه البيوت لم تتوفر فيها أركان الديرية وأخصها البعد عن الأماكن الآهلة بالسكان أو ما عرف بالانفراد والعزلة ، كما أنها افتقدت للنظم التى قررت فيما بع لتنظيم حياة الشركة ، كما أن بعض منهن قد عدل من موقفه فيما بعد وانخرط فى الحياة الدنيا وفضلن الزواج بعد أن تركن الإقامة فى هذه البيوت .

على أية حال مثل القرن الرابع الميلادى نقطة هامة ومؤثرة فى نظام الرهبنة فى مصر سواء على الصعيد الرجالى أو النسائى ليشهد نظماً جديدة لم تكن مألوفة من قبل .

فبعد أن أقر الأنبا باخوم نظام الشركة بالنسبة للرجال شاءت المقادير أن يكون أيضاً هو مؤسس الحياة الديرية للنساء وشاء أن تكون أخته مريم هى أولى الراهبات ، وكان ذلك عام ٣٤٠م عندما أمر باخوم بعض رهبانه أن يبنوا ديراً على مقربة من ديره عرف باسم "دير العذارى " ثم سمع بخبرها أخريات جئن إليها وعشن معها حياة النسك والطهارة وكانت لهم أثناء ذلك أم ومسئولة عنهن جميعاً حتى لحظة وفاتها .

وعندما لاحظ الأنبا باخوم أن عدد الراهبات فى ازدياد عين لهن أحد الشيوخ من الرهبان يدعى بطرس كان مشهوداً له بحسن الخلق والتقوى حتى يقودهن فى طريق الفضيلة بحسب وصايا الإنجيل ، كما كتب لهن بطرس قوانين الشركة أرسلها لبطرس حتى يعلمهن إياها ، كذلك قام بطرس بزراعة الأرض التابعة لهذا الدير مع بعض الأخوة الذين يعودون إلى ديارهم فى المساء ولا يسمح لهم بتناول أى أطعمة أو مشروبات عند الراهبات ومن ثم فقد عاش الراهبات داخل الأديرة حياة الشركة بدلاً من الانفرادية أو داخل بيوت العذارى فى نظام موحد أصبح يطبق على كل الأديرة فيما بعد .

وهكذا يتضح لنا بالدليل القاطع أن الحياة الديرية للنساء بمصر قد بدأت ٣٤٠م وليس قبل ذلك ، فالأنبا باخوم لم ينتهج سلوك من سبقه فى وضع أخته فى أحد البيوت ولكن قام ببناء دير طبق عليه بعد نظم وقوانين الشركة ، وكذلك أن البناء تم حسب الروايات فى الصحراء فى انعزال تام عن المجتمع ليعشن فيه حياة النسك الحقيقية

انتشار الأديرة النسائية :

ذاعت شهرة دير العذارى بين الراغبات فى التنسك والعزلة ، الأمر الذى أدى لتوافد العديد منهن إلى الدير من المناطق المحيطة به سواء كن من العذارى أم من المتزوجات وذلك لتنامى الرغبة لديهن فى أن يعشن مثلها متبتلات ومنقطعات للعبادة والتنسك والصلاة ، وكان ذلك داعياً لبناء العديد من الأديرة الأخرى ، مما دفع الأنبا باخوم إلى بناء دير جديد بالقرب من إخميم وأطلق عليه دير مينه وتوافدت عليه الراهبات فى زمن قياسى حتى بلغ من أودى إليه من الراهبات نحو أربعمائة راهبة ، وأخيراً اختتمها بالدير الذى شيده بالقرية المعروفة باسم فخنة *Fakhnah* وكان الأنبا باخوم يرتب لهن من رهبانة شيخاً عاملاً مجرياً لتعليمهن وتربيتهن وعلى نفس النسق قام أحد تلاميذه واسمه تيودور ببناء ديراً آخر بجوار " فاو " القريبة من قنا .

وسرعان ما تمت الفرة وانتشرت على نطاق واسع حيث تسابق خلالها النساك فى مصر وأهل الخير لبناء هذه الأديرة لتعم فيما بعد جميع أنحاء مصر فى الوجهين القبلى والبحرى على السواء والحقيقة أن أديرة الراهبات لم تنل نفس الاهتمام الذى نالته أديرة الرهبان ، ورغم أن جيروم نفسه خلال زيارته إلى مصر فى أوائل القرن الخامس حدد عدد الراهبات فى مدينة أوكسرنخوس بعشرين ألف راهبة فإنه لم يقدم وصفاً لهذه الأديرة ، وبطبيعة الحالة فإن هذا الرقم مبالغ فيه وربما يقصد من ذلك إضافة هالة من العظمة والتفخيم على هذا النظام .

وقد قام بلاديوس خلال رحلته إلى مصر بذكر عدة أديرة منها الدير الذى بناه إيليا *Elijah* وذلك خلال النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى ، وكان يحب خلاص نفوس العذارى بشدة والسيدات اللائى عشن فى عزوبية فى طيبة وأتريب ، وأدخل فيه كل امرأة تريد أن ترتدى ثوب الرهبنة

واهتم بكل احتياجاتهن من أجل الله وكن ثلثمائة راهبة ، وبعداً عن الشبهات مضى وسكن فى قلاية بجوار ديرهن وعاش خادماً لهن . [٤]

معالم الحياة اليومية

تميز أسلوب الحياة الذى طبقة الرهبان المصريون سواء عاشرا كنساك متوحدين فى الصحراء أو فى الأديرة الباخومية بالبساطة التى تصل إلى حد الفقر حيث وصلت فيه المادة وحاجات الجسد إلى مرتبة ثانوية بالنسبة للكمال الروحى ، وقد اختزلت حاجات الجسد حتى تحولت إلى مجرد الضرورات المطلقة ، وفى بعض الأحيان وصل التزمت فى العقيدة لدى بعض النساك إلى أبعد من ذلك وأصبحت المعاناة التى فرضوها على أنفسهم والتجرد من الممتلكات شرطاً أساسياً لا غنى عنه للدخول فى حياة التوحد ، وقد أتاحت لنا كتابات الآباء الأولين وحكايات بلاديوس وغيره من المؤرخين فرصة التأكد من الأولويات التى التزم بها هؤلاء الرجال وعن انصرافهم الكامل عن المشاغل الدنيوية ، ولكن يبدو لنا أن التمسك الشديد بحياة التقشف التى صارت هى النموذج المرعى قد التزم بها كل منهم ، وتتضمن الكتابات حكايات عديدة عن الأخوة الأقل قوة الذين وجدوا صعوبة فى الوصول إلى أعلى درجات ضبط النفس المطلوبة ، ولاشك فى أن الكثيرين منهم قد توقفوا عند مجرد ممارسة درجة أقل من الخضوع للنظام ، وتبين لنا تجمعات إسنا الرهبانية أن شدة النظام لم تكن متعسفة بحيث تحول دون الاهتمام براحة الرهبان ، ومن الممكن تلطيف قسوة النسك بتوفير بعض درجات الممارسة العملية وينطبق ذلك على القوانين الباخومية التى لم يوافق مؤسسها على المبالغة فى إنكار الذات والمعاناة من تعذيب النفس ، وقد نالت المثابرة والقدرة على الاحتمال الكثير من الإعجاب حتى أصبحت هى السبب فى السمة الطيبة التى نالها النساك المشهورون ، ولكن التركيز على هذه الخاصية الأخلاقية كان يعنى أنهم يمثلون حالات استثنائية فى هذا الصدد ، وأن تقليد الآخرين لهم غير متوقع بالرغم من أن النموذج الذى قدموه كان يهدف بوضوح إلى حفز هؤلاء الذين جاءوا بعدهم .

إن الحياة اليومية بالنسبة لهذه الصفوة من النساك كانت تعنى أكثر من مجرد مداعبة الموت ، وأن الحديث عن بقاء معظم الأخوة خاصة هؤلاء الذين ينتمون إلى التجمعات الباخومية كان أقل تطرفاً

، وعلى أية حال فإن الاختلاف كان يمثل إحدى الدرجات وأن المعالم الضرورية للحياة الرهبانية كانت مطبقة على الجميع .

وكانت وجبة الطعام محدودة فى كافة الأوقات ولكن درجة المحدودية كانت مختلفة فى بعض الحالات ، كانت عادات تناول الطعام بالنسبة للنساك من أمثال إفاجريوس ومكاريوس الإسكندرى حسب ما أورده بلاديوس مفرطة فى إنكار الذات مع الرغبة فى المنافسة بالرغم من أن الشائع لدى غيرهم من الرجال هو عدم الموافقة عليها بشكل عام وكان النظام الباخومى متسامحاً ومرناً فى هذه المسألة فإذا أراد أحد الرهبان أن يعيش حياة أكثر تقشفاً من زملائه كان يسمح له باستهلاك نصيبه من الخبز والملح والماء فى قلايته أما سائر الأخوة فقد كانوا يجتمعون فى قاعة الطعام لتناول وجباتهم وربما كان الطعام مكوناً من الخبز والخضروات ونوعاً من الشوربة والفاكهة أو الجبن . أما النبيذ واللحم فغير مصر بهما إطلاقاً ، وعلى ذلك فإن هؤلاء الذين كانوا يحتاجون إلى كميات أكبر من الطعام بسبب السن أو الضعف أو المرض أو طبيعة العمل المكلفين به فقد كان يسمح لهم بذلك ، أما الأديرة التى كانت تحت إشراف الأنبا شنودة فقد كانت أكثر تشدداً من جهة الأطعمة المسموح بها لأن اللحوم والنبيذ والبيض والجبن والأسماك هذه الأصناف كلها كانت ممنوعة إلا أن المرضى كان يسمح لهم بتناول الأطعمة الممنوعة ، ونجد هذا الاهتمام بالمرضى والتراخى فى تطبيق القواعد المشددة لأجلهم مذكوراً فى المصادر الأدبية ، ولذلك فإننا نقرأ عن رجل كان يدعى للونيوس الذى أخذ على نفسه التعهد برعاية المرضى فى جبل نيتريا والذى كان يشاهد يومياً وهو يمر على الأديرة ويدخل إلى كل باب بحثاً عن أى مريض راقد فى سريره وقد حمل معه الزبيب والرمان والبيض والخبز المصنوع من الدقيق الفاخر وهى الأشياء التى يحتاج إليها هؤلاء المرضى .

وتشير المصادر الأدبية التى وجدت فى منطقة طيبة إلى تموين الفاكهة المخصص للمرضى أو هؤلاء الذين يؤدون أشغالاً مرهقة ، وكان يسمح للمرضى أيضاً بتناول الأعشاب المطبوخة مع رعايتهم والتسامح معهم وتقدم لنا هذه المصادر الطيبة فكرة عن الوجبة الغذائية فى التجمعات الرهبانية الأقل صرامة مثل دير إبيفانيوس وكان الخبز هو الطعام الرئيسى ويتم تناوله غالباً مع الملح وأحياناً

مع الخل مع إضافة الزيت بالنسبة للمرضى ، كما كان يستهلك مع الأعشاب الخضراء أو تؤكل الأعشاب وحدها ، ويبدو أن الطعام المطبوخ لم يكن ممنوعاً ، أما الخضروات فلم يرد ذكرها إلا قليلاً بصرف النظر عن ورود ذكر القمح بانتظام أما الشعير فأقل ذكراً بينما يظهر العدس والكمون والترمس والفول كثيراً فى النصوص ، وكان الفول مطلوباً بواسطة أحد الأخوة ، وورد ذكر البلح ضمن الفواكه بشكل منتظم ولم يرد ذكر التين والعنب إلا مرة واحدة ، ويبدو أن الزيتون لم يكن شائع الاستخدام بالرغم من وضوح الحاجة إلى زيت الزيتون لإشعال القناديل وورد ذكر الزبد أحياناً أما البيض فكان من الكماليات وكان عسل النحل إضافة ممتعة إلى وجبة هؤلاء الرهبان الذين ينتمون إلى طيبة ، كذلك الأطعمة المخللة أو المحفوظة ، وشاع كذلك تناول الخضروات أو غيرها من الأصناف ، أما السمك فكان تناوله نادراً ولم يذكر اللحم كما هو متوقع .

وتوضح لنا هذه المصادر الأدبية أنه بالرغم من وجود بعض الاختلافات فقد ثارت الأسئلة حول درجة الصرامة التى فرضها الناسك المنفرد على نفسه بخصوص الطعام أو التى فرضها رئيس التجمع الرهبانى على الرهبان الخاضعين له ، وتتفق هذه المصادر أيضاً على اعتبار الخبز والملح والماء هى المكونات الثلاثة الأساسية حتى بالنسبة لأكثر الوجبات صرامة . (٥)

وكانت لإمدادات المياه المنتظمة أهمية عظيمة سواء للرهبان المتوحدين أو التجمعات الباخومية حيث كانت تقوم هذه التجمعات فى المكان الذى يسهل فيه الحصول على الماء ولكن الناسك غالباً كانوا مضطرين للقيام برحلات تمتد إلى مسافات بعيدة للحصول على إمداداتهم وكان ذلك يحدث أحياناً حسب اختيارهم رغبة فى مضاعفة الغيرة النسكية ، وقد علمنا أن راهباً يدعى بطليموس عاش حياة " يصعب وصفها " لأنه سكن فى مكان بعيد عن صحراء الإسقيط لم يسكنه أى راهب آخر ذلك لأن البئر الذى كان الأخوة يجلبون منه الماء كان يبعد عن هذا المكان بمسافة ١٨ ميلاً ، أما الرهبان الآخرون فلم يكونوا أقل نسكاً ولكن أكثر واقعية حيث عاشوا فى حدود مسافة معقولة من الآبار التى كانت تشكل جزءاً من المنطقة الديرية ، ونقرأ فى قصة تنسب إلى موسى اللص كيف كان يأخذ خلسة جرار الماء من الرهبان الأكثر نسكاً ويملؤها بالماء " لأنهم كانوا يجلبون الماس الذى يحتاجون إليه من

مسافات تقع على بعد ميلين أو خمسة أميال أو ننصف ميل بالنسبة للمكان الذى يقيم به كل ناسك " ، وكان بعضهم يحمل إلى مكان إقامته ماء يكفيه لمدة أسبوع بعد قداس الأحد .

بينما كان رهبان آخرون يعتمدون على أصدقائهم لإعادة ملء جرارهم أما هؤلاء الذين كانوا يعيشون بالقرب من وادى النيل فقد كانوا يسحبون احتياجاتهم المائية من النهر ذاته أو من شبكة القنوات . (٦)

أما موقف الأديرة من استهلاك النبيذ فهو متغير ،ة فقد كان استخدامه محظوراً تماماً بالنسبة للتجمعات الرهبانية فيما عدا المرضى ، ولكن النساك كانوا أكثر تسامحاً فى هذا الصدد ومع غياب القواعد المشددة ترك للأفراد تقرير الامتناع من عدمه ، وكان بعض النساك المشهورين مثل القديس مكاريوس على استعداد للتراخى فى مبادئه وتناول فنجان من النبيذ حتى لا يجرح مشاعر ضيوفه ، ولكن هذه المرونة لم يلتزم بها الجميع فقد حمل بعض النساك حملات شعواء ضد استخدام الخمر فى أى ظرف مهما كانت الأسباب ، ويبدو أن الاعتدال كان هو المبدأ المقبول على وجه العموم ، وهناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن النبيذ كان يجرى تناوله فى الاجتماع الأسبوعى للرهبان ، وفى العصور التالية يبدو أن التحيز قد واجه بعض التراخى حيث نقرأ عن إقامة احتفال فى القرن الحادى عشر بدير يوحنا كامى فى وادى النطرون وأن المشتركين فى هذا الاحتفال قد شربوا حتى أصبحوا على حافة السكر .

أما الزيوت فقد كانت التجمعات الرهبانية تحتاج إليها للأعراض الطقسية وإشعال القناديل ، ولكن استخدامها كإضافة للأطعمة كان محدوداً سواء بين النساك أو الرهبان ، وقد قيل لنا أن نصف اللتر من الزيت كان يبقى لمدة ثلاثة شهور ، وكان يسمح للمرضى باستخدام كمية أكبر من المعتاد ، ومن السهل الحصول على كافة أنواع الزيوت فى مصر . (٧)

الملابس :

إن معلوماتنا عن ملابس الرهبان المصريين تستدعى الاعتماد على المصادر الأدبية وخاصة قصة كاسيان إنه يصف الملابس بأنها تتكون من حزام من الجلد وثوب فضفاض له كمان قصيران

يكشف عن الصدر وأربطة من غزل الصوف متقاطعة على شكل صليب ورداء خارجى بلا كمين يغطى العنق والكتفين وعباءة خارجية من جلد الماعز يبدو أنها تلبس فقط عند السفر وقلنسوة تلبس منفصلة على الرأس والعنق وتحمل علامة تدل على الدير الذى ينتمى إليه الراهب الذى يرتديها ومنزله فى ذلك الدير ، وكانت الصنادل تلبس أحياناً لأن الراهب كان يمضى حافى القدمين فى معظم الأحوال ويستخدم كل راهب عكازاً يحمله أثناء الرحلات .

الأشغال أو المهن :

يعتبر العمل اليدوى جزءاً ضرورياً من حياة الرهبان المصريين سواء كانوا نساكاً أو مقيمين بالأديرة مع تفضيل نوعية العمل الذى يسمح بالتأمل ومع نمو التجمعات الرهبانية نماً أيضاً تخصص الرهبان فى الحرف المختلفة ويذكر بلاديوس أنه وجد فى دير واحد خمسة عشر ترزياً وسبعة حدادين وأربعة نجارين واثنى عشر قائداً للجمال وخمسة عشر قصاراً ، وفى موضع آخر يصور لنا بأكثر وضوح تنوع الأعمال فيصف لنا كيف أن أحد الرهبان يعمل فى الأرض كعامل زراعى وآخر يعمل بستانياً وآخر فى تشكيل المعادن وآخر كخباز وآخر فى ورشة النجارة وآخر فى المصبغة وآخر يصنع السلال الكبيرة وآخر المدبغة الخاصة بالجلود وآخر فى ورشة الأحذية وآخر فى المطبعة فى منتجات البوص وهم جميعاً يرددون من القلب نصوصاً من الكتاب المقدس .

ولكن توجد مهن معينة تشكل قاعدة لاقتصاد الأديرة من أهمها صنع السلال والحصير من خوص النخيل والسل ، وهناك العديد من التنويهات الأدبية التى تدور حول هذه الصنعة عندما حضر " الشبان الغرباء " إلى القديس مكاريوس وسألوه : " ما العمل الذى يؤدى هنا ؟ " ، قال لهم : " إنهم يعملون فى ضفر الخوص " ، وبعد ذلك قدم وصفاً لأصول ضفر الخوص والنسيج ، ثم وجههم للعمل فى صنع السلال ، وعندما زارت ميلانيا القديس بموا المشهور فى صحراء الإسقيط وجدته جالساً يضفر خوص النخيل ، وتحكى قصة أخرى عن أحد الأخوة الذى كان يعمل فى صنع السلال ولكن نفد منه إمداد الأيدى التى تركب فى السلال وعندما سمعه راهب آخر وهو يتحسر على هذا القصور أتى

لمساعدته بإعطائه ما كان موجوداً لديه من أيدى السلال المتوفر وهناك مراجع أخرى كثيرة تصف لنا انتشار هذه النوعية من العمل بين كافة أقسام الحركة الديرية .

وكانت حشائش وليف النخيل تستخدمان فى صناعة أخرى منتظمة وهى صناعة الحبال ، وقد وجدنا حبالاً ذات أطوال مختلفة فى دير القديس إبيفانيوس وكانت المادة الشائعة الاستخدام فى هذه الصنعة هى حشائش الحلفاء وقد وجدنا فى إحدى الحجرات فى سيليا اثنين من المقابض الفخارية موضوعة بزوايا متقابلة أمام الحائط ونستطيع اعتماداً على النصوص التى تصف عملية صناعة الحبال أن نقول أن تلك المقابض كانت تمثل جزءاً من العدة البسيطة الضرورية لهذه العملية .

أما الزراعة وفلاحة البساتين فقد كانت التجمعات الرهبانية ونصف الرهبانية تنظر إليها بقليل من الشك ولم تعتبر أعمالاً صالحة لممارسة الرهبان لأنها كفيلة بتحويل انتباه العقول عن التأمل المثمر ، ويبدو أن هذا النفور كان مشتركاً بين مؤسسات الأديرة الباخومية المبكرة ، ولكن ابتداء من عصر هورسيس أصبح هذا العمل أكثر قبولاً وأصبح لدى بعض الأديرة جراراتها الخاصة بها لاستخدامها فى الأراضى الزراعية بالرغم من أن الرهبان أنفسهم لم يشتغلوا بالزراعة . [٨]

الجانب الثقافى :

احتلت مصر بحضاراتها الغنية كاملة رغم تعرضها للغزو الحربى والفكرى والثقافى والحضارى والاجتماعى من كافة الشعوب التى وطئت أرضها بغية تسخير كافة طاقات الشعب المصرى لخدمتهم ، لكن مصر وشعبها الفخور بماضيه العظيم حيث تأصلت جذور الحضارة فى ترابه وازدهرت فوقه مدينته العريقة لم يمكن اقتلاع حضارته ا, تحويله عنها مهما اختلفت أو تنوعت المؤثرات الخارجية نظراً لتماسك الشعب المصرى واحتفاظه بتاريخه الحضارى بكل مقوماته عبر العصور .

وعندما بزغت شمس المسيحية على أرض مصر كان شعبها قد ورث عن أجداده الفراعنة براعة كبيرة فى علوم الطب والصيدلة والتشريح والكيمياء والهندسة والحساب والفلك وغيرها من العلوم والآداب واستمروا فى نبوغهم حتى بعد دخول العرب المسلمين أرض مص فاتحين وناشرين للدين الإسلامى الجديد .

وساهمت دراسة الإسكندرية المسيحية ورجالها المصريون الأقباط فى تخريج علماء وفلاسفة كبار عن طريق تدريس ما حفظته الأجيال وتطويره بما يلائم العصور التالية وذلك بما ورثوه عن القدماء من دراية وبراعة مشهودة . ولقد عمل قادة الكنيسة المصرية فى القرون الأولى للمسيحية على تأسيس الجامعة القبطية اللاهوتية على غرار جامعة الإسكندرية الوثنية .

وتطورت هذه الجامعة الوليد حتى أصبحت من أقوى جامعات العلم القديم حينذاك وكان باب التعلم فيها مفتوحاً للشعب من السادة والعبيد ومن الذكور والإناث (ويعد هذا أول نظام للتعليم المخلط عرفه التاريخ) بغض النظر عن الدين أو الجنس أو الثقافة .

وبذلك حطمت هذه الجامعة كل الفوارق الاجتماعية وفتحت أبوابها أيضاً للفلاسفة الوثنيين والهراطقة لكى ينهلوا من العلوم التى تدرس فيها . وعملت هذه الجامعة اللاهوتية على تعليم الدراسات الأخلاقية وتدريب الطلبة عليها تدريباً عملياً ، وكان المدرسون بها يمثلون قدوة صالحة لطلبتهم فى الحياة الفاضلة المثالية .

وبذلك قامت نهضة علمية وفكرية واسعة النطاق لا نظير لها فى أى بلد من بلدان العالم المثقف ، وصارت مصر مقصداً لكل راغب فى الدراسات العليا فى شتى المعارف والعلوم الدنيوية والدينية حتى أواخر القرن الرابع الميلادى حين أغلقت أبوابها بأمر الحاكم الرومانى . [٩]

التعليم فى مصر البيزنطية :

يعد الاهتمام بالتعليم صورة من الصور الحضارية الهامة ، وكان الاهتمام بالتعليم فى مصر باعتباره المصدر الرئيسى للتفكير ، وقد اقتصر التعليم فى العصر العلمى على أبناء الفئة الأرستقراطية فى المجتمع ، ثم زاد الإقبال على التعليم فى العصر البطلمى فشمل العناصر اليونانية والمتأغرقة فى الإسكندرية وعواصم الأقاليم الإدارية ، وفى العصر البيزنطى ضم التعليم أبناء الطبقة الأرستقراطية المصرية وكذلك أبناء الطبقة الوسطى فى عواصم الأقاليم حتى يتمكنوا من العمل فى الوظائف الإدارية فى الأقاليم .

وكان الأهالى يرسلون أبناءهم إلى المدارس ويقوم المدرسون بالتدريس مقابل الأجر الذى يتقاضونه من التلاميذ ، وكان التلميذ هو الذى يقوم باختيار أستاذه وكذلك كان المدرسون يقومون بالتجول فى المناطق التى يوجد بها تلاميذ أكثر وكان يشترط فى الأستاذ إجادة المادة التى يقوم بتدريسها فضلاً عن حسن السمعة والسلوك وتمتعه بأخلاق كريمة .

وتبدأ عملية التعليم بتعليم الطلاب القراءة والكتابة وهجاء الكلمات بالحروف الأبجدية ، وبعد إتمام هذه العملية وإتقانها يتعلم التلاميذ الكلمات المكونة من مقطعين ثم يقوم بنسخ مجموعة من النماذج ومطالعة النصوص .

ومن المواد الدراسية الأساسية قواعد النحو واللغة والرياضيات والتاريخ والجغرافيا وكانت الإلياذة لهريروس فى الأدب اليونان تعد من أهم الكتب الدراسية فى الأدب ، أما بالنسبة لخطابه والشروح والحكم والأخلاقيات فكان الاعتماد على خطب شيشرون كنماذج من الأدب الرومانى .

وبعد انتشار المسيحية فى مصر حلت الأناجيل والآداب الدينية واللاهوت محل هذه المواد التدريسية إلى حد كبير .

وفى المدارس المسيحية اشتهر كلمنت السكندرى وأوريجانوس ، وقد استخدم للكتابة فى هذه المدارس الألواح الخشبية والبردى وألواح مكسوة بالشمع ، والرق وبطبيعة الحال كان البردى أكثر شيوعاً حيث كان يزرع فى مصر .

وينتقل الطلاب بعد ذلك إلى مرحلة الثقافة العامة فى الجمنازيوم الذى يجمع فيه بين الثقافة العلمية والتربية الدينية ، ويشرف على التعليم فيه مشرف التعليم *Kosmetes* ، وكان هناك ميزة تقدم للطلاب فى الجمنازيوم وهى الإعفاء أو التخفيض لضريبة الرأس .

بعد إتمام تعليم الطالب فى الجمنازيوم يصبح من حقه استكمال تعليمه العالى فى المتحف *Mauseion* فى الإسكندرية ويعتبر المتحف بمثابة الجامعة وهو من المعالم الحضارية لمدينة الإسكندرية التى جعلتها قبلة للقادمين من كافة أنحاء العالم .

وقــــد اشـــــتهر المتحـــف بأنـــه مركـــزاً للبحـــث العلمـــى وكانـــت توجـــد بـــه القاعات البحثية لكل فرع من فروع المعرفة وأساتذة جاءوا من كافة أنحاء العالم اليونانى والرومانى ، وكان الطلبة يلتفون حولهم ويتعلمون على أيديهم ووجدت بالمتحف نفسه أماكن لإقامة هؤلاء الأساتذة وعندما يتم الطالب دراسته فى المتحف يصبح مؤهلاً علمياً للتدريس أو العمل فى وظائف أخرى .

وقد ساعد المتحف فى مهمته التعليمية وجود مكتبة الإسكندرية التى أنشأها بطليموس الأول ، ولما اكتظت بالكتب أنشأ بطليموس الثانى مكتبة السيرابيوم التى حوت ما يقرب من ٥٠٠.٠٠٠ مجلد وحين احترق جزء منها بسبب الحريق الذى نشب فى أسطول يوليوس قيصر فى الميناء قرر أنطونيوس تقديم التعويض لكليوباترة بعد ذلك بإهدائها ٢٠٠.٠٠٠ مجلد من مكتبة مدينة برغامة الشهيرة فى آسيا الصغرى ، وقد استمر للمكتبة أمناؤها من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصر الرومانى ، ولكن ==== أن يهتم الأباطرة والولاة بتنمية المكتبة كما كان يفعل البطالمة من قبل ولكن بقى للمكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بمعبد السرابيوم شهرتها وأيضاً المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد القيصرون .

هذا ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية فى الإسكندرية على الموسيون والمتكتبة بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يدرس بها العلماء وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن نسميه بجامعة الإسكندرية .

على أية حال فقد أصبح علماء الموسيون والمكتبة ومعاهد تدريبهم يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ، بينما نشأت مدارس جديدة منها ما كان من أجل دراسة الدين اليهودى دراسة فلسفية وأخرى لتدريس الدين المسيحى ومعارضة المدرسة الوثنية .

وقد اكتسبت هذه المدرسة مجداً وقوة على أيدى أساتذتها الكبار أمثال كليمنت السكندرى وأوريجانوس أعظم مفكرى المسيحية فى مصر .

وكانت محور الحركة الثقافية الدينية فى العصر البيزنطى هى مدرسى الإسكندرية اللاهوتية ومهمتها الرد على الفلاسفة الوثنيين وأتباعهم وحماية المسيحيين بما يثيرونه منهم من شكوك وتركزت

كل الاحتياجات الفكرية فى المدرسة اللاهوتية وتطورت هذه المدرسة بعد ذلك حتى أصبحت معدة لتزويد الطلاب بكل أنواع المعرفة سواء الدنيوية أو الكنسية .

وفى واقع الأمر لم تكن مدرسة الإسكندرية هى المدرسة اللاهوتية الوحيدة فى العالم المسيحى وإنما كانت هناك مدارس مسيحية أخرى ، ولكن لم تستطيع إحدى هذه المدارس الوصول إلى مثل ما وصلت إليه مدرسة الإسكندرية من نفوذ وتفوق فكان يأتى إليها الطلاب من مختلف البلدان المسيحية ، وكان مدير المدرسة يعتبر الثانى بعد البطريرك فى الإسكندرية وكثيراً ما اختير بطاركة الإسكندرية من بين مديرى هذه المدرسة اللاهوتية وقد تخرج كثير من أساقفة العالم المشهورين على أيديهم ، وظلوا على صلة بأساتذتهم السكندريين يستشيرونهم فى مشاكلهم ، ولذلك لقب بطريرك الإسكندرية بلقب قاضى المسيحية فى العالم ، وكانوا يعتبرون فى المجامع المسكونية حجة ومصدراً للتعليم الصحيح .

وهكذا عاشت المدرستان الفلسفية والمسيحية جنباً إلى جنب وأثرت كل منهما فى الأخرى ولكن اختلف الهدف من التعليم فى كل منهما ، وقد أدى التنافس بين المدرستين إلى نهضة وازدهار العلوم والفلسفة واللاهوت ، واضطرت المدرسة المسيحية أن تدخل فى برامجها التعليمية كل المواد التى تدريس فى المدرسة الفلسفية حتى لا يشعر الطلاب بأن نوعاً من الثقافة التى تمتاز به المدرسة الوثنية ينقصهم وحتى يتمكنوا من الرد على هجمات الفلاسفة والعلماء الوثنين

فأدخل كليمنت دراسة الفلسفة فى المدرسة المسيحية وأدخل إلى جانبها دراسة اللغات والبلاغة والشعر والمنطق والفنون والموسيقى والعلوم الطبيعية والهندسة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، كل هذه المواد وجد كليمنت لها علاقة بدراسة اللاهوت وسار خلفاء كليمنت على هذا النهج .

وقال خليفته فى رئاسة المدرسة " أوريجانوس " عن العلوم اليونانية يجب أن نستخدمها حتى نتمكن من فهم الكتاب المقدس لأنه ما دام الفلاسفة قد درجوا على القول بأن الهندسة والموسيقى والشعر والخطابة والفلك كلها علوم تؤدى بنا إلى دراسة الفلسفة إذا درست دراسة حقيقية تؤدى بنا إلى دراسة المسيحية .

ولم يكتف دور أساتذة المدرسة المسيحية بتدريس جميع هذه المعارف فحسب ، وإنما ساعدوا طلبتهم أيضاً على القراءة تحت إرشادهم فى كتابات شتى لكافة المؤلفين دون أن يمنعوهم عن شئ فكان الطلاب يطوفون بكل أنواع المعارف ويفحصونها ، وكذلك لم يرفض الأساتذة فى محاضراتهم مناقشة أى موضوع يسألون فيه . (١٠)

وأضاف الأساتذة إلى كل ما سبق دراسة الأخلاق وتدريب الطلبة عليها تدريباً عملياً وكان المدرسون يتحلون بكونهم قدرة حسنة لطلبتهم فى الحياة الفاضلة المثالية .

وهكذا كان من نتائج المنافسة بين المدرستين قيام نهضة علمية وفكرية واسعة لا نظير لها فى أى بلد آخر ، وأصبحت الإسكندرية بحق عاصمة العالم الثقافية سواء للمسيحيين أو لوثنيين وصار يقصدها كل راغب علم فى شتى العلوم الدنيوية والدينية .

وكانت أن نجحت المدرسة المسيحية على الرغم من عدم وجود بناء خاص بها ولا مكتبة خاصة تدعمها وإنما كان أساتذتها يلقون دروسهم فى منازلهم أو فى قاعات يستأجرونها لهذا الغرض ، بينما كان الطلبة والأساتذة يذهبون إلى مكتبة الإسكندرية العامة للقراءة والاضطلاع ولم تكن الدراسة فى هذه المدرسة محدودة بسنوات معينة .

ونتج عن هذه الدراسات قيام نهضة علمية فبرع المصريون فى الطب والتشريح والكيمياء والصيدلة والهندسة والفلك ، ومن الأسماء المشهورة هيروفيلاس مؤسس علم التشريح وديموكريتوس صاحب نظرية الذرة ، والعالم الماهر كرنيليوس كلسوس الذى وضع تذكرته الطبية الشهيرة لمنع تلف الأسنان ، وسرابيون السكندرى الذى تعمق فى دراسته عقاقير قدماء المصريين وقدمها للعصور المتتابعة فظلت مستعملة إلى القرن الثامن عشر .

وقد وضع مسيحو مصر فى الإسكندرية غالبية المصطلحات الطبية ومنها مثلاً كلمة *Medicina* عقاقير ، *Medica Mentus* دواء أو سم ، و *Apotheca* مخزن الدواء ، وأخذ عنهم العالم هذه المصطلحات التى ما تزال مستعملة ، وقد جذبت هذه الشهرة التى نالتها مصر فى الطب والصيدلية والكيمياء إليها العلماء من أقطار العالم للدراسة على أيدى أساتذتها أمثال

جالينوس العالم المشهور والذى زار مصر فى القرن الثانى الميلادى والذى نسبت إليه مجموعة العقاقير الجالينوسية المستعملة فى العالم الحديث ، وقد تتلمذ هذا العالم فى الإسكندرية وتعلم منها الطلب والصيدلة والفلسفة .

ووضع الأستاذ دوسن سنة ١٩٢٤م كتاباً عن تاريخ الطب عند الأقباط فى القرون الأولى للمسيحية وشرح بالإضافة إلى العقاقير أدوات الجراحة التى كانوا يستخدمونها ، وقد ظهر بحث للأستاذ " تل " فى العقاقير الطبية القبطية يتبين منه مدى تقدم المصريين فى الصيدلة والكيمياء .

وكان نبوغ الأقباط العلمى فى الحساب والرياضة أيضاً والدليل على ذلك توليهم الأعمال الحسابية والمالية والإدارية فى العصر الإسلامى ، ومن المعلمين الذين ذاع صيتهم فى التدريس وهرع الطلاب من أنحاء العالم لتتلمذ عليهم ثيون *Theon* وكان عالماً فى الرياضات وابنته هيباتيا التى كانت أستاذة فى الرياضيات والفلسفة كما سبق القول وكان من بين تلامذتها الذين تلقوا العلم على يديها القديس سيفروس وزكريا وتوماس من غزه وبارليوس من آسيا الصغرى وقد ذات صيت كثيرون من علماء الفلسفة المسيحية فى الإسكندرية أمثال حنافيلوبونس أى المحب للعمل سنة ٥٦٨م ، واشتغل بالفلسفة والنحو واللاهوت وقام بشرح فلسفة أرسطو وله تعليقات على تدريس علم المنطق وفلسفة وله كذلك مؤلفات وتصنيفات فى الرياضيات وقواعد اللغة اليونانية مما جعله يشتهر بالتفكير الحر والاستدلال المنطقى وحاول التوفيق بين آراء أرسطو والعقائد المسيحية من خلال كتاباته ورسائله الميتافيريقية المعروفة عن خلق العالم وخلود العالم ، كما أثار دهشة وثورة عند المسيحيين من خلال كتابه " الحكم " الذى أثار فيه نظرية الثالوث وأيضاً فى كتابه عن البعث .

وقد سار على نفس نهج فيلوبونس زميله " أسطفان " فى أواخر القرن السادس حيث اتبع نفس المنهج الفلسفى الأروسطى الذى جعله يقوم بثورة ضد المونوفيزيقية ولكنه استمع لتحذير بطريرك الإسكندرية له فتحول إلى المذهب الخلقدونى (الملكافى) وغادر مدينة الإسكندرية .

وكان العالم " هورا بللون " مصرياً من أحد أسر صعيد مصر وكان والده أستاذاً فى الإسكندرية من قبل ، وأن الكثير من أسرته كانوا يعملون بمهنة التدريس وهذا أكبر دليل على أن مهنة التعليم لم تقتصر على العلماء والمعلمين القادمين إلى الإسكندرية من الأجانب .

وإلى جانب هذا الكم من العلوم الثقافية فقد خرجت مدرسة الإسكندرية الأدباء والشعراء الذين برعوا فى جميع أنواع الشعر مثل الغنائى والسباعى والمرثيات ، ومما لا شك فيه أن هذه الأشعار تأثرت بأشعار هوميروس فى الإلياذة ، وبأسلوب شيشرون الخطابى ، وغلب على أشعارهم الطابع التعليمى لطلاب المدارس .

واشتهرت فى ذلك العصر أشعار ومسرحيات مينانر *Menandery* واشتهرت أيضاً مؤلفات هزيو *Hesidus* فى مصر طوال العصور اليونانية والرومانية والبيزنطية لكونها تعتمد على الناحية الأخلاقية والحكم وتصوير الصراع بين الخير والشر .

واشتهر الشاعر المصرى نونوس *Nonnus* والذى سبقت الإشارة إليه والذى ولد فى القرن الخامس الميلادى فى أخمنيم " بانوبوليس " ويعتبر خير ممثل لازدهار الحركة الفكرية والثقافية فى مصر آنذاك حيث أسس مدرسة أدبية فى بلده عرفت باسمه ، ويعد نونوس من شعراء الملامح ، ومن أشهر أعماله الملحمة المعروفة باسم ديونيسياكا *Dionysiaca* فقد وصف فيها رحلة الإله ديونيسيوس إلى الهند ، وامتاز شعره عما سبقوه بدقة أوزانه .

واشتهر المصريون بشهادة ايناب *Eunape* بولعهم بالشعر ، وربما من أجل ذلك لم يحفل المصريون بالكتب المتزنة وشغف المصريون أيضاً بالآداب الرومانتيكية ، كما يدل على ذلك كتابات أخيل تاتيوس وموزيه .

وقد خلقت المجادلات الدينية فى مصر البيزنطية والحوارات والمناقشات بين رجال الدين فى الكنائس نوعاً جديداً من الأدب هو الأدب الدينى والذى يطلق عليه الأدب القبطى لأنه اقتصر على الكتابة فى النواحى اللاهوتية وسير الأباء والكنيسة والقديسين والرهبان ، ولم يقتصر القصص فى الأدب القبطى على القصص الدينى ، بل وجدت آداب دنيوية على قدر كبير من الروعة وربما كان

لارتفاع أسعار ورق البردى أن قصر المسيحيون تدوين آدابهم على الأدب الدينى فقط ، وعلى الرغم من ذلك فقد وصلنا النذر اليسير من الأدب الدنيوى والذى كتب بلهجة صعيدية .

وتعتبر رواية قمبيز قصة أصلية كتبت بالقبطية تتضمن تأريخاً خيالياً بحتاً عن غزو مصر على يد قمبيز الذى كان ملكاً على الفرس

على أية حال فقد انقسم الأدب القبطى إلى قسمين ، القسم الأول : كان متأثراً بتأثيرات يونانية ، والقسم الثانى : أدب قبطى صميم مثل الذى ظهر فى كتابات القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس اللذين لم يعرفاً غير القبطية إلى جانب خطب ومواعظ القديس شنودة .

وقد حظيت كتابات آباء الكنيسة المصرية بشهرة كبيرة وعالمية ، وقد اهتم العالم اهتماماً كبيراً بالمخطوطات القبطية سواء المكتوبة أصلاً بالقبطية أو المترجمة إليها ، وامتلأت المتاحف والمكتبات العامة فى أوروبا وأمريكا بهذه المخطوطات وما بقى منها محفوظ فى مكتبة البطريركية ومكتبة المتحف القبطى بالقاهرة ومكتبات الأديرة والكنائس القديمة .

وقد جاء الأدب فى صورة أسلوب المغالاة والتضخيم ويحوى كثيراً من القصص الخيالى والمبالغة خاصة فى تناول سير القدسيين والشهداء وآباء الصحراء وكان هذا الأدب يكتب باللغة القبطية بأسلوب سهل بسيط ، ومن أشهر ما كتب قصة حياة القديس أنطونيوس التى كتبها القديس أثناسيوس وسيرة القديس مينا الذى استشهد زمن الإمبراطور دقلديانوس . [١١]

أما عن العلوم فى مصر أثناء حكم البيزنطيين ، ففى القرن الرابع الميلادى قام المسيحيون المصريون (منذ عصر الإمبراطور قنسطنطين) بتدمير الكثير من المعابد الوثنية وتحويلها إلى كنائس سواء برضاء السلطات الرسمية أو أمر منها ، ومنها قرار بإعادة بناء معبد القيصرون وتحويله إلى كنيسة بالإسكندرية .

وكان معبد السرابيوم فى الإسكندرية من أشهر معاقل الوثنية القديمة وكثيراً ما احتمى به الوثنيون ، لذلك قام الإسكندريون (عام ٣٨٥م) بتدمير المعبد والمكتبة الكبيرة التى كانت ملحقة به ، وفر أثناءها كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرفون على مدارس الإسكندرية .

وفى أوائل القرن الخامس الميلادى كثرت المدارس الفلسفية بالإسكندرية وكانت بمثابة مراكز للفرك الوثنى ومن أبرز شخصياتها الفكرية الأدبية كانت الفيلسوفة هيباثيا .

واهتمت الكنيسة بالإسكندرية – نتيجة تقسيم مصر وضعف الإدارة المركزية مما أدى إلى ارتفاع شأن الكنيسة – واضطلعت بالكثير من أمور الدولة ، إذ اهتم يوحنا بطريرك الإسكندرية فى مطلع القرن السابع الميلادى بشئون تموين المدينة وقت الأزمات الاقتصادية فاستورد القمح من الخارج على مراكب البطريركية ووزعه بين الناس كما كان لها مستشفيات لعلاج المرضى وبيوت لعلاج الغرباء واللاجئين

وبالنسبة لمدارس الإسكندرية وجامعتها ، فقد استمرت فى العصر البيزنطى مركزاً للعلم والثقافة يقصد إليها الدارسون من شتى الأقطار واستمرت بذلك هذه المدرسة الوثنية تتمتع بشهرة عالمية فى الفلسفة والرياضة والعلوم مما اضطر الكنيسة إلى أن تنشئ فى المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الوثنية وتنافسها ولتجتذب إلى المسيحية الشباب الجديد .

وكثيراً ما حضر الشباب إلى الإسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية (أى الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا إلى المسيحية بعد ذلك وخاصة فى القرنين الرابع والخامس ، ومثال ذلك القديس سيفيروس الذى جاء من أنطاكية وكان لا يزال وثنياً ودرس العلوم الوثنية فى الإسكندرية وهناك التقى بعدد من أعلام العصر مثل زكريا من غزة وتوماس الفيلسوف من غزة أيضاً ورينودوتوس من لسبوس وباراليوس من كاريا (آسيا الصغرى) ، ووقتها انقسم كل من الأساتذة والطلبة بين المدرستين الوثنية والمسيحية بسبب ما كان يحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة وخاصة عندما اعتنق باراليوس الدين المسيحى .

وكذلك بزغت ظاهرة أخرى جديدة بالملاحظة وهى أن العنصر المصرى ازداد انتشاراً فى الدوائر العلمية فى الإسكندرية إذ لم يعد علماء الإسكندرية مقصورين على مواطنى الإسكندرية أو الإغريق مثل الفيلسوف هورابوللو *Horapollo* الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية بالإسكندرية وهو من صعيد مصر ، وكانت مهنة التدريس وراثية شأن سائر المهن فى مصر إبان العصر البيزنطى .

وهكذا كانت للإسكندرية مكانتها كمركز للعلم والتعليم حتى ذلك الوقت (القرن الخامس الميلادى) ولم تزل منافساً قوياً لأثينا ، وظلت جامعة الإسكندرية القديمة تحتفظ بشهرتها العلمية العظيمة التى كانت تسندها مكتبتها الكبيرة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الإسكندرية ثيوفيلوس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الوثنيون من أجل القضاء عليهم نهائياً .

ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية وكذلك أحرق مكتبات المعابد الأخرى ، ولكن بعض الكتب القديمة نجت واستمرت الإسكندرية مركزاً للمعرفة والتعليم فى القرنين الخامس والسادس حتى الفتح العربى .

ولكن يبدو أن المكتبة الكبيرة المشهور انتهى تاريخها فى أيام اضطهاد ثيوفيلوس إذ لم يسمع أحد بأخبارها بعد ذلك ، وسمح العرب عند دخولهم مصر بأن يستمر التعليم القديم فى الإسكندرية إذ حضر يعقوب من أيديسا إلى الإسكندرية عام ٦٨٠م ليتم تعليمه فيها . وقد تم إنشاء العديد من المستشفيات العامة فى مصر خلال الحكم البيزنطى ومن أشهرها تلك التى كانت فى مدينة الإسكندرية والتى بنيت عام ٦١٠م بأمر من القديس يوحنا مانح الزكاة *St.Gohn the Almsgiver* وكانت تعالج الفقراء بلا مقابل . [١٢]

أثر الروح القومية :

ترتب على الفتح الرومانى لمصر أن صار سكان البلاد الأصليين يقلون منزلة ومكانة عن اليونانيين ، ولم يخف المستوطنون الرومان واليونانيون ما يكنونه من احتقار للعنصر الوطنى الذى لم يقيموا له وزناً ، واستمر الأمر على هذا النحو فى العصر البيزنطى ولذا لم تلق التماثيل والآثار المصرية شيئاً من إعجاب بروكوبيوس وجان الليدى *Lydien* فلم يريا فيها إلا مظهراً من مظاهر الإسراف والعبث ، وأمعن بعض الكتاب فى اتهام المصريين بالجهل وتجردهم من كل تفكير عميق .

على أنه حدث منذ القرن الثالث تطور بالغ الأهمية فى مكانة المصريين الذين ظلوا بفضل لغتهم يعتزون بشخصيتهم فظهر من جديد الأساس المصرى القديم إزاء الهلينية السكندرية ، ونبت أيضاً – حوالى ذلك الوقت – نفس الظاهرة فى سائر أنحاء الشرق فى الشام وفى إقليم الجزيرة وآسيا

الصغرى ، ولعل هذه الظاهرة انبعثت فى تلك الجهات بتأثير دولة الفرس التى جرى إحياؤها زمن الساسانيين ففى كل مكان انبعثت التقاليد القومية القديمة واقترنت بروح بالغة الكراهية والعداوة للهلينية .

انبعثت الروح القومية فى داخل مصر ولاسيما فى الوجه القبلى ، وما حدث من انتشار المسيحية بين السكان الوطنيين ، وما ترتب على ذلك من أنها وهبتهم الإحساس الشديد بمكانتهم وقوتهم شجع تلك الحركية القومية نظراً لما تكنه المسيحية من كراهية شديدة للوثنية اليونانية .

فالمعروف أنه جرى منذ البداية الدعوة إلى المسيحية بين العوام باللغة الوطنية ومنذ القرن الثالث الميلادى جرت ترجمة الكتب المقدسة إلى اللغة القبطية ، ومنذئذ نشأت الكتابة القبطية المؤلفة من حروف يونانية ، واكتملت بما أخذته عن الكتابة الديموطيقية من علامات .

ومنذ القرن الثالث أيضاً أخذ فى الظهور فن قومى هو الفن القبطى الذى أدخل فى المؤثرات الهلينية عوامل مصرية وعوامل شرقية .

وترتب على انتشار المسيحية فى مصر أن السكان الأصليين الذين تعرضوا للظلم والاستبداد والحرمان والذين يمثلهم الفلاحون والصناع وأرباب الحرف والذين لم يكن لهم زمن الرومان حق من الحقوق أدركوا ما كان لهم من أهمية وأحسوا بالدور الذى يصح أن يقوموا به فى بلادهم ، ذلك أن المصريين منذ زمن بعيد برغم خضوعهم واستكانتهم لحكم اليونانيين لم يخفوا ما يكنونه من كراهية واحتقار لليونانيين الذين يزورونهم ، والرومان الذين يعملون على تحطيمهم وتدميرهم ، وازداد إحساس المصريين بذاتيتهم فى العصر البيزنطى ، وأضحوا يشعرون بمكانتهم ودفعهم كبرياؤهم الجريح إلى أن يعلنوا شعورهم وسخطهم فصاروا فى القرن السادس الميلادى يرددون أنهم ينتمون إلى أقدم الأجناس البشرية وأعرق الأمم حضارة لما لبلادهم من الفضل فى اختراع الكتابة والهندسة وسائر العلوم .

وحرص المصريون على أن يعتبروا أن كل عمل مجيد فى العالم إنما صنعه أجدادهم فزعموا أم دقالديانوس وتيودوسيوس من المصريين وأن الإمبراطورة تيودورا ولدت بالإسكندرية ، بل ويعتقد كثير منهم أن المسيح لم يولد فى بيت لحم بل فى هراقليوبوليس بطيبة ، واعتبروا مصر أرض الله المختارة ، ويقولون أن سيمون (سمعان) البرقى الذى حمل صليب المسيح المخلص ويرمز بذلك إلى إخلاص

مصر للمسيح كان مصرياً نظراً لأن برقة كانت من توابع مصر . ولاشك أن لهذا الخيال دلالة ومغزى إذا على انبعاث العاطفة القومية عند المصريين الذين حرصوا على التمسك بتاريخهم القديم ولم يقبلوا الاندماج فى اليونانيين والرومان .

هذه هى صفة الإقليم يصادفه الإنسان إذا تجاوز الإسكندرية فيتراءى له عالم جديد يكاد يكون مغلقاً فى وجه الأجانب لا يربطه بالإمبراطورية البيزنطية التى تحكمه إلا صلات واهية . (١٣)

ويتضح من نصوص الكتاب المقدس التى جرت ترجمتها إلى لهجة الفيوم والتى تم العثور عليها فى أرسينوى أن جانباً كبيراً من السكان المسيحيين بها ، كان من العنصر المصرى على أن أسماء كثيرة أخرى تدل على وفرة عدد اليونانيين فى أرسينوى فكل البرديات الهامة التى اكتشفت بها ، كتبت باللغة اليونانية وتعتبر البهنسا *Oxyrhynchos* مدينة مسيحية أيضاً زخرت بالكنائس وغصت بها الأديرة وعثر بهذه المدينة على قطعة من البردى عبارة عن تقويم كنسى يرجع إلى القرن السادس الميلادى وتضمن التقويم قائمة بالأعياد الدينية التى يحتفل بها والكنائس القائمة ، واتخذت هذه الكنائس أسماء القديس سرينوس *Serenos* والقديس حنا الإنجيلى والقديس ميخائيل والقديس يوست *Just* والقديس ميناس والقديس فيكتور والقديس كوزما والقديس فيلوكسينوس والعذراء والشهداء ، فضلاً عن كنيسة فويبامون وكنيسة تنيانى ولاشك أنهما اتخذا اسميهما من أسماء أعيان المدينة .

وإلى جانب ما يؤدى عادة من صلوات يوم الأحد جرت أيضاً إقامة صلاة أخرى فى يوم السبت فى مواضع عديدة بالإسكندرية وغيرها من البلاد ، وصار أيضاً الاحتفال بأعياد أخرى تذكاراً لمولد المسيح وموالد القديسين ، وأورد التقويم ما لا يقل عن ١٣ صلاة تؤدى فى أثناء الشهر وفى ذلك دليل على نشاط الحياة الدينية بتلك المدن فى القرن السادس .

وعند مغادرة المدن لم نصادف فى القرى والريف إلا عنصراً مصرياً خالصاً يتمثل فى الفلاحين الذين اشتهروا وقتذاك بالقصور الفكرى وضيق الأفق ، ومعظم سكان الريف المصرى من المسيحيين غير أن المسيحية التى اعتنقوها كانت بالغة البساطة والسذاجة على أنهم تعصبوا لها وتعلقوا بها ، وازداد حماسهم لها ، وعلى الرغم من شدة تعلق هؤلاء السكان بعقيدتهم فإنهم لم يفهموا من أصول

الدين إلا قدراً ضئيلاً وأكثر ما أحبوه وشغفوا به ما تعلق منه بقصص القديسين والشهداء والرهبان ، وكان يروقهم أيضاً ذكر الغرائب والمعجزات والتصوف ، ومن الكتب التى أحبوها واعتزوا بها كتاب الراعى *Pasteur* الذى ألفه هرمياس *Hermias* والذى ترجم إلى اللغة القبطية.

وينبغى أن نذكر أنه لم يكن يحسن القراءة من سكان البلاد إلا فئة قليلة أما سائر الناس فقد اشتهروا بالتقوى والورع ، تعلقوا بما جاء إليهم من الإسكندرية من التعاليم الدينية ولم يكن فى وسعهم أن يدركوا ما إذا كان بطريرك من البطاركة وقع فى الهرطقة والإلحاد وحاد عن الطريق المستقيم فعلامة الإيمان الصادق عندهم تتمثل فى تقديس ما وضعه من التقاليد كبار البطاركة أمثال مرقص الإنجيلى وبطرس الإسكندرى الشهيد والقديسين أثناسيوس وتيوفيل وكيرلس وتيودوسيوس ولاشك أنهم لم يدركو تماماً طبيعة هذا التقليد الدينى إنما يكفى الانتماء إليه كيما تكون مسيحياً كاملاً وأرثوذكسياً صالحاً .

بقايا الوثنية :

وفى ثنايا تلك المسيحية الساذجة بقى كثير من الآثار الوثنية ففى أثناء ما يؤديه المسيحيون من عبادة للقديسين وحرصهم الشديد على أن يكتشفوا من الشخصيات النقية الصالحة ما يعبدونها من أجل قدرتها على إجراء المعجزات لم يغفلوا ما كان معروفاً فى الزمن الغابر من الشياطين وتطرق إليهم الخوف منها ويصح القول أن ما ظهر فى مصر قبل غيرها من البلاد من تقديس الأطلال والمخلفات الدينية ، نجم عن قصة أوزريس وعبادة ما تناثر من أعضاء جسده فالعوام المعروفون بسرعة التصديق اعتقدوا مثلما حدث قديما فى السحر وكل ما حدث من تغيير أنهم ابتهلوا إلى جيوفا السبؤتى *Sabaoth* مسر ، والمسيرح بدلاً من عبادة حورس وأبوللو ، وحملوا الأحجبة والتعاويذ مثلما كان معروفاً فى الزمن الغابر غير انهم صاروا يكتبون عليها آيات من الإنجيل والدعوات ، وكانوا يستخيرون الله ويسألونه المعجزات مثلما كانوا يفعلون مع الآلهة الوثنية ، ومن دعاء لأحد المؤمنين من سكان البهنسا " اللهم يا رب العزة والقوة ، يا الله ، يا قدوس ، يا صدوق يا أيها الخالق المنعم يا أبا سيدنا ومنقذنا المسيح عيسى ، اكشف لى عن الحقيقة التى لا تصدر إلا عنك وأرشدنى ما إذا كنتا تحب أن أتوجه إلى خيوط *Chiout* وأن ألتمس فيك رفيقاً يصحبنى ويحمينى .. آمين " .

وما جرى اكتشافه فى هيراقليوبوليس من تعويذه التف بها خيط أحمر تنطوى على هذا الدعاء : " اللهم يا رب العزة والقوة يا أبا سيدنا ومنقذنا المسيح عيسى ، ويا أيها القديس سيرنيوس أتوسل إليك أنا سيلوام بن صيرابيون *Silouam son of Serapion* وأنى الرأس إجلالاً وأتوسل إليك وابتهل أن تطرد عنى عبادك من الشياطين وأعوز بك من شر المرض ومن كل ضعف كما أصون صحتى " وتلى ذلك نص الدعاء الإنجيلى .

وفى الوثائق المصرية التى تعاصر هذه النصوص وترجع إلى القرن السادس الميلادى من عقود البيع والشراء وعقود العتق والوصايا وغيرها ما زخر بالصيغ المسيحية والتوسلات للقديسين والحكم المأثورة فضلاً عن آيات الإنجيل التى تجعل من الوثيقة القانونية عظة دينية خالصة .

ويضح الأثر القوى للمسيحية فى الرسائل الخاصة فيما انطوت عليه من الاحترام الشديد المرسل إليه والخضوع والخشوع من قبل المرسل ، ولم يكن ذلك فيما يبدو إلا دليلاً على التربية السليمة والتعليم الصحيح ولاشك أن الرسائل الخاصة إنما جرت وفقاً لنماذج أعدت لذلك الغرض غير أن ذلك التدين الشديد لم يوقف استمرار ما تبقى من العقائد الوثنية وتغلغلها دون إحساس أو شعور إذ أن تقديم القربان لأشبه بما كان يقدم للإله سيرابيس من الطعام ويماثله فيما له من الفضائل .

أما فكرة الحياة الآخرة ويوم الحساب فإن كثيراً من الناس تصوروا المسيح مثلما تصوروا من قبل أوزريس ، ولذا ورد القول المأثور " ومن الشهداء " الذين لقوا حتفهم فى سبيل عقيدتهم وإيمانهم بالمسيح عدد كبير آمن دون أن يعلم بأوزريس ومات فى سبيله " .

على أن هذه المسيحية الشكلية اقترنت بشعور وطنى عميق وهذه الحقيقة تشير إلى أن فكرة القومية المصرية لم تتضح فى عصر من عصور التاريخ مثلما وضحت فى العصر البيزنطى ، ففى وثيقة هامة ترجع إلى نهاية القرن الخامس كتبها هورابوللون الفيلسوف الإسكندرى يتردد ذكر العبارات " وطننا ، والأرض مسقط رءوسنا " وما تكرر فى آداب القرنين الرابع والخامس من الإشارة إلى لفظة وطنى ====== *(Patrios)* يدل على كل ما هو وطنى (قومى) ن من العلوم والعادات والديانة وذلك

للتفرقة بينه وبين ما هو وارد من الخارج أى من العالم اليونانى ، وكره المصريون السيادة اليونانية والحضارة اليونانية وهذا هو السر فى أن المسيحية لم تلبث أن اتخذت عندهم صورة معارضة سياسية . (١٤)

هوامش الفصل السادس

(١) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٠٨ –٢١٢

- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٦٥ – ١٧١.
- كرمب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ، مراجعة محمد بدران ود زيادة ، جـ ١ ، ص ٥٠ – ٧٥ .

(٢) محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢١٢ – ٢١٦ .

- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ١٧٢ – ١٨٦ .

عن دور المرأة فى مصر البيزنطية انظر :

- سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٧٣ – ١٩٤ .

(٣) السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٦٦ – ٢٦٩ .

- محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٢٥ – ٢٦٩ .
- مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى ، ص ٢٣ – ٢٨ ، ٩٦.

وعن مدينة الإسكندرية انظر الأبحاث المنشورة فى كتاب : سواحل مصر الشمالية عبر العصور ، أعمال القدرة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار ، إعداد : د. عبد العظيم رمضان ، تاريخ المصريين ، عدد رقم ٢٠٠

(٤) محمد عثمان عبد الجليل : الرهبنة النسائية فى مصر البيزنطية من القرن الرابع حتى السابع الميلادى ، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب بقنا ، العدد العاشر ، سنة ٢٠٠٠ ، ص ٣٤٩ – ٣٥١

- رؤوف حبيب : الرهبنة الديرية ، ص١٧٠ .
- جورج نسيم : المواقع الأثرية للأديرة الباخومية ، ص ٩١ .
- ابن المقفع : تاريخ البطاركة ، إعداد الأنبا صوئيل ، دار النعام للطباعة .

(٥) والترز (ن ، ك) : الأديرة الثرية فى مصر ، ترجمة / إبراهيم سلامة إبراهيم ، (القاهرة : ٢٠٠٥) ، ص ٣٠٥ – ٣٠٧ .

(٦) والتزر (ن ، ك) : المرجع السابق ، ص ٣١١ – ٣١٢ .

(٧) والتزر (ن ، ك) : المرجع السابق ، ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

(٨) والتزر (ن ، ك) : المرجع السابق ، ص ٣٢٢ – ٣٢٦ .

(٩) سمير يحيى الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٩٩ ، (القاهرة : ١٩٩٧) ، ص ٥٢٥ ، ٥٢٦ .

(١٠) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٩٦ – ١٩٩ .

- السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٦٩ –٢٧٧ .
- سمير يحى الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ٢ ، ص٥٢٩ –٥٣٦.

(١١) سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٢٠٢–٢٠٣ .

- السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٧٧ – ٢٨٨ .
- سمير يحى الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ص ٥٣٦ – ٥٤٤ .

(١٢) سمير يحيى الجمال : تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ص ٥٤٥ – ٥٤٧ .

(١٣) السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٩٣ – ٢٩٥ .

(١٤) السيد الباز العرينى : تاريخ مصر البيزنطية ، ص ٢٩٦ – ٣٠٠ .

تدريبات على الفصل السادس

س: اكتب مذكرات تاريخية عن

١- مكانة المرأة في المجتمع البيزنطي

٢- الحياة الثقافية في مصر البيزنطية

الفصل السابع
الفتح العربى لمصر

أهداف الفصل السابع

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على :

١- مكانة مصر عند الرومان والبيزنطيين

٢- الغزو الفارسي لمصر

٣- ظهور الإسلام .

٤- الفتح الإسلامي لمصر

مكانة مصر عند الرومان والبيزنطيين

و أنا سألنا أياً من الأباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالإمبراطورية لأجاب على الفور : القمح والنقود " .

بهذه العبارة البليغة يصف المؤرخ " جونز " *A.H.M.Jones* طبيعة العلاقة الوثيقة بين مصر والإمبراطورية الرومانية سواء عندما كانت روما القديمة على ضفاف التيبر هى حاضرة الرومان ، أو بعدما انتقلت إلى روما الجديدة " القسطنطينية " على شطآن البسفور ، وهذه حقيقة نلمسها فى الوثائق

الرسمية المعاصرة ، وكتابات مؤرخى ذلك الزمان ، فقد أصدر تيبريوس يوليوس إسكندر *Tiberius Julius Alexander* والى مصر فى السادس من يوليه عام ٦٨ للميلاد منشوراً جاء فيه " إننى مهتم اهتماماً شديداً بأن تظل الحال فى مصر هادئة حتى تسهم بنشاط فى التموين السنوى وفى الرخاء العظيم للعصر الراهن " ، بينما يذكر تاكيتوس *Tacitus* أن أوغسطس أوكتافيانوس عزل مصر مخافة أن يحتلها أحد فيهصر إيطاليا بمجاعة ، ويعلل ذلك إلى جانب السباب العسكرية بأن مصر غنية بالقمح ، وقد تحقق هذا بصورة عملية عندما زحف فغسباسيانوس *Flavius Vespasianus* عام ٦٩ إلى الإسكندرية بسرعة عقب انكسار جيوش منافسه على العرش فيتلليوس *Vitellius* وذلك حتى يرهق روما بالمجاعة لاحتياجها إلى الموارد الأجنبية .

ويقر الخطيب الرومانى الأشهر بلينيوس *Plinius* هذا الأمر بقوله صراحة أن مدينتنا (روما) لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تقيم أودها دون ثروة مصر *(Urbem nostram nisi opibus Aegypti ali sustentarique non posse)* وينوه المؤرخ ديون كاسيوس *Dio Cassius* بثروة مصر ووفرة قمحها ، ويقول يوسيفوس *Josephus* أنه فضلاً عن الأموال التى تمد مصر روما فإنها تعد أقيم جزء فى الإمبراطورية بسبب القمح الذى تمونها به .

وبمرور الزمن راحت أهمية مصر الاقتصادية تزداد بالنسبة للإمبراطورية ، وبالتالى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، ولدينا من النصوص الباقية من القرن الرابع الميلادى ما يؤكد ذلك ففى ثلاثينيات ذلك القرن وإبان اشتداد الصراع العقيدى بين الميسحيين وأنفسهم حول ولادة " المسيح " و " خلقه " و " مساواته " فى الجوهر مع الآب أو " مشابهته " وظهور " النيقية " و " الآريوسية " وحيرة الإمبراطورقسطنطين العظيم *Constantinus-I* (٣٠٦-٣٣٧) بين هؤلاء وأولئك بلوغاً إلى تحقيق أولى قواعد الفكر السياسى الرومانى القاضية بسيادة الإمبراطورية المطلقة ، أقدم هذا الإمبراطور على إصدار قراره بنفى اثناسيوس *Athanasius* الأسقف السكندرى (٣٢٨-٣٧٣) إلى غالى عام ٣٣٥ فور سماعه بأنه يحاول إحداث مجاعة فى العاصمة الجديدة للإمبراطورية القسطنطينية ، فقد تلقى قسطنطين أنباء تفيد بأن أثناسيوس قد هدد بمنع وصول شحنة القمح من الإسكندرية إلى القسطنطينية

، ويقول الأسقف السكندرى عن ذلك بنفسه " اشتعل على الفور غيظ الإمبراطور واشتد حنقه وأمر بنفيى إلى غالة دون أن يسمع منى دفاعاً " والأسقف يعبر بذلك أصدق تعبير عما كان يختلج فى صدر الإمبراطور فنحن الآن فى عام ٣٣٥ ولم يكن قد مضى على تدشين العاصمة الجديدة أكثر من خمسة أعوام فقط ، ولم يكن قسطنطين ليسمح لأحد مهما تكن منزلته أن يصيب العاصمة بمجاعة قد تؤدى بل لابد مؤديه إلى ثورة شعبية عارمة لا تعرف عواقبها ، ومن هنا لم يحاول الإمبراطور حتى التحقق من صدق هذا الاتهام من عدمه ونفى الأسقف على الفور .

لقد كان على مصر أن تقدم للقسطنطينية سنوياً ما يتراوح بين ثمانية وتسعة ملايين أردب من القمح ، هذا إلى جانب الجزء الخاص من مرتبات موظفى الإدارة الرومانية العاملين فى مصر والذى كان يدفع عيناً أى من القمح ، لذا ليس غريباً أن يكون هناك جهاز خاص بالقمح يعرف بـ " إدارة الميرة " يتولى متابعة المحصول منذ جنيه حتى وصوله إلى العاصمة الإمبراطورية ، وأن يحظى هذا الجهاز بعناية خاصة وفائقة على عهد الإمبراطور جوستنيان *Justiniauns* (٥٢٧-٥٦٥) الذى كان يعنيه فى المقام الأول أن يؤمن حاضرة ملكه من أية اضطرابات ناتجة عن نقص المؤن أثناء انشغاله الكامل بحروبه الاستردادية فى الغرب وأن يوفر لخزانته الأموال اللازمة لاستمرار هذه الحروب ، وليس غريباً أيضاً أن يظل هذا الاهتمام بقمح مصر دين أباطرة بيزنطة حتى القرن السابع الميلادى عندما دخلها العرب فاتحين وضموها إلى سلطانهم لتفقد الإمبراطورية بذلك – على حد قول شارل ديل *Charles Diehl* – قبو الحنطة الذى لا ينضب له معين .

لهذا ... ولأهمية مصر العسكرية بحكم موقعها الاستراتيجى الممتاز اختلفت نظرة الأباطرة الرومان تجاه مصر عن تلك التى نظر بها إلى قريناتها من الولايات الرومانية الأخرى ، وكان هذا باعثاً قوياً لاختلاف آراء المؤرخين حول وضع مصر الفريد داخل الإمبراطورية الرومانية ، فنتيجة للهزيمة التى لحقت بالملكة كليوبترا السابعة *Cleopatra-VII* (٦٩-٣٠ق.م) آخر ملوك البطالمة فى مصر ، والقنصل الرومانى ماركوس أنطونيوس *Marcus Antonius* (٨٢-٣٠ق.م) فى موقعة أكتيوم (٣١ق.م) على يد زميله أوكتاقيانوس أوغسطس *Octavianus Augustus* (٦٣ق.م -١٤م) أمست

مصر على هذا النحو ولاية رومانية وإن كان تعبير ولاية لم يلق القبول من جانب نفر من الدارسين الذين استندوا إلى عدد من الحقائق كان فى مقدمتها العبارة التى وردت على لسان أوكتافيانوس والمدونة فى السجلات الرسمية متمثلة فيما يعرف بـ " أثر أنقرة " *Monumentum Ancuyranum* والتى تقول " ضممت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى " . [١]

الفتح الفارسى لمصر :

وفى تلك الأثناء كانت الإمبراطورية البيزنطية تمر بحالة بالغة الضعف وفى حالة يرثى لها ، فقد سادتها الفوضى والفتن والاضطرابات وكادت خزائنها أن تكون خاوية من المال ، وفى أوائل القرن السابع الميلادى تدفقت جموع كبيرة من الصقالبة والآثار فى أنحاء شبه جزيرة البلقان واجتاحت جيوش الفرس الساسانيين كثيراً من أراضيها ، وأخذوا يتوغلون فى الشرق الأدنى ، وتطلعت فارس إلى انتزاع الشام ومصر من الإمبراطورية البيزنطية لتحقق لنفسها الزعامة الاقتصادية والتجارية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، فبعد أن استولى الفرس على أنطاكية التى تعتبر من أكبر المدن فى الأقاليم الشرقية للإمبراطورية فى سنة ٦١٣م زحفوا جنوباً خلال سوريا وفلسطين واستولوا على بيت المقدس بعد حصار استمر ثلاث أسابيع فى سنة ٦١٥هـ وجعلوا المدينة نهباً للحرائق والقتل ثم أخذ الفرس الطريق المألوف لغزو مصر أغنى ولاية فى الإمبراطورية البيزنطية فى خريف سنة ٦١٦م فاستولوا على الفرما (بيلزيوم) ثم اخترقوا الجانب الشرقى من الدلتا إلى بابليون ، ويبدو أنهم لم تقابلهم أية مقاومة خطيرة ، حتى وصلوا إلى أسوار مدينة الإسكندرية ، وقد ظلوا هناك بضعة شهور خربوا خلالها الأماكن المحيطة بالمدينة وأعملوا فيها النهب والسلب ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها لمناعتها وحصانتها ، على أن جماعة من الفرس نجحت بمساعدة خائن فى الاستيلاء على أبواب المدينة ليلاً فانسحب الوالى والبطريك الملكانى يوحنا (المتصدق) بعد أن أدركا استحالة وصول أى مساعدات من القسطنطينية ، وقد ذبح الفرس الكثير من الأهالى ونهبوا المدينة ، وفى أماكن أخرى من مصر العليا أحدث الفرس مذابح مشابهة فى الأهالى أثناء صعودهم فى النيل ، وبعد أن وضع الفرس أيديهم على

مصر كلها يبدو أنهم تبنوا سياسة دينية أكثر تسامحاً وسمحوا للبطريرك المونوفيزيتى أندرونيقوس بالإقامة فى الإسكندرية وهى المرة الأولى منذ زمن طويل سمح فيها للبطريرك المونوفيزيتى بالبقاء فى تلك المدينة .

وبعد موت البطريرك أندرونيقوس فى سنة ٦٢٣ انتخب بنيامين خلفاً له ، وكان بنيامين راهباً مصرياً ينتمى إلى أسرة قبطية ثرية من قرية فرشوط بالصعيد ، وقد ظل نحو أربعين سنة يوجه إدارة الكنيسة المونوفيزتية فى أحوال وظروف بالغة التغيير .

وقد دام الحكم الفارسى فى مصر حوالى عشرة أعوام إلى أن نجحت حملات الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١) فى دخول فارس نفسها سنة ٦٢٨ وإجبار القوات الفارسية على الانسحاب من بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر ، وبذلك عادت مصر إلى السيطرة البيزنطية . [٢]

أحوال مصر قبيل الفتح العربى لمصر :

مما لاشك فيه أن المحنة التى تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية من غزو الفرس لأراضيها واستيلائهم على الإسكندرية وباقى إقليم مصر ، ثم حشدهم الأسطول من الإسكندرية للمهاجمة القسطنطينية ، وهجوم الآفار عليها فى نفس الوقت تعد من أشد المحن وأقصاها على بيزنطة ، ولكنها أثبتت مقدرتها البحرية واستطاعت الصمود أمام الغزو الفارسى وأرغمتهم على الفرار بعد أن هلك نحو أربعة آلاف مقاتل بسفنهم وتكاتف الكنيسة وعلى رأسها البطريرك سرجيوس مع الإمبراطور هرقل من أجل الدفاع عن الإمبراطورية ، وقام البطريرك بتدبير المال اللازم من أجل إعداد حملة لمحاربة الفرس والقضاء عليهم فأقرضت الكنيسة الدولة من ثروتها من التحف الذهبية والقضية ، حيث قامت بسكها نقوداً واعتبرت حربها ضد الفرس حرباً ضد الكفار (حرباً صليبية) لاسترداد بيت المقدس والصليب المقدس من يد الفرس .

بدا هذا الاتحاد بين الكنيسة والدولة من أجل هدف واحد خرج الإمبراطور هرقل إلى حربه المقدسة تاركاً القسطنطينية فى ٤ أبريل سنة ٦٢٢م وعهد بأبنه إلى البطريرك واستغرقت الحرب فترة من الزمن قضاها هرقل خارج بلاده وانتهت بانتصاره فى معركة نينوى فى ديسمبر ٦٢٧م وأعلن

استعداده لمفاوضة الفرس فى أمر الصلح لكن كسرى الثانى رفض الصلح واستعد هرقل لمواصلة القتال لكن الموت المفاجئ للملك الفارسى كسرى الثانى أنهى الأمر ، حيث تولى ابنه كافاد شيرويه الحكم وعرض الصلح على هرقل فقبله ، وتم استرجاع صليب الصلبوت (الصليب المقدس) والجلاء عن الأراضى التى احتلتها الجيوش الفارسية وعادت الحدود البيزنطية إلى ما كانت عليه فى معاهدة ٥٩١م .

وهكذا انتهت الحرب ضد الفرس ونتج عنها جلاء الفرس عن مصر وعمل الإمبراطور هرقل كل جهده من أجل التوفيق بين المذاهب الدينية بين الخلقدونى ومونوفيزين والنسطورى ، وكان البطريرك سرجيوزس من أصل سورى ، وكان يوافق الإمبراطور فى رأيه وهو صاحب الصورة النهائية للمذهب التوفيقى الذى كان أهم ما جاء به أن يمتنع الناس عن الحديث فى موضوع طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، فلا يتم الخوض فيما كان له من صفة واحدة أو صفتان ، والأهم من ذلك هو أن يشهدوا جميعاً أن للمسيح عليه السلام إرادة واحدة وفعل واحد (قضاء واحد) ، فكان أن توحدت الكنيسة الخلقدونية بكنيسة أرمينيا ، ودعا هرقل كيرس أسقف فاسيس فى لازيقاء إلى مذهبه الجديد فوجد منه قبولاً ، وفى نفس الوقت عرض أثناسيوس أن يكون بطريركاً فى أنطاكية بشرط أن يقر ما أقره مجمع خلقدونية وأن يأخذ برأى الموحدين (المونوياتيين) وقد اجتمع الرؤساء الثلاثة بالإمبراطور فى هيرلابوليس بالشام وأقراوا المذهب التوفيقى .

من المحتمل أن يكون الوفاق (المذهب التوفيقى) قد صدر فى سنة ٦٢٢م وأعقبه ولاية كيرس بطريركية الإسكندرية ، وقد أمره الإمبراطور هرقل أن يجمع بين المذهبين المنوفيزتى والخقدونى فى المذهب الجديد (التوفيقى) ومنحه سلطات مدينة واسعة إلى جانب سلطاته الدينية .

ومن المعروف أن البطريرك بنيامين كان على راس الكنيسة المونوفيزتية فى الإسكندرية منذ ٦٢٣م ، واشتهر بما كان له من سلطان قوى ونفوذ كبير على الأهالى بما بذله من جهد صادق لإعادة تنظيم الكنيسة المصرية ، ومما لا شك فيه أنه قد عمل جاهداً على وحدة الكنيسة المصرية وإعادة الاطمئنان إليها بعد ما مر بها من أحداث سياسية ، وكان من نتيجة جهوده المستمرة من أجل ذلك أن

أحبه المصريون وقدروه وأجلوه ، وكانت مدة بطريركته من أكثر العهود قوة ، ومع هذا فلم يكن يتسامح فى الأمور الدينية أو يتساهل ولم يتغاضى عن الرذائل الخلقية فكان يأخذ القساوسة بالشدة إذا ارتكبوا الرذائل وحرص أيضاً على انتزاع الشرور التى كانت فى بعض المواضع بسبب الحرب ، وقد قضى بنيامين أربع سنوات فى هدوء فى ظل الحكم الفارسى بالإسكندرية وشهد كذلك جلاء الفرس بعد انتصار هرقل ، وتم تنفيذ بنود المعاهدة بين الفرس وهرقل ، وعاد إلى مصر الأسرى المصريون وأرسل هرقل جيشاً بطريق البحر لاحتلال مصر من جديد ولاستعادة أملاك الدولة البيزنطية من فلسكين حتى بنتابوليس . [٣]

البطريك قيرس :

بعد أن انتهى هرقل من حروبه مع الفرس وجه عنايته إلى المشكلة الدينية المزمنة التى بلغت ذروتها فى عهده ، وقد دفعه إلى ذلك اعتقاده أن انتصاره السياسى على الفرس سيساعده على تدعيم الإمبراطورية وتحقيق الوحدة الدينية ، فتبنى فكرة المشيئة الواحدة أو الإدارة الواحدة التى تقول أن للمسيح فى الواقع طبيعتين ولكن له إرادة واحدة ، وهو المذهب الذى عرف باسم المونوثيليتية *Monothtesm* أى مذهب الإرادة الواحدة ، وقد أيد سرجيوس بطريرك الإسكندرية هذا المذهب ، ودخل فى مفاوضات مع الكنائس الشرقية بفرض التوفيق بين مذهب الطبيعة الواحدة وأصحاب مذهب الطبيعتين غير أن المذهب المونوثيليتى لم يوافق عليه من أى جانب بل أدى إلى مزيد من السخط والهياج .

وعندئذ عين هرقل فى سنة ٦٣١ بطريركاً على الإسكندرية وحاكماً أغسطسا (واليا رومانيا) *Augustal Prefect* على مصر فى نفس الوقت وهو أسقف يدعى قيرس *Cyrus* ويعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس أى أنه أسند الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد ليكون قادراً على قهر الأقباط وهو من الذين اعتنقوا مذهب الإرادة الواحدة .

ولم يكد يصل قيصر إلى الإسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ حتى هرب البطريرك بنيامين ولكنه قبل هروبه عقد مجمعاً بالإسكندرية شهده القسس والرعية وألقى فيهم خطاباً يحضهم فيه على أن يثبتوا

على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت ، ثم كتب إلى أساقفته جميعاً يأمرهم بالهجرة إلى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه وأنبأهم أن البلاد سيحل بها الوبال وأنهم سيلقون الظلم والعسف عشر سنين ثم يرفع عنهم ، ثم تسلل بنيامين فى كنف الليل إلى صعيد مصر سائراً على جانب الصحراء إلى أن بلغ مدينة قوص ولاذ هناك بدير صغير بالصحراء غير بعيد عن تلك المدينة .

أما قيرس فقد أخذ يشرح للمصريين فى الإسكندرية المذهب المونزثليتى على أنه لم يلق منذ البداية التوفيق وكان نصيبه الفشل الذريع ومن ثم أخذ يضطهدهم اضطهاداً رهيباً استمر عشر سنوات ، وتشير الروايات إلى أن أعمال الاضطهاد والتعذيب لم تنل من إيمان المصريين من ذلك ما حدث لمينا شقيق البطريرك بنيامين ، فقد تعرض للتعذيب بأن أوقدت المشاعل وسلطت ناراً على جسمه فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبه على الأرض ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه فخلعت أسنانه ثم وضعوه فى كيس مملوء بالرمل وحمل فى البحر وأخذوا يعرضون عليه الحياة إذ هو آمن بما أقره مجمع خلقيدونيـــة فعلـــوا ذلـــك ثلاثـــاً وهـــو يـــرفض فـــى كـــل مـــرة فرمـــوا بـــه فـــى البحـــر فمات غرقاً .

وحاول الإمبراطور هرقل أن يفرض سياسة التوفيق بأن أوعز لسرجيوس بطريرك القسطنطينية بأن يحصل من بابا روما هونوريسو الأول (٦٣٨-٦٢٥) على إقرار صيغة للتوفيق يستطيع بمقتضاها أن يحمل المونوفيزظيتون المصرين على قبولها واقترح سرجيوس على البابا أن يقبل المونوثوليتية أى مذهب الإرادة الواحدة ووافق البابا على الصيغة التى اقترحها سرجيوس فى المرسوم الذى عرف باسم الإيكثيسيز *Ecthesis* سنة ٦٣٨ ولكن خلفاء البابا حاربوه بقوة .

ولاشك أن تعيين قيرس بطريركاً وحاكماً على الإسكندرية أتى على مصر بكارثة ذلك أن الاضطهادات العنيفة التى أنزلها بالمونوفيزيتيين فى مصر وعارضوها بشدة أثبتت ضعف مصر فى وقت الأزمات ، وأجمعت مصر كلها على قطع علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية قبل مجيئ العرب إلى مصر ، ويقول المؤرخ ميخائيل السريانى : " لم يسمع الإمبراطور لكنيستنا المونوفيزتية بالظهور فى أيامه ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهبت ، ولهذا فقد انتقم الرب منه .. لقد

نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة ، واتهمونا دون شفقة ، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدى الرومان ، وتركنا العرب نمارس عقيدتنا بحرية وعشنا فى سلام " . (٤)

ظهور الإسلام :

وإبان الصراع بين فارس وبيزنطة الذى يقتتل فيه الجانبان من أجل السيادة وحق تائه وترتوى البيد بدماء الطامعين ودم الآثمين ، كانت الجزيرة العربية تشهد صراعاً آخر من أجل الإنسان ، جرى فى العقل بين سمو الفكر ومعتقد الهوى يفيق بنى البشر من دونية سكروا بها ثمالة وتجرعوا راحها باللاعقل يحسبونه العقل كله ، ويهدى إلى الرشد الجميع على طريق الإله الأحد .

فى شبه جزيرة العرب وعلى جبل النور فى مكة سنة ٦١٠ للميلاد هبطت رسالة السماء دين الإسلام على قلب محمد بن عبد الله من بنى هاشم ليبشر بها الناس كافة وينذر بالإله الأكرم الذى خلق الإنسان وعلم ، فأسر بها إلى البعض فآمن به البعض غير أن الآبقين عن طريق الواحدية آذوه وناسه ونالوا منهم ولكن الأذى ما زاد القلة إلا إيماناً وتسليماً وتلقى الأمر .. أن أصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين فجهر بالدعوة فأهنها دعاة الوثنية حرباً لا هوادة فيها واستعذب المؤمنون الآلام ، ونالوا الشهادة وأنكر الرسول الشمس والقمر عن يمينه ويساره سلطانا فى سبيل الإله الواحد حباً وعرفاناً وهاجر المسلمون إلى الأقربين مودة ، إلى المسيحيين فى الحبشة وسار محمد صلى الله عليه وسلم رحلة العذاب إلى الطائف وعاد وتسمع قريش القرآن ولا تنكره ، وتتسمع محمداً ولا تمقته ، إنه أمين مكن فى جاهليتها ، ولكنهم يأبون ما جاءهم به من الحق والمساواة ، ويحدث القرآن " **قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** " .

هو الجحود إذن ..ز ولا يجتمع الجحود والحق فى دار .. فخرج الرسول من مكة سنة ٦٢٢ مهاجراً إلى يثرب ، وهناك نصره أهلوها فآخر بين المهاجرين والأنصار ، وأقام قاعدة دولة إسلامية وسامح أهل الكتاب من بنى يهود وأمنهم على العقيدة والديار .. فخانوه .. فأمكنه الله منهم وأظهره عليهم وطهر من أدرانهم الجزيرة .

وجاءته قريش والأحزاب من بعدها ، وكانت بدر وانتصر المسلمون وجاءت أحد وتعلم منها المسلمون ، وحفرت الخندق .. وردت الأحزاب بغيظها لم تنل خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وقد كتب عليهم القتالى وهو كره لهم ، ولكن أذن لهم أن يقاتلوا لأنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، واشتد بهم الشوق والحنين إلى مراتع الصبا وذكرى الشباب وبيت أبيهم إبراهيم فخرجوا بعد ست سنوات قاصدين مكة والبيت الحرام .. فحالت قريش بينهم وبين ما يبتغون وارتضى المسلمون السلام وكان صلح الحديبية .

هكذا هدأت الأحوال أو كادت فى شبه الجزيرة العربية ، وأقدم الرسول بعد ذلك على إكمال رسالته فالإسلام دعوة عالمية جاءت للناس كافة ، ومن ثم راح يبعث رسله إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية وداخلها .. هرقل قيصر الروم ، وكسرى فارس ، والحارث الغسانى ، والحارث الحميرى ملك اليمن ، ونجاشى الحبشة ، وقيرس النائب الإمبراطورى فى مصر ، وملوك عمان واليمامة والبحرين ، وكانت صورة هذه الرسائل تكاد تتشابه فيما بينهما ، نقف عليها مما جاء فى كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل .

" بسم الله الرحمن الرحيم ... من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد .. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين .. فإن توليت فإنما عليك اثم الأريسيين ، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون "

وكان هرقل قد عاد لتوه من انتصاراته على فارس وأتاه هذا الكتاب وهو فى حمص ، وفى الوقت ذاته بعث الحارث الغسانى إلى الإمبراطور يخبره أن رسولاً جاءه بكتاب مماثل .

وعلى الرغم من أن هرقل ورجال دولته لم يكونوا يقدرون القيمة والقوة الحقيقية لهذه الدعوة الجديدة إلى الحد الذى نظر فيه القادة العسكريون فى بيزنطة إلى غزوة مؤتة التى قام بها المسلمون إلى أطراف الدولة البيزنطية سنة ٦٢٩ للميلاد وهو العام التالى لانتصار هرقل الساحق على فارس ،

نظروا إليها على أنها مجرد إغارة تشبه تلك التى كان يقوم بها البدو باستمرار على أطراف الدولة ، إلا أن هرقل كان قد عقد العزم الكامل حتى قبل ذلك على أن ينتهج سياسة جديدة من الناحية العقيدية حتى يأتلف قلوب مسيحى مصر وسوريا ويضمن عودة ولاء أهلها للإمبراطورية ثانية . (٥)

الفتح العربى لمصر :

كان فتح مصر بعد الشام ضرورة حربية ، فقد رأى قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة هامة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فحسب ، بل إن موقعها الجغرافى الاستراتيجى يمثل خطورة على بلاد العرب نفسها حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم ، كما أن المسلمين بفتحهم مصر يحققون هدف الفتوحات العربية وهو نشر الدعوة الإسلامية فى مناطق جديدة من الإمبراطورية البيزنطية فضلاً عن حرمان القسطنطينية من القمح الذى كانت مصر تزودها به ، وقد رأينا من قبل ما لقيه الأقباط سكان مصر من اضطهاد وتنكيل وتعذيب بسبب الاختلافات الدينية بينهم وبين البيزنطيين ولذلك تمنى المصرين الخلاص من حكم البيزنطيين ولو حلت دولة أخرى محلهم وليس أدل على ذلك من أن الأقباط رحبوا بالفرس عندما غزوا مصر سنة ٦١٦م وفضلوا الحكم الفارسى على السيادة البيزنطية لما عانوه من اضطهاد مذهبى .

أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر فسار عمرو من قيسارية بفلسطين فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) على رأس جيش بلغت عدته أربعة آلاف مقاتل وكان أول بلد استولى عليه داخل حدود مصر عو العريش وقد استولى عليه بسهولة فى أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠م) ثم تابع عمرو سيره فى طريق صحراوى وعر إلى أن وصل الفرما (بيلوزيوم) الواقعة شرقى بورسعيد الحالية والتى تعتبر مفتاح مصر من جهة الشرق ففرض عليها حصاراً استمر شهراً واحداً إلى أن سقطت فى يده ، وهدم أسوارها وحصونها حتى لا يستفيد منها البيزنطيون وبعد ذلك واصل عمرو زحفه حتى وصل بلبيس ولم تجد نفعاً مقاومة البزنطيين فلم تلبث أن سقطت فى يده .

وبعد بلبيس صار عمرو جنوباً حتى وصل قرية تندونياس الواقعة على النيل شمال حصن بابليون والتى سماها العرب فيما بعد أم دنين _حاليا موضع حديقة الأزبكية) وفى تلك القرية هاجم

عمرو حصن بابليون أمنع المعاقل البيزنطية فى مصر ، ودار قتال عنيف بين المسلمين والبيزنطيين الذين تحصنوا فى الحصن ودافعوا عنه دفاعاً شديداً فلم يجد عمرو بداً من طلب النجدة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وريثما تصل الإمدادات قرر عمرو أن يتوجه على رأس فريق من جنده لغزو الفيوم فسار إليها فى صيف سنة ٦٤٠م (١٩هـ) وقضى فى غزوته أسابيع لحقت بالبيزنطيين خلالها خسائر كبيرة .

وكان أن وصلت الإمدادات العسكرية بقيادة الزبير بن العوام وبلغ عددهم أربعة آلاف محارب وقيل اثنا عشر محارب فعاد عمرو بن العاص إلى حصن بابليون وضيق عليه الخناق بضعة أشهر وعندما طال وقت القتال أرسل المقوقس (البطريرك قيرس) جماعة إلى عمرو قالوا له " إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزتا إليكم ===== من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدنا فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم " ، ولكن عمرو أرسل للمقوقس قائلاً : " ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال ، إما أن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا ، وكان لكم ما لنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمي " ، ولم يكن ذلك ما أراده المقوقس فأرسل إليه أن يبعث إليه رسلاً ليتشاوروا معهم فى أمر الصلح فأرسل إليه وفداً برئاسة عبادة بن الصامت على ألا يجيب البيزنطيين إلى شئ إلا إلى إحدى هذه الخصال الثلاث . وبعد أن تبين للمقوقس عجز البيزنطيين عن الوقف ضد العرب وافق على عقد الصلح ودفع الجزية وأن تبقى الجيوش حيث هى بشرط موافقة الإمبراطور على الصلح فإن أقره أصبح نافذاً ، غير أن الإمبراطور رفض إقرار الصلح ووجه اللوم إلى المقوقس وقادته فى مصر وأمرهم بمعاودة قتال العرب ، وعندئذ هاجم المسلمون الحصن بالمجنيقات وقام الزبير بن العوام باقتحامه ببسالة فائقة وتبعه المسلمون فى السادس من أبريل سنة ٦٤١م ، واضطر المقوقس إلى عقد معاهدة مع عمرو بن العاص

عرفت باسم سلح بابليون ، وبمقتضى هذه المعاهدة صار المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية التى ارتبطت بمقدار ارتفاع مياه النيل وانخفاضها وأن تدفع على ثلاثة أقساط من السنة . (٦)

ويمكن القول أنه بفتح حصن بابليون أنجز عمرو بن العاص المرحلة الأولى من فتح مصر وصار الطريق مفتوحاً أمامه بعد ذلك إلى الوجه البحرى والإسكندرية ، وكانت الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية وأدها منعة وتحصيناً فتوجه عمرو على راس جيوشه إلى تلك المدينة وفرض الحصار عليها ، ولكن البيزنطيين قاوموه بشدة حدث هذا فى الوقت الذى سادت بيزنطة الفوضى بعد وفاة الإمبراطور هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م وحالت دون وصول إمدادات جديدة إلى الإسكندرية وبالتالى لم يتفرغ البيزنطيين لأمر الإسكندرية وأضحى الدفاع عنها مستحيلاً ولم ير المقوقس بداً من طلب الصلح مع العرب فرحب به عمرو وعقدت معاهدة ثانية فى نوفمبر سنة ٦٤١م ، واشتهرت باسم صلح الإسكندرية تقرر بمقتضاها عقد هدنة بين العرب والبيزنطيين تنتهى فى سبتمبر سنة ٦٤٢ يتم خلالها جلاء الحامية البيزنطية عن الإسكندرية وألا يعود البيزنطيون إلى الإسكندرية واشترط أيضاً ألا يعترض المسلمون للكنائس بسوء وأن يبقى اليهود فى المدينة .

وبعد أن استكمل عمرو بن العاص فتح مصر كان من الطبيعى أن يفكر فى أن يمد الفتوحات العربية إلى الغرب فى الشمال الإفريقى تأميناً لحدود مصر الغربية من خطر البيزنطيين وتطبيقاً لخطة استمرار الفتح بغية نشر الدين الإسلامى ، ولم يكن تمسك عمرو بمواصلة الفتح طلباً للغنائم التى تعود عليه وعلى جنده كما يردد ذلك بعض المستشرقين ومن يرى رأيهم من المؤرخين ، وكان عمرو قبل أن ينتهى من فتح مصر قد بادر بإرسال القائد عقبة بن نافع الفهرى على رأس حملة لكشف أحوال برقة ويبدوا أن عمراً ارتاح إلى ما قال عقبة عن أحوالها التى تشجع على الفتح بدليل أنه عجل بتسيير جيوشه لفتحها وسار على رأس قوة من فرسانه غرباً حتى وصل برقة فى سنة ٦٤٢م ، ومن المرجح أن أهل برقة كانوا ساخطين على الحكم البيزنطى لظلمه وعسفه فتطلعوا إلى الخلاص على أيدى العرب ، ويفسر ذلك استسلامهم طائعين فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها له ولم يكد عمرو ينتهى من فتح برقة حتى شرع فى فتح مدينة طرابلس وهى مدينة حصينة مسورة ، فسار إليها وفرض الحصار عليها

إلى أن استولى عليها ، وليس من المستبعد أن عمراً فكر فى غزو بلاد المغرب إذ كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسأله المدد ولكن الخليفة الذى كان على ما يبدو مطلعاً على أحوال إفريقية وعلى معرفة بشدة مراس البربر خاف على المسلمين فلم يأذن لعمرو بمواصلة الفتح ، ويرى البعض أن ما فعله عمر بن الخطاب كان عين الصواب ويدل على بعد نظره ذلك أن تغلغل عمرو بن العاص فى أراضى المغرب الواسعة وبلاده الشاسعة بجيشه القليل قد يستنفذ قوته من غير أن يفوز بطائل خاصة أن البيزنطيين لم يزالوا من القوة بحيث يتمكنوا من استرداد مصر والقضاء على حاميتها القلية أثناء انشغال عمرو بغزو هذه البلاد .

كما أحسن العرب بعد أن فتحوا مصر بضرورة حماية حدودها الجنوبية خشية أن تقوم مملكة النوبة المسيحية بمشروع تحالف مع الدولة البيزنطية لاسترداد مصر فبعث عمرو بن العاص فرقة من الخيالة بقيادة نافع بن القيس الفهرى لغزو النوبة ، ويبدو أن تلك الغزوة لم تحمل معها فكرة الفتح التام لأن الفرقة رجعت من حيث أتت بعد أن حلت بها الهزيمة على أيدى النوبيين ، وأعقب ذلك أن أرسل عمرو حملة أخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح لغزو النوبة عام ٢١ هـ ، إلا أن غزوها استعصى عليه أيضاً ونتيجة لذلك النجاح الذى حققه النوبيون فى صد غزوات المسلمين عن أراضيهم فقد استمروا يشنون الإغارات المتقطعة على أسوان بضع سنوات حتى اختير عثمان بن عفان خليفة للمسلمين فعين عبد الله بن أبى سرح والياً على مصر بدلاً من عمرو بن العاص ، ويبدو أن ابن أبى سرح عزم على وضح حد لإغارات النوبيين فسار على رأس حملة إلى بلاد النوبة وأوغل بجنده جنوباً حتى وصل دنقلة عاصمة البلاد ففرض عليها حصاراً عنيفاً واشتد القتال الأمر الذى أجبر ملك النوبة على طلب إيقاف القتال وانتهت الحملة بمعاهدة بين مصر والنوبة عام ٦٥٢م (٣١هـ) عرفت بالبقط ، وقد جاء فى تلك المعاهدة ألا يقوم المسلمون بغزو النوبة ولا يغزو أهل النوبة المسلمين وأن يحافظوا على المسجد الذى ابتناه المسلمين بدنقلة وأن يسمح بتنقل التجار أى أنها معاهدة أمن وسلام بين الطرفين .

على أن الأمور لم تستقر للعرب فى مصر ، إذ بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب فى نوفمبر سنة ٦٤٤م استدعى الخليفة عثمان بن عفان عمرو بن العاص وعين بدلاً منه عبد الله بن أبى سرح والياً على مصر كما ذكرنا ، فشجع ذلك البيزنطيين على القيام بهجوم مضاد وأبحر أسطول ضخم بقيادة مانويل *Manuel* واستطاع هذا القائد أن يباغت الحامية العربية الموجودة فى الإسكندرية واستعادها فى سنة ٦٤٥م (٢٥هـ) ولكن النصر الذى أحرزه لم يستمر طويلاً فقد أرسل الخليفة عثمان بن عفان على وجه السرعة عمرو بن العاص إلى مصر حيث اشتبك فى قتال عنيف مع قوات مانويل عند نيقيوس *Nikui* انتهت بهزيمتها ، ودخل عمرو الإسكندرية مرة أخرى فى صيف سنة ٦٤٦م واضطر مانويل إلى الهروب إلى القسطنطينية ، ورحب الأقباط فى الإسكندرية بقيادة البطريرك بنيامين بالمسلمين ترحيباً بالغاً ، وبذلك فقدت الدولة البيزنطية أغنى ولاياتها إلى الأبد ، وتأكد الفتح العربى لمصر . [٧]

نهاية السيادة البيزنطية :

وعلى هذا النحو انتهت السيادة البيزنطية على مصر ، وكتب حنا النقيوسى " إن الناس جميعاً قالوا إن ما حدث من طرد الروم (البيزنطيين) وانتصار العرب إنما جلبه طغيان الإمبراطور هرقل ، وما أنزله من ظلم واضطهاد بالأرثوذكس (القبط) وذلك بمساعدة البطريرك كيرس " .

ومن المحقق أن الإدارة السيئة التى جرت عليها بيزنطة فى مصر والسياسة الدينية التى سارت عليها الحكومة الإمبراطورية تعتبران من الأسباب الأساسية التى أدت إلى زوال السيادة البيزنطية ، ويؤيد موقف السكان من العرب فضلاً عن اظهارهم الكراهية الشديدة للحكم البيزنطى ، ومع أن الفتح لم يتم إلا بعد مقاومة غير منتظرة استمرت فترة طويلة برغم سوء حالة الجيش الذى تولى الدفاع عن القطر المصرى فإن عدداً كبيراً من الساكن الأصليين انحازوا إلى جانب المسلمين بعد أن حلت الهزائم منذ البداية بالبيزنطيين ويروى حنا النقيوسى ، وهو مونوفيزتى شديد التعصب عن هذا الموضوع حقائق بالغة الدلالة منها حوادث التمرد والعصيان من قبل القوات التى تحافظ على الأمن الداخلى فكان الجند

يرفضون الدخول فى المعركة أو يفرون منها ، ومنها ما لجأ إليه السكان الأصليون من مهاجمة الجند البيزنطيين أيتما صادفوهم وتسليمهم إلى المسلمين بعد تجريدهم من سلاحهم .

كان كثير من المصريين يبادرون إلى اعتناق الإسلام ويحاربون فى صفوف المسلمين ضد البيزنطيين وفى الوجه البحرى أدرك حزب كامل أن المقاومة ليست مجدية وقرروا الانحياز للعرب وهاجموا كل من يرى غير ذلك ، وفى أثناء المحاولة الأخيرة التى قام بها البيزنطيون لاسترداد مصر كان موقف القبط أكثر صراحة من ذلك إذ اخذوا بالإجماع جانب العرب وعاونوهم بكل من الوسائل فى استرداد الدلتا وكانوا يشكون العرب أولئك الذين كانوا ينعتونهم " باليونانيين اللصوص " يضاف إلى ذلك أن كثيرين من أهل الرأى والتفكير اعتنقوا الإسلام لينعموا بما اشتهر به أمن وهدوء بعد أن افتقدوا ذلك زمناً طويلاً .

على أن عمراً لم يلبث أن أظهر غداة الفتح مهارة فائقة فى معاملة السكان الأصليين فالمعروف أنه لما مات البطريرك كيرس ، وجلت القوات البيزنطية عن البلاد تقرر تعيين بطريرك ليحل مكانة فى ولاية أمر المذهب الخلقيدونى (الملكانى) على أن ولايته لم تتعد أسوار مدينة الإسكندرية على حين أن بنيامين بطريرك القبط لازال مختفياً يطوف بأنحاء الصعيد ، وأدركت كنيسته الضعف والوهن ، بل إن ما تعرضت له على يد كيرس من الضربات طوال فترة عشر سنوات كاد يودى بها على أن المسيحية بعد الفتح العربى لمصر لم تعد الديانة الرسمية إذ صار الإسلام هو الديانة الرسمية للبلاد وهو الذى يفصل فيما يقع من المنازعات الدينية وترتب على ذلك أن صار الناس أحراراً فى تدينهم فلم يحفل المسلمون بصدق أو كذب قرارات مجمع خلقيدونية ، ولم يعد القبط يخشون إظهار عقيدتهم وإيمانهم فأفاقت الكنيسة القبطية ونشطت ولم تلبث أن أثبتت دعواها فى أنها تعتبر كنيسة الأمة المصرية ولذا قرر عمرو ابن العاص استدعاء البطريرك بنيامين وأعاده إلى مقره بالإسكندرية فلقى بها الاستقبال الحافل والحفاوة الزائدة والحماس الشديد ومكث بنيامين فى نخبأة ثلاث عشرة سنة فكان لعودته أثر كبير فى إصلاح أحوال الكنيسة المصرية والمذهب المونوفيزتى إذ كان القبط فى أشد

الحاجة إلى بطريرك ذى رأى متزن وخلق متين يقودهم ويلى أمرهم فمنهم من خرجوا من عقيدتهم وهم ألوف ورضوا باتباع مذهب خلقيدونية خوفاً من اضطهاد كيرس .

لم يكن من اليسير أن يعود إلى المونوفيزنية من اعتنق الإسلام ونعم بما نادى به الإسلام من الأخوة والمساواة ولما كفله من عدالة وأمن وطمأنينة أما الذين اعتنقوا المذهب الخلقيدونى خوفاً أو كرها فإن البطريرك بنيامين طلب إلى الذين اتبعو مذهب خلقيدونية أن يعودوا إلى مذهبهم المونوفيزتى فلما تم له جمع قومه ولم شعثهم ، اتجهت همته إلى إصلاح ما تهدم من الأديرة ولاسيما ما كان منها فى وادى النطرون وتوجه جماعة من الرهبان إلى الإسكندرية وطلبوا إلى بنيامين أن يذهب معهم ليبارك الكنيسة الجديدة التى بنيت فى الصحراء (صحراء سقيط) وهى كنيسة القديس مقاريوس فأجابهم بنيامين إلى ما طلبوا وتوجه معهم إلى صحراء النطرون فى موكب حافل حملت فيه بين يديه المباخر وسعف النخيل ونهض باسيل مطران نقيوس وشكر الله على ما قام به البطريرك من زيارة إلى الصحراء المباركة وأن يرى ما فيها من الآباء المقدسين والأخوة الطيبين الأبرار ويشهد بها شعائر الدين القويم ، ثم شكر الله على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر " كيرس " الذى شرده فعاود إلى أبنائه يراهم متلفين حوله مرة أخرى وأنشأ بنيامين أيضاً كنيسة القديس مرقص بالإسكندرية وظلت هاتان الكنيستان مقراً للبطريركية قروناً عديدة حتى انتقلت إلى القاهرة بعد أن تداعت الإسكندرية ولم تعد عاصمة سياسية ومات بنيامين سنة ٦٦٢ .

وإن هذا القول لا يصدر عن قوم يشعرون بأنهم مستذلون بل يصدر عن أناس يبتهجون بالخلاص وفى ذلك يشير بنيامين " كنت فى بلدى وهو الإسكندرية فوجدت بها أمناً من من الخوف واطمئناناً بعد البلاء وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم " ، ويشير حنا النقيوسى الذى كتب بعد الفتح خمسين عاماً وعلى الرغم من تعصبه ضد المسلمين إلى أن عمراً لم يضع يده على شئ من أملاك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من النهب أو التعصب بل إنه حفظ الكنائس وحمها إلى آخر مدة حياته .

وحيا المصريون فى حماس بالغ ما جرى من عودة السلام والطمأنينة وقدم إلى عمرو جماعة من الرهبان فأحسن لقاءهم ورحب بهم فأعلنوا ولاءهم وإخلاصهم .

أبقى العرب على ما وجدوه بمصر من نظام إدارى وظلت اللغة اليونانية مستخدمة فى دواوين الحكومة كما تشهد بذلك أوراق البردى التى ترجع إلى القرنين السابع والثامن فأقر العرب " ميناس " الذى اختاره هرقل حاكماً لمصر السفلى وأبقوا أيضاً على سنوتيوس *Sanutius* على حكم الريف واحتفظ فيلوخينوس *Philoxenus* بحكومة أركاديا أو الفيوم والمعروف أن هؤلاء الحكام الثلاثة كانوا يدينون بمذهب خلقيدونية ويكرهون المصريين المونوفيزتيين فإذا تعرض المصريون للاضطهاد والعنت فلاشك أن هؤلاء الموظفين يعتبرون إلى حد كبير مسئولين عن ذلك .

على أن الفتح العربى ولّد فى نفوس المصريين أعذب الآمال ، وإذا كانت سياسة الحكومة البيزنطية وأخطاء إدارتها والإمعان فى استغلال ثروتها أدى إلى ازدياد العلاقات السيئة بين المصريين والبيزنطيين فلاشك أن الفتح العربى أنهى هذا الصراع الذى استمر قروناً عديدة واستهل مرحلة جديدة من التاريخ المصرى . (٨)

أسباب فوز الإسلام :

ولعلنا نجد عذراً إذا نحن سقنا بعد ذلك رأياً آخر نمهد به مجملين ، وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان والوهن ، وهو يعدل فى شدته ما كان المسلمين من إيمان وقوة ، قال قيدرينوس " على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا " هذه كلماته التى ذكر فيها نشأة الإسلام وهى كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمداً كان رسولاً من الله أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم ، وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتب من المسيحيين فى ذلك الوقت ، أمثال سبيوس الأرمنى وإنه لأمر معروف أنه إذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا إن ما أصابهم كان عقاباً على ذنوبهم ، وإن من فكر وجد أن هذا القول لم يخطئ الصواب ولم يبعد عن الحقيقة ولكن يلوح لنا أن فى قول هؤلاء الكتاب شيئاً من الحزن المبح أكثر ممن نراه فى مثل هذه

الأحوال ، فإنهم يحسون أن النصارى قد وزنوا والعرب فى كفتين فرجح العرب ومالت كفتهم وأن المسيحيين قد أصبحوا غير جديرين بن يكونوا دون غيرهم هداة الناس إلى سبيل الله ، وليس من العسير أن ندرك كيف قوى الإسلام بما وقع فى قلوب المسيحيين من هذا الخوف وتوقع البلاء ، فقد كان قسوسهم وجندهم فى ذلك سواء وقد كان " لوقا " الذى أٍلم مدينة حلب للعرب ممتلئ القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان محتوماً أن يفتح العرب البلاد ، وكان " بازل " الذى أسلم مدينة صور قد أخذ عن الراهب " بحيرى " ما جعله يترك الروم ويوصى أهل الدولة الرومانية بدين الإسلام ، وهاتان الروايتان قد جاءتا عن طريق العرب ، وقد تكونان هما وأمثالهما أقاصيص وهمية لا حقيقة لها ، ولكنها تدل على أمر واحد لاشك فيه ولا يكذبه التاريخ وذلك أنه شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم ، وهى أن الإسلام حق وأن نصره محقق . (٩)

وبالنسبة للاضطهاد فلم يتوقف إلا عندما فتح المسلمون مصر وأعلنوا التسامح العام وحرية العقيدة حسبما تأمرهم بذلك شريعتهم .. " **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أد سن إلا ا لذين ظلا موا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** " .

وكان من أبرز الأمثلة على ذلك أن عمرو بن العاص .. الذى قاد عملية فتح مصر .. نشر أماناً يسمح فيه للأسقف السكندرى بالعودة إلى بيعته بعد هذا الهروب الذى دام حوالى ثلاث عشرة سنة بسبب الاضطهاد المسيحى البيزنطى ويسجل ساويرس بن المقفع قول بنيامين بعد عودته .. " لقد وجدت أمناً من خوف .. واطمئناناً بعد بلاء .. لقد صرف عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم " .

وليس لنا هنا أن نخوض فى تفاصيل أنظمة الحكم الإسلامى فى مصر ولا العلاقة الجديدة بين المسلمين والأقباط ، ولكن كل ما يمكن قوله أن مسيحى مصر تمتعوا بحرية عقيدية لم يألفوها من قبل حتى فى العهد المسيحى ذاته .. ممارسة طقوس عقيدتهم .. وإصلاح كنائسهم وبنائها .. والاحتفاظ بوظائفهم .. ويكفى أن نشير إلى ما كتبه يوحنا النقيوسى فى هذا الصدد أن عمراً لم يضع يده على شئ من أملاك الكنائس ولم يرتكب شيئاً من النهب .. ولم يظهر أى شعور من التعصب .. بل أنه حفظ الكنائس وحماها " .

ويعلق سير توماس أرنولد " لقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان " . [١٠]

هوامش الفصل السابع

(١) رأفت عبد الحميد : الفكر المصرى فى العصر المسيحى ، ص ٣١٧ –٣١٩ .

- حسين الشيخ : الرومان ، ص١٧٣ .
- محمود إبراهيم السعدنى : تاريخ مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، ص ١٥١–١٦٤.
- عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، فى ضوء الأوراق البردية .

(٢) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤٧ – ٤٨ .

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٣٩١ – ٣٩٣ .

(٣) سهير إبراهيم نعينع : تاريه مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٢٧١ – ٢٧٣ .

(٤) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٤٨ – ٥٠

- السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٢٧٢ .
- بتلر (ج) : فتح العرب لمصر ، ترجمة : محمد فريد أبو جويد ، ص ١٥٦–١٥٨ .
- متش يوحنا : تاريخ الكنيسة القبطة ، ص ٣٠٥ .
- رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ١٨٢ – ٢٠٣ .

(٥) رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ١٩٠ – ١٩٣ .

وعن انتشار الإسلام انظر :

- أحمد أمين : فجر الإِلام ، (القاهرة : ١٩٤٧) .

- أرنولد (توماس) : الدعوة للإسلام ، ترجمة (القاهرة : ١٩٧٠)
- حسين كفافى : المسيحية والإسلام فى مصر ، ص ٢١٥ – ٢٤٧ .

(٦) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٦٠ – ٦٢ .

- حسين كفافى : المسيحية والإسلام فى مصر ، ص ١٥٣ – ٢٤٧ .
- نظمى لوقا : عمرو بن العاص .
- بتلر (ج) فتح العرب لمصر ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

وانظر المصادر التاريخية :

- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، (القاهرة : ١٩٩١) .
- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ١ ، ص ٢٨٠-٢٨٩ .

(٧) محمود محمد الحويرى : مصر فى العصور الوسطى ، ص ٦٢ – ٦٥ .

- بتلر (ج) : فتح العرب لمصر ، ص ٤٠١ – ٤٠٧ .
- ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٥٦٩ – ١٧٠ .
- حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، (القاهرة : ١٩٢٣) .
- أحمد الحفناوى : سودان وادى النيل فى ظل الإسلام ، (القاهرة : ١٩٨٢) ، ص

(٨) السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

- سهير إبراهيم نعينع : تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٢٩٦ – ٢٩٨ .

(٩) بتلر (ج) : فتح العرب لمصر ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(١٠) رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

- بتلر (ج) : فتح العرب لمصر ، ص ٤٦٠ – ٤٦١ .

توماس (أرنولد) : الدعوة إلى الإسلام ، ص ٢٩٣

الفصل الاول

<u>أولا : أحوال مصر قبيل الفتح العربي الإسلامي:</u>

كانت مصر تمثل إحدى الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية ، وذلك خلال القرن السابع الميلادي، وأن المتأمل تاريخ مصر الطويل قيل هذه الفترة يجد مصر تقع فريسة لدولة البطالمة ، ثم الدولة الرومانية من بعدها إلى أن آلت إلى الإمبراطورية البيزنطية ، وان المتأمل لتاريخ مصر خلال تاريخها العريق قبيل قدوم العرب إليها ليجدها تموج بتيارات استعمارية المقصود منها استنزاف خيرات مصر وذل أبنائها ،وتدهور أحوالها على كافة أنشطة الحياة العامة

ونستعرض الأحوال الدينية فيها ، فقد عرفت مصر المسيحية منذ القرن الأول الميلادي، وانتشرت المسيحية بكل أرجاء : مصر خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، الأمر الذي جعل أباطرة الروم الوثين يضطهدون الشعب المصري وذلك ابتداء من عهد الإمبراطون

سفيرنيوسن. (١٩٣-٢١١م) الذي قام بحملات اضطهاد واسعة ضد المسيحيين والمسيحية في كل أرجاء الإمبراطورية والزم المصريين إلى تقديم القرابين إلى الآلهة وذلك للتأكد من رجوعهم عن اعتناق الديانة المسيحية .

واستمرت هذه الأوضاع من اضطهاد للمصريين حتى ولى الإمبراطورية الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥ م) الذي ضرب ابشسع الأمثلة في اضطهاد المسيحيين عامة ، والمصريين خاصة ،. الأمر الذي جعل للكنيسة المصرية تبدأ تقويمها المعروف بالتقويم القبطي أو تقويم الشهداء بالسنة الأونى من حكم الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤م.

واعترف الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ – ٣٣٧م) بان المسيحية إحدى الديانات التابعة للإمبراطورية البيزنطية بعد أن اظهر احترامه لهذه الديانة الجديدة ، ثم إعترف بها الامبراطور ثبروثيوس العظيم دينا رسميا للإمبراطورية سنة ٣٩٢م ،أعلن هذا الإمبراطور تحريم عبادة الأوثان داخل الإمبراطورية، وتنفس المسيحيون الصعداء ، ولكن ثار الجدل والنزاع حول

طبيعة المسيح واتخذ أغلب الأباطرة سياسة.منافية لسياسة المصريين حول المسيح وطبيعته ولذلك اشتد النزاع مرة أخرى بين الأباطرة والمصريين.

وتمسكت كنيسة الإسكندرية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي وكان مبدأها بأن المسيح طبيعة واحدة ، إما كنيسة القسطنطينية فقد كان مبداها بأن للمسيح طبيعيتين ، ومن جراء ذلك جاء مؤتمر خلقدونية بآسيا الصغرى (٤٥١م) وأيد مبدأ الطبيعيتين وقرر أن مذهب الطبيعة الواحدة. ضربا من ضروب الكفر والإلحاد.

عارض الشعب المصري قرارات مؤتمر خلقدونية ، وأطلقوا على أنفسهم "الأرثوذكسيين" بمعنى أنهم أتباع الديانة الحقة ؛ أما اتباع الكنيسة البيزنطية فاتخذوا لقب الملكانيين وذلك لموافقتهم مذهب الإمبراطور القائل بالطبيعيتين للمسيح.

وتعرض المصريون للاضطهاد الديني مرة أخرى من قبل الأباطرة البيزنطيين وذلك لمعارضتهم المذهب الإمبراطوري ، وقاوم المصريون هذا الاضطهاد بالهروب إلى المعابد

والأديرة بالجمال والصحراء وتركوا حقولهم ومنازلهم وقراهم، ثم حل هرقل إمبراطور للإمبراطورية البيزنطية سنة ٦١٠ م ، ووضع المصريون آمالهم على الإمبراطور هرقل لتخليصهم من هذا الاضطهاد ؛ إلا أن الفرس استولوا على مصر سنة ٦١٦م وتركوا المصريين في حرية دينية عظيمة طوال فترة حكمهم لمصر ؛ إلا أن هرقل تمكن من طردهم من مصر سنة ٦٢٩م .

واستعمل هرقل الاضطهاد الديني على عاتق المصريين الذين لم يوافقوا على تعليمات هرقل بشأن طبيعة المسيح؛ و استعمل قيرس (المقوقس) اشد أنواع التعذيب والتنكيل ضد المصريين ولمدة عشر سنوات متتالية ذاق المصريون البشع أنواع التعذيب و الاضطهاد و هرب البطرق بنيامين إلى الصحراء و معه المصريون وانتشرت الفتن والفوضى في ربوع مصر.

جاهد الحاكم البيزنطي قيرس لجمع المصريين بكل أنواع التهديد والتنكيل تارة والتودد للمصريين تارة أخرى ، وذلك لضم المصريين إلى دولة البطالمة ولكن جهوده باءت بالفشل ، وتمسك المصريون بمذهبهم الديني وأعلنوا العصيان على هرقل والمقوقس ، وظهرت مصر

بقوميتها ودينها الخاص بها وشخصيتها الفريدة خلال الاضطهاد الديني ، والذي فشل في إخضاع المصريين المذهب الإمبراطور ؛ وقد أزال المقوقس كل الصلات بين المصريين والبيزنطيين ، وتطلع المصريين لخلاص من الحكومة البيزنطية ؛ الأمر الذي مهد السبيل الفتح الإسلامي .

أما عن الأحوال الاجتماعية فكانت من أهم العوامل التي أسرعت بالقضاء على الحكم البيزنطي، فقد كان الشعب المصري يمر بأحوال اجتماعية في غاية القسوة والظلم ؛ فتجد الاسكندرية كانت مدينة يونانية غريبة عن الشعب المصري، واختلفت تماما عن طباع المصريين ، كما اشتهرت بالبذخ والثراء والترف، وكانت علي العكس تماما عن بقية بلدان مصر، وقراها التي كانت تحت وطأة أسر قوية وبقية الزراع من الشعب المصري بمثابة رقيق أو اقنان ، وأصبح المصريون غرباء في. أرضهم يقدمون خيراتها لمستعمريهم تحت وطأة الظلم والقمع والطغيان .

كما أظهر البيزنطيون ورجال جيشهم تصلفا عظيما في جمع الأموال من الشعب المصري بحجة الضرائب وجمعها بالقوة والسوط، كما سيطر التجار الروم واليهود على التجارة المصرية مستغلين سطوة هؤلاء الجنود البيزنطيين وقضوا على منافسة التجار المصريين لهم بالفزع والجبروت، وبذلك كسدت التجارة المصرية وتوقفت الأرض عن العطاء ،. وانتشر المرض والوباء بالديار المصرية، وعلى الرغم من ذلك ظهرت الروح المصرية القوية وازدهرت اللغة القبطية وزاحمت اللغة اليونانية، وتمسك المصريون بها على الرغم من الشدة والاضطهاد .

ومن جهة الأوضاع الاقتصادية فكانت على درجة كبيرة من الفساد والتدهور ، فقد وضع الرومان والبيزنطيون مصر كسلة تمدهم بالخبز والقوت ، وحرص البيزنطيون على المحافظة على هذه الهبة وكانت علاقتهم بمصر علاقة. استعمارية بحتة ، فقد استعملوا كافة الوسائل لتعويض مصالح المصريين ، بل سيروها لصالحهم فقط، واستعملوا كل الوسائل للسيطرة على موارد مصر ، واستعملوا ابشع أنواع التنكيل بالفلاحين المضربين لتحصيل الضرائب، وذهب

الفلاح المصري لوضع نفسه تحت حماية أمير من الأمراء البيزنطيين أملا للنجاة ولكن بدون جدوى .

إذ بمرور الزمن أصبحت الأرض ملكا للأمير وصارالمصري رقيقا أو قنا، وأصبحت ارض مصر خلال القرن السابع الميلادي اشبه بنظام الإقطاع ، وقد قسم البيزنطيون مصر الى خمسة أقسام إدارية كبرى لسرعة وإحكام السيطرة عليها وهي : الإسكندرية وشرق الدلتا وغرب الدلتا ومصر الوسطى ومصر العليا. وكان يحكم كل إقليم حاكم يعرف بالدوق يجمع بين يديه الحكم العسكري والمدني وتحت نفوذه القضاء والشرطة والإدارة أيضا؛ وهذا النظام أدي إلى إحكام السيطرة على المصريين و مواردهم ، مما أدى إلى هروب الشعب المصري وتشتته من ظلم وجور البيزنطيين ؛ وكان ينظر الخلاص من الله على يد قوة أخرى أقوي من البيزنطيين ، فكان ينظر إلى الفرس ؛ ولكن الله أراد في خلاصة على يد قوة العرب المسلمين .

ولا شك أن الناحية العسكرية أو الحربية لمصر في هذه الآونة كانت موزعة على كل إقليم ، فكان لكل دوق أو حاكم فرقته العسكرية الخاصة به ، ويدافع عن منطقته أو اقليمية فقط ، ودخل هذا الجيش كثير من المصريين المجندين في كل إقليم ، وذلك بعد أن سمحت السلطات البيزنطية للمصريين بالانخراط في سلك الجندية كل حسب اقليمة ، وكانوا يجندون بالاقتراع أو التطوع أو الوراثة ، وكان جيشا مهمل التدريب لان أفراد الجيش كان يسمح لهم بالاشتغال في الحرف والأعمال اليومية بجانب الجندية ؛ ولذلك ضاعت الناحية الحربية بسبب كثرة الفرق العسكرية وعدم ولائها للروم ، وعدم ارتباطه بقائد معين ، ولذلك سهل الأمر على العرب عندما فتحوا مصر سنة ٢١ هـ /٦٤٢م .

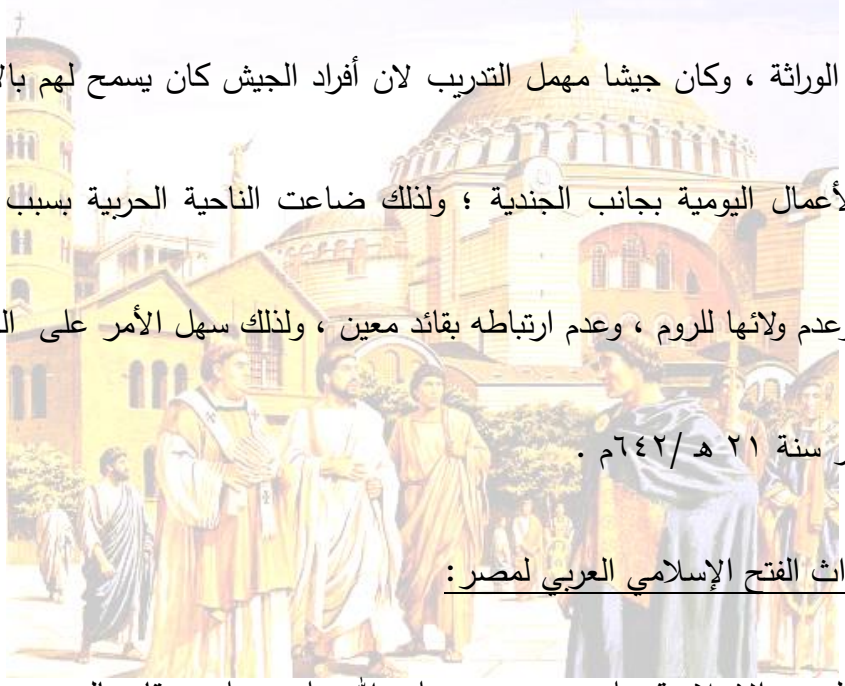

ثانيا : أحداث الفتح الإسلامي العربي لمصر:

ظهرت الدعوة الإسلامية على يد محمد صلى الله عليه وسلم و قام بالهجرة من مكة إلى المدينة ، واستطاع أن يوطد .اركان هذه الدعوة بالمدينة المنورة في خلال الخمسة أعوام الأولى

من هجرته وأن يجمع المسلمين تحت لواء الإسلام ؛ واستطاع أن يعقد صلحا مع قريش في مكة يسمى بصلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة ؛ وقد أفسح هذا الصلح المجال النبي علية السلام أن يبعث بسفاراته إلي رؤساء وأمراء وملوك العالم يدعوهم إلى الإسلام ، فبعث الصحابي حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ؛ وشجاع بن وهب الأسدى إلى كسري وبعث بدحية بن خليفة إلى قيصر ؛ وعمرو بن العاصي إلىاميرى عمان .

وقد غادرت سفارة حاطب بن أبي بلعته المدينة في ذي الحجة سنة ٦ هـ ، ووصلت مصر سنة ٧هـ/٦٢٩م ، وهنا احسن المقوقس مقابلة هذه السفارة مثلما أحسن هرقل لقاء دجية بن خليفة ؛ ورد المقوقس هذه السفارة إلى النبي علية السلام بأحسن رد وأهداء بهدايا منها بعض العسل (من إنتاج بنها) ، وثياب القباطي ؛ كما أرسل إحدى النساء ماريا القبطية فدية إلى النبي علية الصلاة والسلام ؛ وتركت هذه السفارة رابطة قوية بين مصر والعرب.

ومهدت للفتح العربي الإسلامي لمصر وتناقل الرواة الأحاديث النبوية التي أشار فيها الرسول علية السلام إلى أن الله عز وجل سوف يمكن المسلمين من فتح مصر، وبعض الأحاديث بوصيته علية السلام بأهل مصر خيرا، وأن لأهلها ذمة ورحمة ؛ حيث أن أم إسماعيل بن إبراهيم هاجر من مصر ، مارية زوج النبي من مصر أيضا ؛ ومن أهم أحاديث الرسول علية السلام بالوصية على أهل مصر" إذ فتح الله عليكم فاتخذوا منها جندا كثيفا " فذلك الجند خير اجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله با ؟ قال لأنهم وازواجهم في رباط إلى يوم القيامة "؛ وهناك أحاديث كثيرة في ذلك الشأن .

أضف إلى ذلك معرفة كثير من الصحابة بأمور مصر ، لخروجهم إليها بقصد التجارة ومنهم عمرو بن العاص ، الذي كان يأتى إلى مصر للتجارة، وكان أيضا يقابل تجار مصر في بلاد ″ الشام أثناء رحلة الصيف في فلسطين ؛ وروي بن عبد الحكم رواية تعلق بعمرو بن العاص قبل ظهور الإسلام ؛ إذ انه كان ببيت المقدس وأنه تصادق مع أحد رجال الدين

المصريين بعدما قدم له عمرو بن العاص بعض الخدمات الجليلة ؛ فدعاه المصري لزيارة مصر ليرد له بعض من جمائله ، ووصف له خيراته مصر ورائها وروعة أهلها.

وتشوق عمرو لرؤية مصر فذهب مع الرجل إلى مصر، وقام الرجل باطلاع عمرو على معالم. مصر وقوتها ؛ ثم دعاه إلى الإسكندرية و هي عاصمة مصر آنذاك وذلك لحضور حفلا سنويا يقام يجيتز يوم المدينة ، فكان يقوم أبناء علية القوم في آخر الحقل بإلقاء كرة ذهبية إلى المشاهدين أو الجماهير، ومن تقع في حجرة الكرة، فكان يستبشر بأنه سيكون حاكم مصر في المستقبل ؛ وفي نهاية الحفل، وقذف أحد الشباب الكرة. فإذا هي تقع في حجر عمرو بن العاص ، وكان جالسا بين المشاهدين بجوار صديقه المصري، فرأى ذلك عجب ودهشة المصريين، وقالوا : ما كذبتنا الكرة ابدا ، واستبعد الجميع هذا العربى ان يحكم مصر .

ونترك جانب الراويات والتوقعات ونتصل الأحداث الفتح العربي لمصرالحقيقية ؛ فعندما توفي النبي علية السلام، وتولى الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، قام بفتح بلاد الشام

و أرسل أربعة جيوش لهذا الغرض، وكان من أهم قادة الجيوش القائد عمرو بن العاص الذي التقى بالقائد البيزنطي الأرطبون :" استطاع القادة العرب أن يحققوا نصرا مجيدا على الروم في أجنادين ؛ وفر : الأربطون إلى مصر ليعيد أوراج قواته استعدادا لمجابهة المسلمين. .

وقام (صفرونيوس) بطريق. بيت المقدس وتسليم المدينة إلي . الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي أمنه على ماله وروحه وعامة المسيحيين ؛ وهنا اجتمع عمرو بن العاص مع الخليفة عمر الخطاب بمنطقة الجابية بالقرب من دمشق وتقع على مرتفعات الجولان الآن ، وذاك قبل ذهاب عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس واستلام المدينة من البطريق صفرينوس؛ وقام عمرو بن العاص بتوضيح ضرورة فتح مصر وخاصة أن ارطبون الروم .قد ذهب إلى مصر ويدبر المتاعب الحربية العرب؛ بالإضافة إلى خطورة تجمع الروم بمصر وأهميتها الحيوية بالنسبة للروم ،فكانت المخزن الروماني الذي يمدهم بلغلال ؛ وأن استلاه المسلمين على مصر سوف يضرب اهم عون للبيزنطيين في منطقة الشرق عامة .

أعلن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه موافقته على فتح مصر أمر غمرو بن العاص بأربعة آلاف جندي عربي وقال له : أني مرسل لك كتابا فان ادراكك وأمرتك فية بالانصراف فيه و عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره ، وسار عمرو بن العاص إلى مصر سنه ١٨ هـ/٦٣٩م ووصل العريش ومنها إلى الفرما: (شرقي بور سعيد الحالية) ؛ ويقال أن كتاب عمر بن الخطاب وصل عمرو بن العاص وهو برفح يتسلمه من الرسول حتى قرب العريش فأخذ الكتاب وقرأه على جيشه وأمرهم بمواصلة فتح مصر

لقي عمرو بن العاص مقاومة في مدينة الفرما من الجنود و البيزنطيين استوقفته شهرا ولكنه هزمهم في سنه ١٩ هـ / ٦٤٠م ثم زحف نحو بلبيس ففتحها، بعد شهرين من المقاومة أيضا ؛ وذكر المؤرخون أن ابنة المقوقس حاكم مصر البيزنطي كانت موجودة في مدينة بلبيس وقبض عليها عمرو بن العاص ولكنه أعادها إلى أبيها بعد أن أكرمها الأمر الذي أدى إلى

إعجاب القبطي بعمرو بن العاص ثم تقدم عمرو بن العاص أم دنين (تقع شمال حصن بابليون) ، حيث نشب قتال شديد بين العرب والروم، وأرغمهم عمرو على التحصن بحصن بابليون .

وكانت نابليون من أعظم مراكز مصر وذلك لموقعها على رأس الدلتا وكونها على الطريق الموصل إلى مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت ؛ ولذلك طلب عمرو بن العاصن من الخليفة عمر بن الخطاب العون العسكري، فأرسل له أربعة آلاف .. جندي يقودهم أربعة هم : الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت : ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود، ويقال أن العون بلغ اثنا عشر ألف رجلا ، واستطاع العرب بعد معارك شديدة وحروب متكررة ، وحاصر العرب بضعة شهور وحدثت مفاوضات بين الفريقين ؛ و أصرالعرب على دخول الروم في الإسلام أو دفع الجزية أو القتال ؛ رفض الروم ذاك واستؤنف القتال واستبسل الزبير بن العوام في فتح حصن بابليون بشجاعة فائقة ؛ حتى وافق الروم على الصلح ودفع الجزية ، وتم عقد معاهدة بين الروم والعرب اجازها الخليفة عمر بن الخطاب وأهم شروط هذا الصلح هي :-

١. أن يدفع كل قبطي للعري دينارين ويعفي منها النساء والأطفال والشيوخ

٢. للعرب المسلمين حق الضيافة على المصريين لمدة ثلاثة أيام عندما ينزل المسلمون عليهم

٣. تبقى للروم أرضهم وأموالهم وتعهد المسلمون بالمحافظة عليها

وعندما أبلغ المقوقس حاكم مصر شروط هذا الصلح إلى الإمبراطور البيزنطي رفضها زفضا تاما واعتبرها مهانة في حق الإمبراطورية البيزنطية التي لم تعهد مثل هذا الصلح مع الشعوب التي حربتها ، بل وبخ المقوقس على قبوله الصلح ؛ وأمره بقتل العرب فورا؛ ولكن المقوقس راي المسلمين قد استولوا على الحصن، وقام القائد العربي عمرو بن العاص بالمسير نحو عاصمة مصر الإسكندرية قاصدا الاستيلاء عليها ؛ وانه استولى على منطقة عين شمس. واشرف على المنطقة الشرقية من مصر السفلي، واستطاع أن يشرف على السفن والبضائع التي تنتقل بالنيل إليها، وقام عمرو بفتح بلاد الطرافة ونقيوس وكوم شريك و سفطيس والكربون، وفرت الحامية الرومانية من هذه البلدان إلى الإسكندرية بعدما تركوها للعرب .

وصل العرب أسوار مدينة الإسكندرية بعدما فتحوا منطقة غرب الدلتا و استولوا عليها ؛ كان المقوقس داخل المدينة ومعه كبار القادة الروم ؛ واحكم عمرو بن العاص الحصار على الإسكندرية وكان البيزنطيون يعلمون مدى أهمية هذه المدينة التجارية والحربية والبحرية حتى قيل أن هرقل إمبراطور الروم أراد الخروج بنفسه الحرب المسلمين بالإسكندرية ولكنة مات في ١١ فبراير سنة ٦٤١م الموافق ٢٠هـ .

استبسل الروم في الدفاع عن المدينة الأمر الذي جعل المسلمين يحاصرونها أربعة عشر شهرا مما أقلق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الجيش العربي ، ولكن موت هرقل وتولى العرش الإمبراطورة مارتينا زوجته وصية على ابنة الطفل هرقل التيوس ، وانقسام القادة بالمدينة على أنفسهم ؛ وفضل الكثير منهم الصلح مع المسلمين وعلى رأسهم المقوقس الذي له دراية بقوة المسلمين وشدة بأسهم ؛ ولذلك. وافقت الإمبراطورة مارتينا على الصلح مع العرب ، حتى تتفرغ لإخماد الفتن الداخلية والنزاع على عرش الإمبراطورية بالقسطنطينية.

طلب قيرس الصلح من عمرو بن العاص بعد أن ذهب إلى بابليون ، ولنك عرفت هذه المعاهدة بمعاهدة بابليون الثانية تمييزا لها عن المعاهدة. الأولى التي لم تتم ! وأيضا أطلق على هذه المعاهدة الثانية معاهدة الإسكندرية لأنها كانت تخص قادة وشعب الإسكندرية ؛ وعقدت هذه المعاهدة في نوفمبر سنة ٢٠هـ ٦٤١ م؛ وأهم بنودها هذه الاتفاقية ما يلي :-

١. أن يدفع كل قبطي جزية قدرها دينارين مع إعفاء غير القادرين على الكسب من الشيوخ والنساء والأطفال

٢. مدة الهدنة إحدى عشر شهرا

٣. أن يكف العرب والروم عن القتال

٤. ان يحترم العرب الكنائس والطقوس المسيحية

٥. ان يبقى اليهود في الإسكندرية .

٦. ألا يحاول الروم استرداد مصر او الهجوم عليها .

٧. اان يحتفظ المسلمون رهائن من الروم عند ١٥٠ جنديا و و مدنيا.

٨. أن يرحل الروم من مصر بأموالهم وممتلكاتهم

ومن ذلك الوقت أصبحت مصر ولاية إسلامية عربية تابعة . للدولة العربية بالمدينة المنورة وأنسلخت عن الدولة البيزنطية والقسطنطينية ؛ واصبح عمرو بن العاص اول والي عربي مسلم عليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ورحب الأقباط المصريون بالحكم العربي الجديد ، لمصر بعد كرهوا الرومان الذين استغلوا مصر أسوأ استغلال وتعالوا على المصريين ووقف اليهود على الحياد بين العرب، والروم، ولذلك .تركهم عمرو بن العاص، يقيمون بالإسكندرية في سلام وأمان .

واحسن المسلمون معاملة الأقباط كما أحسنوا معاملة المسيحيين ببلاد الشام وفلسطين وبالتالي رحب هؤلاء بقدوم العرب المسلمين إلى مصر، وذكر ابن عبد الحكم صورا كثيرة لترحاب القبط بالعرب ومنها أن أسقف مدينة الإسكندرية بنيامين عندما علم بقدوم العرب إلى

مصر لفتحها كتب إلى القبط يامرهم بحسن التعاون مع القائد العربي عمرو بن العاص وان الروم قد أنقطع ملكهم على مصر ؛ تعاونوا مع عمرو في الفرما، وأن القبط الذين كانوا بحصن بابليون خرجوا مع عمرو بن العاص عندما ذهب لفتح الإسكندرية وقاموا بإصلاح الطرق والجسور والأسواق ومنهم من كان يدله على اقرب وافضل الطرق نحو الإسكندرية.

وكان من أهم عوامل النصر للعرب على الروم وتمكينهم من فتح مصر هو .تصميم. القبائل العربية التي خرجت من الحجاز النشر الإسلام وكانت بمثابة كتائب بهذا الجيش ؛ بالإضافة إلى ترجيب أهالي مصر بالعرب. من أثر اضطهاد الروم لهم ؛ وتفكك الامبراطورية الروم أواخر أيام هرقل، وتفوق العرب في القتال . والرماية وحبهم لقتال والفروسية بعكس الروم الذين يميلون إلى . الدع والسكون ، أضف إلى ذلك كتب عمرو بن العاص للأقباط عهدا بحماية كنيستهم ، وكتب أمان للبطريق بنيامين وأعطى له وظيفته مرة بعد أن نفاه الروم ثلاث عشر سنة واستقبله عمرو استقبالا رائعا بعد عودته إلى الإسكندرية ، وترك العرب الأرض.

للمصريين وتعهدوا لهم بالحماية واهتموا بمشاريع الري ونظموا القضاء والضرائب وبنوا مقاييس على النيل.؛ ودفعوا الظلم البيزنطي عن كاهل القبط ؛ وأطلقوا لهم الحرية الدينية .

امتد نفوذ العرب بعد سقوط الإسكندرية نحو داخل مصر .وسائر مدنها، بل مدوا نفوذهم نحو برقة لتأمين مركزهم في مصر ؛ فقام عمرو بن العاص بالمسير إلى برقة وفتحها وفرض على أهلها الجزية ، وفي سنة ٢٢هـ تقدم عمرو نحو طرابلس وقيل إنه غزاها ٢٣هـ وفتحها أراد التقدم نحو بلاد المغرب ولكن الخليفة عمر بن الخطاب قد نهاه عن ذلك .

وايضا بعث عمرو قائده عبد الله بن سعد. لفتح بلاد النوبة وذلك لتأمين حدود مصر الجنوبية في سنة ٢١هـ ولكنه رجع دون أن يفتحها ؛ وعاود المحاول سنة ٣١هـ وفتحها زمن الخليفة عثمان بن عفان ووصلت حملته مدينة دنقلة عاصمة بلاد النوبة ، وبعد قتال مرير عقدت هدنة بين المسلمين وملك النوبة عرفت بالبقط ، وكانت عبارة عن معاهدة تحدد المعاملات السياسية والاقتصادية بين العرب في مصر والنوبة المسيحية، وأهم شروطها ألا

يعتدي أي طرف على الآخر، وان يدفع النوبة إلى العرب حكام مصر عددا من الرقيق سنويا ، على أن تعطى مصر سنويا كمية من القمح والعدس ومنتجات مصر كل عام .

عاود الروم الهجوم على مصر سنة ٢٥هـ /٦٤٥م فقد هاجموا مدينة الإسكندرية واستولوا عليها وطردوا الحامية العربية منها ؛ وكان ذلك خلال عهد الإمبراطور البيزنطي قيسطانز الثاني ، وكان الحاكم على مصر هو عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان ؛ ولذلك طلب أهل مصر من الخليفة، سرعة إرسال عمرو بن العاص لطرد الروم من مصر؛ وبالفعل وصل عمرو وهاجم الروم وأجلاهم عن الإسكندرية ورجعت مصر ومدينة الإسكندرية إلى المسلمين نهائيا.

وهنا نعرض للموضوع أختلف فيه المؤرخون والرواة القدامى والمحدثون الا وهو حريق مكتبة الإسكندرية ، وهوالحريق الذي شب أثناء حصار المسلمين للمدينة ؛ وأول من ذكر قصة حريق مكتبة الإسكندرية هو المؤرخ عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب الإفادة والاعتبار وذكر

أن عمروا أحرق المكتبة بتصريح من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وزاد هذه القصة افتراءات وأباطيل مؤرخ أخر جاء بعد عبد اللطيف البغدادي وأسمه أبو الفرج بن طبيب يهودي اسمه(قارون او هارون) وله كتاب بأسم تاريخ الدول"، واتهم عمرو بن العاص إنه أحرق : المكتبة ؛ ووزيع كتبها علي الحمامات في مدينة الإسكندرية لاستعمالها كوقود؛ وكلها أباطيل و أكاذيب غير منطقية لا يقبلها العقل بالنسبة لعمرو بن العاص .

وان هذه الأسطورة لا أساس لها من الصحة أو السند التاريخي، فضلا عن إنكار التاريخ الحضاري للمسلمين لمثل هذا التصرف ؛ لأن المسلمين شجعوا العلم والعلماء من كافة الملل والأديان، ولم يذكر المؤرخون العرب من أهل الثقة والأمانة مثل الطبري وابن الأثير والبلاذرى وبن عبد الحكم والكندي وغيرهم هذه الحادثة ؛ والحقيقة إن مكتبة الإسكندرية قد قل شأنها قبل الفتح الإسلامي ونقل أغلب، مجلداتها إلى روما ، وقد يكون قد اختلط الأمر على هؤلاء الكتاب فظنوا أن الحريق الذي أصاب المكتبة سنة ٤٨ق م عند. قدوم يوليوس قيصر إلى الإسكندرية. لمعاضدة كليوباترة ضد أخيها ، فاعتقدوا ذلك حدث زمن عمرو بن العاص ؛ ولم توجد أي وثيقة تاريخية تثبت ذلك الأمر.

الفصل الثاني

انتشار الإسلام والعروبة في مصر

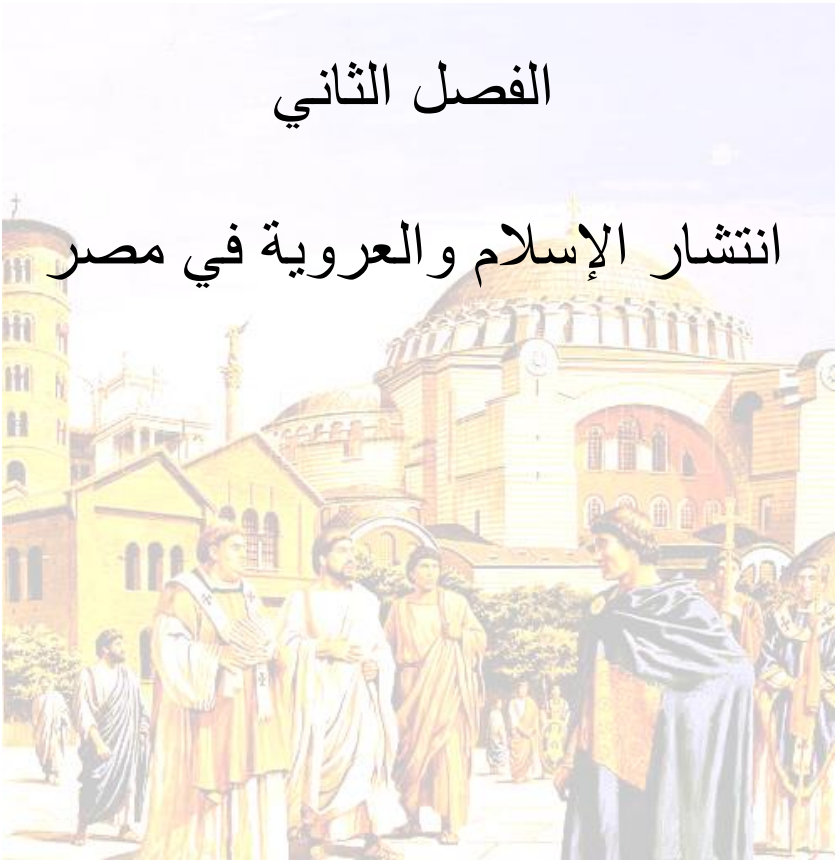

جاء الإسلام كثورة إنسانية للمجتمع الإنساني عامة ، ولم يكن ثورة محلية خاصة بالمجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية فقط ؛ إنما جاء الإسلام لعلاج المشكلات الإنسانية في العالم بطريقة موضوعية تماما ، لا دخل للمصادفة ولا الرغبات الشخصية منها إنما ليعالج أزمة العصر في كافة المجالات مثل الأحوال السياسية والروابط الاجتماعية والأدبية والنظم الاقتصادية والعلاقات الإنتاجية ؛ حتى يصل إلى الهدف السامي الحقيقي وهو إنقاذ البشرية مما هي فيه من براثن المجتمعات القديمة الظالمة .

وجاءت الفتوحات الإسلامية بالهدى ودين الحق لتهدي الأرواح الضالة وتنشر الحق والعدل والمساواة ضد الباطل والظلم والفساد ؛ وظهر الإسلام كحتمية لضرورات إنسالية عامة ؛ لأن أهالي البلاد المفتوحة كانوا يدينون بطاعة اسمية لهرقل أو كسري ،.ولا يحرصون أبدا على دين لا يفقهون فيه ؛ وأن الإسلام ظهر كثمرة جاءت في موعدها الطبيعي ؛ وأقبل عليه الناس إقبالا

عظيما حتى يخلصهم مما هم فيه من الذل والهوان ،وحتى يشعرون بكرامة النفس وعظمة الأخلاق .

دخل الإسلام مصر سنة ٢٠هـ/٦٤٠م أي بعد سبع سنين فقط من تحركه خارج الجزيرة العربية ، وكان إيذانا ببدء عملية كبرى غيرت من كيان الشعب المصري بالتدريج وأتت ثمارها خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ؛ فكانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يكون للعرب امة متماسكة و رب واحد بعيدة عن الاختلاط بالأجانب فمنعهم من فلاحة الأرض ، وأمرهم أن يقيموا في مراكز معينة مثل الفسطاط في مصر ، وهدف عمر من ذلك أن يتفرغ العرب للإدارة والأعمال العسكرية ، وأن يكون كل مسلم جنديا من جنود الإسلام، وأن يحصل من بيت المال عطاء مقابل خدمته العسكرية.

وحرم عمر على الجنود العرب امتلاك الأرض أو زراعتها أو الاختلاط مع أهالي البلاد المفتوحة ليجعل منهم طبقة عسكرية ممتازة ، ألا يركنوا إلى الدعة والترف والرفاهية ؛ والا

تضيع اللغة العربية لغة القرآن بين شعوب هذه البلدان ولغاتها المختلفة ؛ كما اشترط عمر بر الخطاب عند بناء مدينة الفسطاط على القائد عمرو . بن العاص ألا يبنوها في مكان يحول بيني وبينهم بحرا وتظل معسكرا للجنود العرب ، ولا يختلطون بأهالي البلاد حتى يحافظ على الجنس العربي وعدم اختلاط الأنساب ؛ ولذلك سارع أهالي البلدان إلى الدخول في الإسلام وتعلم العربية للاختلاط بطبقة العرب والحصول على نفس الحقوق والواجبات التي تمتع بها العرب.

ولكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج العرب من المعسكرات و اقتنوا الأرض والضياع وتحولت المعسكرات أيضا إلى مدن عامرة وتعلم العرب الزراعة وسائر المهن وسكنوا البيوت والقصور بدلا من الخيام ، و اختلطوا. بغيرهم من السكان المحليين ، وشارك أهالي الأنصار العرب في الأعمال و أقبل العرب على امتلاك الجواري و العبيد و الإماء

اللاتي اتخذهن للتسرى و الإنجاب وبالإضافة إلى عتقهم بعد إعلان إسلامهم ، فيصبحون أحرارا مثل أي شخص في المجتمع العربي الإسلامي .

(١)بناء مدينة الفسطاط:-

بعد أن استتب الأمر للعرب في مصر، أراد عمرو بن العاص أن يتخذ مدينة الإسكندرية مسكنا للعرب وكتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي رد علية قائلا " إني لا أحب أن تتزل- منزلا يحول بيني وبينهم ماء في شتاء ولا صيف " ، فتحول عمرو من الإسكندرية إلى موقع مدينة الفسطاط، وسميت بهذا الاسم لأنه عندما توجه عمرو بن العاص لفتح الإسكندرية أمر الجند بنزع فسطاطه (خيمته) ، " فإذا فيه يمام قد أفرخ، فأمر عمرو جنده بتركه ، فلما رجع المسلمون من الإسكندرية بعد استيلائهم عليها ؛ قالوا أين ننزل ؟ فقالوا : فسطاط عمرو أي بجوار خيمة: عمرو بن العاص التي كان قد تركها .

وانضمت القبائل العربية الممثلة في جيش عمرو بن العاص إلى بعضها البعض ، وتنافسوا في المواضع، فولى عليهم معاوية بن خديج التجيبي وشريك بن سمئ الغطريفي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيويل بن ناشرة المعافرى، بان يشرف على خطط السبائل بالمدينة ويفصلوا بينهم في المواضع أو المنازل، وكان ذلك في سنة ٢١ هـ ، واتخذت كل قبيلة عربية خطة خاصة بها، وكانت بعض القبائل تنزل متحالفة مع قبائل أخرى في خطة واحدة مثل خطة أهل الراية ، وهم جماعات مختلطة من قريش ومزينة والأنصار وخزاعة واسلم وغفار وجهينه وثقيف ودوس وعبس وجرش وليث بن بكر والعتقاء.

وكانت لقبيلة مهرة خطة(حارة او شارع) بالفسطاط ، وخطة لكل من القبائل آلاتية : قبيلة لخم ، وقبيلة تجيب ، و قبائل اللفيف، وأهل الظاهر، وهمدان وبلى والصدف وخطة للفارسيين وخطة لمسحج وسبأ وغطيف ووعلان ويحسب ورعين وذى الكلاع والمعافر والرحبة ووائل وقبض والحمروات الثلاثة وهم قبائل روبيل ، وبنى نبه ، وبني الازرق ، وأصبحت مدينة

الفسطاط بمركزا إداريا وحربيا للعرب في مصر منذ بنائها ، كما كانت مركزا دينيا أيضا ؛ وكان هذا الموقع فضاء ومزارع يحده شرقا جبل المقطم وغربا نهر النيل وجنوبا بركة الحبش وشمالا جبل يشكر.

كما اختط عمرو بن العاص، المسجد الجامع الذي عرف باسم تاج الجوامع العتيق، وعرف أيضا باسم جامع عمرو بن العاص وكان بمثابة مدرسة إسلامية تنشر تعاليم الدين الإسلامي و مركزا للقضاء ، وبالإضافة إلى إقامة الصلوات اليومية والجمع، وذكر بتلر أن كلمة فسطاط مأخوذة من اللفظ اللاتيني *fossatum* أي الحضن أو المعسكر ، كما كانت كلمة فسطاط بالعربية تعني المعسكر او الجماعة وأن العرب، أطلقوا عليها هذا الاسم من واقع كلماتهم العربية .

بنى العرب الفسطاط في بداية نشأتها بالطوب اللبن ، وكان كل سكن لا يزيد عن طابق واحد وأراد خارجة بن حذافة أن يرتفع بالبناء وشيد غرفة فوق سكنه ، وقد بلغ ذلك الخليفة عمر

بن الخطاب الذي أمر عمرو بن العاص بهدم هذه الغرفة أو الحجرة حتى لا يكشف خارجة عورات جيرانه ، وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان اتسعت المباني والمنشئات بالفسطاط وشيد عبدالله بن سعد قصرا فخما أطلق عليه قصر الجن ، وقام مروان بن عبد الحكم ببناء دارا كبيرة له في مصر سنة ٦٥هـ /٦٨٤م ، كما بني عبد العزيز بن مروان دارا أطلق عليها دار الذهب .

وكان من أهم معالم الفسطاط الميادين والأسواق الواسعة والحمامات الكثيرة ودور الصناعات المتسعة ، ووصفها " الاصطخري المتوفى ٣٨٠ هـ بان بيوتها تتكون من اربع طبقات او خمس ويسكن الدار الواحدة حوالى مائتي نفس ، وفى خلال كانت منازلها مرتفعة جدا وتراوح بين سبع طبقات واربع عشر طبقة وشوارعها تضاء بليل والنهار ، لان ارتفاع المنازل كان يحجب ضوء الشمس بالنهار ، وكان بها ستة وثلاثون الف مسجد وثمانية الاف شارع ، وألف ومائة وسبعون حماما وذلك خلال القرن الخامس الهجري .

وظلت الفيسطاط مزدحمة بالسكان خلال عصر الولاة والعصور الأخرى التي أعقبت هذا العصر و وساحلها مزدحما بالمراكب الداخلة والخارجة والراسية ، وبها دار لصناعة السفن، وعلى الرغم من أن هذه المدينة احرقت سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م على يد صالح بن على القائد العباسي عندما استولى على مصر وقتل أخر خلفاء الامويين مروان بن محمد كذلك تعرضت للسيلب والنهب في نهاية الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م على يد محمد بن سليمان الكاتب الذي أسقط الدولة الطولونية ، وأطلق العنان لجنوده لتخريب ونهب مدينة الفسطاط .

أما عن أهم معالم هذه المدينة فكان مسجد عمرو بن العاص والذي بناه عمرو سنة ٢١هـ ، على شاطئ نهر النيل ، في منطقة زراعية ، وقد أشرف على تحديد القبلة ثمانون صحابيا ، وقام بعمل المنبر لهذا المسجد رجل قبطي يسمى بقطر النجار من أبناء مدينة دندرة بصعيد مصر ثم بدأ الولاة من بعد عمرو بن العاص في زيادة وتعمير الجامع ، وأول من زاد

فيه الوالى مسلمة بن مخلد الأنصاري والى مصر من قبل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان بنة ٥٣ هـ/ ٦٧٣م ، وزاد فيه بالاتساع وزينه وفرشه بالحصر.

وساهم في اتساع هذا الجامع الوالي عبد العزيز بن مروان في سنة ٧٩هـ /٦٩٨م ، والوالي عبدالله بن مروان سنة ٨٩هـ/٧٠٧م ، الذي رفع سقفه إلى أعلى ؛ والوالي قرة بن شريك العباسي هدم الجامع وأعاد تشيده من جديد وذلك استجابة لأوامر الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ/٧١٢م، وأضاف اليه مساحات كثيرة من الأرض المجاورة .

أما في خلافة سليمان بن عبد الملك فقد شيد اسامة بن زيد التنوخي متولى خراج مصر سنة ٩٧هـ /٧١٥م شيد بيت المال التى اضيفت إلى الجامع في زمن الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م ، ويعتقد أن هذا النوع من المباني كان مخصصا لأموال اليتامى ، وفي سنة ١٣٣هـ /٧٥٠م ادخل صالح بن على زيادة على الجامع دار الزبير بن العوام ، ثم أضاف إليه موسى بن عيسى والي مصر من قبل هارون الرشيد سنة ١٧٥هـ / ٧٩١م زيادة كبيرة في

مؤخرة الجامع ، وأضاف عبد الله بن طاهر مساحة جديدة إلى المسجد من ناحية الجنوب تعادل مساحته التي كان عليها.

وفي العهد الطولوني حثت إصلاحات وتجديدات في هذا المسجد وقام بها خماروية بن أحمد بن طولون سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م ، اذ انفق عليه ستة آلاف وأربعمائة دينار، أضف إلى ذلك بعض الإصلاحات التي حدثت في العهد الفاطمى زمن الخليفة " العزيز بالله سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م ، وزمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، بالإضافة إلى العديد من الإصلاحات التي تمت خلال العهد الأيوبي و المملوكي وكان هذا الجامع بة حلقات العلم بجانب أداء الفرائض الدينية، وكان به خلال القرن الرابع الهجري مائة وعشر حلقة ، وكان به مجالس للعلم السيدات، ومجالس القضاء، ومجالس القصصي وهو اقدم جامعة علمية بمصر.

(٢) دور القبائل العربية في تعريب مصر :

كان أول أهداف القبائل العربية التي صاحبت جيش عمرو بن العاص و الفاتحة لمصر هو سرعة نشر الإسلام والعروبة بين المصريين ؛ ووجد الإسلام في ترية عضبة لبذر بذور الإسلام و : العروبة معا بين أهالي مصر ؛ وكان أعظم المصريين قد أجهدهم طول الصراع الديني المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك وبين اليعاقبة و الملكانيين و ارادوا الخلاص من هذا النزاع الدائم ، وراوا في اعتناق الإسلام فهو الخلاص من هذه المحن، من دفع الجزية التي فرضها العرب عليهم ؛ بل اعتنق بعض الروم الإسلام والذين فضلوا البقاء في مصر و عدم الرجوع إلى القسطنطينية ؛ وذلك أسوة ببعض الروم في الشام و الذين اعتنقوا الإسلام و دخلوا في زمرة المسلمين.

شمل الإسلام كل طبقات المجتمع القبطى ، حتى أن فريق من الرهبان دخلوا الإسلام مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء ؛ وكثر توافد العرب على مصر واختلطوا بأهلها جميعا ، شمل

الإسلام كل طبقات المجتمع القبطي، حتى أن فريق من الرهبان دخلوا الإسلام مثل يوحنا أحد رهبان دير سيناء ؛ وكثر توافد العرب على مصر واختلطوا بأهلها جميعا ، تولت صلات التراحم والنسب بين العرب و القسبط ؛ و انتشر الإسلام أولا في المدن المصرية الكبرى اما الريف فكان ينتشر فيه ببطئ وهدوء وذلك عندما اقامت القبائل العربية فى الريف.

أخذ العرب على عاتقهم تعريب أهل مصر لغويا ، وكان من أهم عوامل الوصول إلى ذلك هو التعريب الجنسي وذلك بالمخالطة و مصاهرة الأقباط الذين يدخلون في الإسلام ، فكانت اللغة الرسمية في مصر اللغة اليونانية ومثت لغة الإدارة والحكام والثقافة والعلوم وأيضا لغة العبادة داخل الكنائس المصرية ، أما اللغة القبطية فكانت اللغة المتداولة بين الشعب المصري وعندما أصبحت اللغة العربية هي لغة الطبقة الحاكمة ، أقبل عليها المصريون على الرغم من بعدها من اللغة القبطية واليونانية ؛ . حتى أصبحت العربية هي لغة الدواوين في مصر منذ عهد

الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٦/٨٦هـ) ، وأصبحت بمرور الوقت لغة الثقافة و الإدارة و الدين داخل العمل والبيوت.

.ونجد أن العرب بعد استيلائهم على مصر لم يتخذوا من أهلها عبيدا ولا سبيا ولا إماء ، ولكن عاملوهم الند بالند أي المساواة ، فكان القبطى عندما يدخل في الإسلام يتزوج من بنات هؤلاء العرب ، وبالتالي كان يزوج بناته لابناء العرب على قدم المساواة ؛ الأمر الذي أدى إلى كثرة دخول الأقباط في الإسلام في أمن وطمأنينة ؛ وذلك على العكس تماما لما حدث في صلح عبدالله بن سعد مع أهل النوبة ، فكانوا يقدمون هدية من عدة رؤوس منهم إلى المسلمين في كل سنة ، وكذلك كان أهل برقة يسمح لهم بأن يبيعوا من أبنائهم ما أحبوا في جزيتهم ، و الجدير بالذكر أن سياسة التسامح الديني التي اتخذها العرب تجاه الأقباط كانت من أهم عوامل ازدياد الصلات بين الفريقين ، فنجد أن الأقباط حلوا محل الروم الذين غادروا مصر ، و كان بالحكومة الإسلامية بالفسطاط كاتبان قبطيان لادارة مصر العليا ومصر السفلي وكان اسمهما

اثناسيوس وإسحاق ، وذلك في عهد الوالي عبد العزيز بن مروان على مصر وأيضا كان والى الصعيد قبطيا واسمة بطرس، وقد أعتنق الإسلام بعد ذلك ، وكان حاكم مريوط قبطيا واسمه تاو فانوس ، وأيضا إلى الخليفة المأمون حين قدم إلى مصر مدينة بورة أحد الأقباط وسمح له بيناه كثير من الكنائس بهذه المنطقة

وسمح العرب بحرية الدينية للأقباط و سمحوا لهم ببناء الكثير من الكنائس في مختلف أرجاء مصر مثل الإسكندرية ، و حلوان ، حتى أن الفسطاط المدينة الإسلامية سمح لهم ببناء كنيسة بها فبنيت أول كنيسة بها أثناء ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري، ونجد ان معظم ولاة مصر من العرب سمحوا بإصلاح كثير من الكنائس واعادة بنائها ، مع السماح ببناء الكنائس فى كثير من بلدان مصر واعتبروها انها من مظاهر تعمير البلاد .

وعلى ذلك ذهب العرب ينشرون دينهم في أمن وأمان واتبعوا سياسة لاضرر ولا ضرار بمن أراد الدخول في الإسلام له في ذلك، ومن فضل الجزية وبقي على دينه له ذلك؛ فبعد أن

اختط العرب مدينة الفسطاط، نجد أن بعض القبائل عبرت نهر النيل نحو الغرب واتخذت مكانا أطلقت علية اسم "الجيزة " أي من اجتازوا النهر، وكان أهم هذه القبائل قبيلة همدان اليمنية وبعض القبائل التي نقلت الإقامة بالجيزة وذلك سنة ٢١هـ /٦٤١م ؛ و اختطوا في الجيزة خططا مثل خطط الفسطاط تماما ، كما قام العرب بإنزال قوم منهم بالإسكندرية ، وأقاموا داخل منازل الإسكندرية ، وكان منهم بعض الصحابة ، والذين اختطوا بالإسكندرية ومنهم الزبير بن العوام.

ومن أهم عوامل نزوح القبائل العربية إلى مصر هو أن كل ولي عربي على مصر كان يصحب معه أعدادا من هذه القبائل ليكونوا عونا له في مصر، بالإضافة إلى الخلفاء الذين يرسلون أعدادا كبيرة لتعزيز الجند العربي في مصر، ونجد أن عدد الجنود العرب في عهد معاوية بن أبي سفيان بلغ أربعين ألفا من العرب ، ونجد أيضا في عهد الوالي عبد العزيز بن مروان سنة ٦٥هـ ، طلب إرسال عددا من العرب القيسية ليحدث توازن مع القبائل العربية

اليمنية صاحبة الغلبة في مصر ، وفي عهد ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى (١٠٩ – ١١٧هـ) على مصر نقل أعدادا كبيرة من القبائل العربية إلى مصر وكان أغلبها من قيس، و أنزلهم الدلتا.

وفي عهد الوالي عبدالله بن الحبحاب طلب قبائل عربية من قيس منها مرت إليه مائة أهل بيت من بني نصر ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من بنى هوازن ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم في بلبيس وأمرهم بالزراعة ؛ وأشتغلوا أيضا بنقل التجارات على ظهور الابل بين القلزم ومدن شرق الدلتا ، وفي نهاية حكم الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ كان في بلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس .

واختلطوا هؤلاء العرب بالأقباط وعملوا معهم في الزراعة ، وحدث تزاوج بين الفريقين وكثر الإسلام بقرى مصر ونواحيها وذلك منذ انتشار الإسلام في منطقة الحوض الشرقي بالدلتا على يد أبناء قبيلة قيس ، واستقدم الوالي الحوثرة بن سهيل الباهلى ١٢٨–١٣١هـ) قبائل من

قيس أيضا إلى مصر حتى بلغت أكثر من ثلاثة آلاف أسرة منهم في مصر ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من الحجاز كثير من بني جلدتهم ، واصبح العرب ينتقلون بين أرجاء الريف والدلتا ويختلطون بأهالي مصر في هدوء وسلام.

وكان هناك نظام الإرتباع أي تحرك العرب إلى القرى المصرية في فصل الربيع ويرعون خيولهم في حقول البرسيم حتى تسمن ، وكان العرب يختلطون بالشعب المصري لتبادل الود وتوثيق صلات التعارف بين الفريقين ؛ وكان هذا النظام يتم وفق أساس مرسوم فكان والي مصر يكتب لكل قبيلة مكان مرتعبها ؛ وكانت أماكن. الإرتباع قريبة من الفسطاط بالدلتا أو الصعيد ، وكانت فرصة للاختلاط بين العرب والقبط، وكان عمرو بن العاص يأمر جنوده أثناء الارتباع بحسن معاملة القبط وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانيم ، وان يعفو فروجهم عن أعراضهم ، ويغضوا أبصارهم عن نسائهم ، وأن يتجنبوا الترف في الأكل والملبس.

وأصبحت ظاهرة الارتباع عادة سنوية للقبائل العربية ، ومنها تعرفوا على البيئة المصرية ، وتعرف المصريون على العرب وبمرور الزمن حنث تبادل المؤثرات المادية والأدبية ، حتى جاء بنتيجة إيجابية من تمصير العربي وتعريب المصريين؛ حتي ظهر الإنسان المصري الجديد المسلم دينيا العربي لغة ؛ وحدث تصاهر بين العرب والمصريين وهنا ظهرت الثقافة الإسلامية واضحة بأركانها الثلاثة وهي الدين و اللغة و الدم ، كما كان هناك نظام الرباط أو الثغور في البلدان المصرية في السواحل و السجن الحدودية فكان العرب يقيمون بها للحماية الأمر الذي سهل عليهم الاختلاط بالأقباط ، و أيضا نظام الضيافة من جانب الأتباط للعرب الذين ينزلون فيها بقرى مصر و يقيمون بين الأقباط لمدة : ثلاثة أيام يتبادلون فيها الود و الهدايا و المناظرات

والواضح أن العرب منذ فتحهم لمصر و انطلقوا بين المصريين و لم يقيموا سدا أو سورا بينهم و بين أصحاب البلاد كما فصل الرومان من قبلهم إنما اختلطوا بهم من خلال

ممارستهم للأعمال التجارية في بلدان مصر، وكثير من القبائل فضلت الإقامة في مناطق أخرى غير الفسطاط ؛ و امتزج العرب بالأقباط تماما حتى انهم أصبحوا في القرى يد واحدة وظهر ذلك في ثورة اسفل الأرض سنة ٢١٦هـ ضد الحكومة في الفسطاط .

كما أن هناك قرار الخليفة العباسي المعتصم في سنة ٢١٨هـ الذي أمر فيه بإسقاط من في الديوان من العرب ؛ و جردهم من أعطيا تهم كجنود، و لذلك لم يتأثر بذلك القرار لأنهم مارسوا الأعمال و الحرف مع المصريين و اصبحوا يكسبون أرزاقهم من الأعمال مثل الزراعة و التجارة و الصناعات، مثل المصريين تماما، و ذابوا في الشعب المصري تماما ، و أصبح يطلق عليهم : المصريين مع احتفاظهم بالانتساب إلى قبائلهم حوالي قرنين من الزمان ؛ ومنذ القرن الثالث الهجري أصبح العربي ينتسب إلى البلدة التي يقيم فيها بدلا من اسم قبيلته .

و صاحب انتشار الإسلام بين الأقباط في مصر انتشار اللغة العربية أيضا ، فكانت لغة الكتابة و التخاطب؛ و نلاحظ أن انتشار اللغة العربية بين الأقباط كان أسرع من انتشار

الإسلام ؛ حتى انه منذ بداية القرن الثاني الهجري ؛ و أصبحت اللغة العربية هي اللغة الأولى في مصر؛ بل أصبحت مصر بلد العلم و العلماء من كل جنس ؛ حيث وفد إلى مصر الإمام الشافعي و كان يناظر بعض العلماء المصريين من أهل مصر في علوم اللغة و الدين و كان يعجب لغزارة علمهم ، كما ظهر في ميدان العلوم الإسلامية في القرن الثالث الهجري احمد بن يحيى التجيبي المصري الحافظ ، عالم النحو و الشعر و الأدب و التاريخ و علوم الدين، و هذا يدل على قوة المصريين الأدبية والدينية.

ونرى أن مصر في ظل الإسلام قد تخلت نهائيا عن ماضيها القومي و لأول مرة في التاريخ ، و تخلت عن لغتها – القديمة ، و عشقت الإسلام و حضارته الإنسانية الرائعة ، و غيرت دينها أيضا و نهلت من تعاليم الشريعة الإسلامية السمحاء ، و أنها لم تصبح دولة إسلامية فقط، بل تتزعم العالم الإسلامي قاطبة و تلك بشهادة أبن خلدون فهي أم الدنيا و إيوان

الإسلام ، و ظلت كذلك منذ القرن الأول الهجري وما زالت ينبوع العلم الإسلامي و فكره المتجدد .

(٣) موقف القبائل العربية من المصريين:

احترم العرب المصريين و عاملوهم معاملة حسنة لان الإسلام دين السلام و المحبة و الاخوة ؛ و لم يأت العرب للسلب و النهب و الغزو ، إنما جاءوا لنشر الإسلام و من اجل تهذيب الأخلاق و نشر العدل و التسامح بين الناس ، لم يحتقروا أي شعب من الشعوب التي استولوا عليها ، إنما عاملوهم في تواضع شديد كما أمر الإسلام و عاملوهم بالند ، علم سادة القبط بهذه المبادئ السامية و عرفوا العرب و أهدافهم ، و لذلك سارعوا لمساعدتهم منذ اللحظة الأولى الفتح العربي لمصر ، فتجد يوحنا أحد رهبان سيناء تعاون العرب و يساعدهم في أعمال الفتح لمصر و دخل عدد كبير من الأقباط الإسلام عن إيمان و عقيدة راسخة ، و ذلك رغبة منهم في الانتماء إلى دين الطبقة الحاكمة.

كان العرب يحاربون الروم البيزنطيين فقط و ليس المصربين ؛ حتى ذكر بعض المؤرخين المصريين مثل ساويرس بن المقفع : أن انتصار العرب هو غضب من الله على الروم بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة ، و ذكر يوحنا النقيوسي أن ذلك بسبب الاضطهاد للمصريين بامر هرقل لقيرس بالقضاء على الأرثوذكس ، أضف إلى ذلك كان بالجيش البيزنطي بعض العناصر المصرية الذين تعاطفوا مع العرب و فضلوا فتحهم لمصر ، و ذلك لما سمعوه عن سماحة العرب و دينهم القيم ، الأمر الذي سهل لعمرو بن العاص الانتصار على الحاميات البيزنطية في البلدان التي فتحها.

وآثرت القبائل العربية، التي فتحت مصر ضمان ولاء الأقباط لها؛ فقد عملت منذ اللحظة الأولى باحاديث الرسول عليه السلام إذ أنه أوصى بقبط مصر خيرا في عدة أحاديث، منها قوله " .. أن الله عز و جل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبلها خيرا فان لهم منكم صهرا و ذمة" ، وقصد بذلك السيدة هاجر المصرية زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده

إسماعيل ؛ كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه السلام من الشعب المصري ، وظهر ذلك أن عندما أمر عمرو بن العاص بإعادة بطريق الإسكندرية بنيامين الذي ظل مختفيا من أعين الرومان بسبب الاضطهاد الديني لمدة ثلاثة عشر عاما ، و هو الذي أمر الأقباط بمساعدة العرب و الثورة ضد الروم و قبرس حاكم مصر البيزنطي.

و اعاد العرب للأقباط مذهبهم الديني الأرثوذكس بعد أن ناضروهم ضد المذهب الملكاني مذهب هرقل ؛ و أعادوا لهم كنائسهم واديرتهم ، خططوا على أصحاب المذهب الملكانى حتى يقضون عليه ، و ينفرد الأرثوذكس بمذهبهم المسيحي على سائر المذاهب المسيحية الأخرى ، و نجد أن أصحاب المذهب الملكاني بمصر لم ينالوا حريتهم إلا في فترات قليلة كما حدث في .خلافة يزيد بن معاوية إذ استطاع تادروس أحد اتباع المذهب الملكاني أن يستعيد قوة هذا المذهب في الإسكندرية و مريوط بفضل ما قدمه من أموال إلى الخليفة ، أيضا أرسل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك إلى عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج على مصر

بأن يعطى للملكانيين كنائسهم التي كانت قد أخذت منهم ، و ذلك على اثر الاتفاق الذي ابرم بين الخليفة و الإمبراطور البيزنطي ، و بعد ذلك قام بتنصيب بطريقا للمذهب الملكاني في مصر ، بعدما ألغي هذا المنصب منذ فتح العرب لمصر سنة ٢١هـ/٦٤١م .

أطلق الحكام العرب الحرية الدينية للمسيحيين في مصر ، و أطلقوا معهم حرية بناء الكنائس ، و نجد البطرك اغاتون يبني كنيسة الإسكندرية (القديس مرقص) و ذلك أثناء ولاية عمرو بن العاص زمن الخليفة عثمان بن عفان ، و في ولاية مسلمة بن مخلد على مصر شيدت أول كنيسة في مصر القديمة (الفسطاط) ، و شيدت كنيسة مار جرجس و كنيسة أبي قير داخل قصر الشمع في عهد الوالي عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، و بني أيضا البطرق إسحاق كنيسة حلوان ، و جدد كنيسة القديس مرقص زمن الوالي عبد العزيز بن مروان أيضا .

وفي زمن الوالي الوليد بن رفاعه بني الأقباط كنيسة أبي مينا داخل خطة الحمراء بمدينة الفسطاط ، وفي أثناء خلاقة لهشام بن عبد الملك الأموي تم تجديد و بناء كنائس قبطية

كثيرة ، و أيضا جددت كنيسة الروم بمنطقة قبة الهواء زمن خليفة العباسي المأمون (٢١٤ - ٢١٨ هـ) وفي عهد الوالي موسى بن عيسي على مصر سنة (١٧١ -١٧٢هـ) سمح بإعادة بناء الكنائس التي هدمها الولاة السابقون له ، و ذلك استنادا لفتوى الليث بن سعد و عبد الله بن لهيعة بان عامة الكنائس التي بمصر لم تشيد إلا في الإسلام و في زمن الصحابة و التابعين بوجه خاص أي أن معظم الكنائس شيدت في العصر الإسلامي بمصر.

و سمح الولاة العرب للأقباط بإقامة الإحتفالات والأعياد القبطية في حرية تامة ، على الرغم انهم لم يشاركوا الأقباط في هذه الأعياد كما شارك الولاة الإخشديون و الفاطميون خلال الفترة التى استقلوا بها بحكم مصر عن الخلافة العباسية ، و نجد أن المصريين الذين دخلوا في الإسلام و عروبة شاركوا إخواتهم الأقباط في أحياء أعيادهم القبطية أيضا ، و ذكر ابن عبد الحكم الاحتفال بوفاء النيل و ذكر أسطورة زيادة النيل في شهر بؤونة و ذلك عندما قال الأقباط لعمرو بن العام أن النيل لا يجرى أو يزيد إلا إذا أحضروا بنتا بكرا و زينوها بأحلى المجوهرات

و الملابس و القوا بها في النيل ، فلما سمع ذلك عمرو ، قال لهم : هذا لا يصير في الإسلام ؛ و كتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب بالمدينة ، الذي رد عليه بورقة مكتوب فيها " من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فان كنت تجري من قبلك فلا تجري ، و أن كان الله الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك ؛ ألقي عمرو بالبطاقة في النيل و لما اصبح الصباح ، رأوا النيل قد زاد إلى ستة عشر ذراعا و روى ارض مصر و كان عام رخاء علي أهل مصر.

و هناك احتفال شارك فيه المسلمون و الأقباط على السواء و هو صلاة الاستسقاء ويقام هذا الاحتفال عندما تنقص مياه النيل عن الحد المعتاد لها ؛ وقام بهذه الصلاة الوالي حفص بن الوليد ورود – زمن الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ –١٢٥ هـ) ؛ و قام بها أيضا الولاة المسلمون من بعده على مر العصور؛ كما سمح الولاة العرب بإقامة الصلوات داخل الكنائس باللغة القبطية بدلا من اللغة اليونانية ؛ بالإضافة إلى الأسماء اليونانية للبلاد ورجعت

مرة أخرى إلى الأسماء القبطية مثل أسم أخميم بدلا من الاسم اليوناني بانوبوليس و الاشمونين بدلا من هرموبوليس .

و ترك العرب الوظائف الإدارية في أيدي الأقباط ، فكان في زمن الوالي عبد العزيز بن مروان سنة ٧٠ هـ كاتبان قبطيان الإدارة شئون مصر العليا و السفلي ؛ بالإضافة إلى رؤساء المالية في مصر طوال العصر الأموي كانوا من الأقباط؛ كما كان حاكم مدينة بورة – مدينة بالوجه البحري– قبطيا و من أهل هذه المدينة ، و سمح له العرب ببناء كثير من الكنائس بها؛ و لم يتدخل الولاة العرب في انتخاب البطاركة في تركوها حرة بين الأساقفة الأقباط يقررون يا يريدون بالانتخاب و كان الوالي يؤيد ما اجتمعوا عليه.

وننتقل إلى طائفة اليهود بمصر و كان زعيم أو رئيس هذه الطائفة يسمي باسم رئيس اليهود و كان له سلطة تشريعية كبرى الى أبناء جنسه ، و كان اليهود في مصر يخضعون لنفوذ رئيس اليهود في مدينة بغداد ، و الذي كان يلقب براس الجالوت ، و لما قامت الدولة

الفاطمية في مصر، عزلت رئيس اليهود المصرى بعيدا عن رئيس اليهود في بغداد ، فأقامت لرئيس اليهود في منصبا عرف بلقب الناجد ، وكان يمتد نفوذه على اليهود في مصر وبلاد الشام في الزمن الفاطمي .

وكان رئيس اليهود الحق في الإشراف على الطوائف اليهودية الثلاث ، و أن يشرف على اتصالاتهم بالدولة ، و له الحق في اختيار رؤساء هذه الطوائف ، ويوقع العقوبات طبقا لأحكام . الديانة اليهودية ؛ و كان يشارك في العمل في خدمة مهمات الدولة الإسلامية في مصر؛ و أن تكون لحكامه أيضا لا تتعارض مع أحكام الدولة ، و أن يكون ملما بأحكام الديانة اليهودية و اللغة العبرية تماما، و من الملاحظ أن حكام مصر من العرب كانوا دائما يعترفون برأي أهل الذمة و مشاركتهم في التوقيع على معظم الآراء و القرارات ، و عملوا على رعايتهم وفض المنازعات التي نشبت بينهم، و كانوا يخاطبون رؤساء أهل الذمة باحترام ظاهر.

تبوأ أسقف دير سانت كاترين بمكانة عظيمة لدى الولاة – العرب في مصر، فخاطبوه أحيانا بلقب البطريرك و ألقاب التعظيم النشريف و عاملوهم بكل احترام و تقدير؛ و كان الولاة في بعض الأحيان يطلبون من البطاركة في أوقات الحروب و الفتن و الأزمات الاقتصادية تدبير بعض الأموال اللازمة لعلاج هذه الأحوال؛ و أستعمل هؤلاء الولاة التسامح مع أهل الذمة ، و سمحوا لهم بردع رعاياهم إذا ما قاموا بفتن أو إخلال بالأمن.

أما من جهة القضاء فادخل العرب نظاما قضائيا يقوم على الشريعة الإسلامية بين المسلمين ؛ وسمحوا لأهل الذمة يقاضي ذمي يحكم بينهم ؛ أما إذا احتكموا إلى القاضي المسلم فكان حكم بينهم بالعدل و الشريعة الإسلامية، ففي أواخر العصر الأموي كان القاضى خير بن نعيم الحضرمى (١٢٠ ١٢٨هـ) كان يجلس على باب المسجد بعد صلاة العصر و يحكم بين النصارى و اليهود و كان يقبل شهادة النصارى على النصارى و اليهود على اليهود ، و كان يحكم بينهم جميعا بالمساواة و العدل، و كان القضاة في مصر، يخصصون يوما في منازلهم

للقضاء بين أهل الذمة ؛ . حتى جاء القاضي محمد بن مسروق الكندي (١٧٧ -١٨٤هـ) و سمح لأهل الذمة بالدخول إلى المساجد لاقامة الأحكام بينهم حتى و ولو كان المتخاصمان من أجل الذمة كانا يدخلان المسجد شانهم شأن المسلمين .

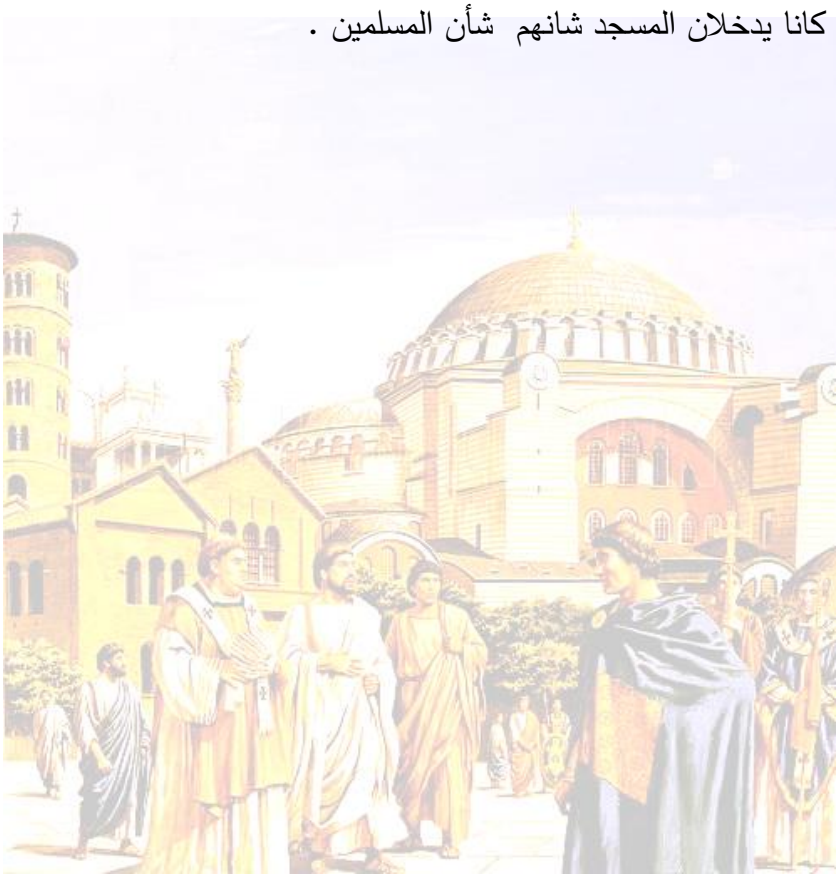

الفصل الثالث

نظم الحكم و الإدارة في مصر الإسلامية

بعد أن استتب الحكم للعرب على مصر بمقتضى معاهدة صلح بابليون الأولى سنة ٢٠هـ /٦٤١م ، و وجدوا بها نظما قامت منذ قديم الزمن ، و أبقى العرب على هذه النظم ، و اصبح العرب يشرفون على الإدارة بوجه عام ، مع مراعاة توليهم المناصب العليا.

اولا : النظام الإداري :

وكان على راس هذا النظام المالي الذي يعين من جانب الخليفة المسلم الذي كان مقره المدينة المنورة ثم دمشق ثم بغداد ؛ و كان يطلق عليه " أمير مصر ، و كان يقيم في عاصمة البلاد مثل الفسطاط و يسكن في دار الإمارة ؛ و مسكن أول عربى و هو عمرو بن العاص دار الإمارة بمدينة الفسطاط و التي تقع في الشمال الشرقي من الجامع المسمى باسمه؛ و كان الوالي له السلطة العامة في مصر و لا يسال إلا أمام الخليفة مباشرة ؛ و من أهم أعماله إمامة المسلمين في الصلاة في أيام الجمع و الأعياد و لذلك أطلق عليه أمير الصلاة ، و تذكر ولايته بأنها ولاية الصلاة .

و العمل الثاني للوالي هو قيادة الجند و رئاسة الجيش ، وكان له الحق أن ينيب عنه قائدا للجيش عند الفتح أو لأعمال الحماية و غيرها و احيانا كان الوالي يقوم بالإدارة المالية أي الخراج مما يجعل للوالي السلطة المطلقة في الولاية ؛ و كان الخليفة في بعض الأحوال يعطى الخراج إلى شخص آخر يطلق عليه عامل الخراج و بعيدا من سلطة الوالي و يكون مسئولا أمام الخليفة مباشرة ؛ و يكون منافسا للوالي ويحد من نفوذه و خاصة في الأعمال المالية ؛ و حدث ذلك عندما طرد عمرو بن العاص الروم من الإسكندرية سنة٢٥ هـ زمن خلافة عثمان بن عفان و آراد عثمان تولية عمرو على الصلاة ، و عبد الله بن سعد على الخراج فقال عمرو " أنا إذا كمان كماسك البقرة بقرنيها و غيري يحلبها " و ترك ولاية مصر رافضا ولاية الصلاة فقط دون الخراج.

و كان الوالي ينوب عن الخليفة في إدارة مصر فهو يشرف على شئون الجيش و أمور الدين ، و يعين صاحب الشرطة ليعاونه في حفظ النظام في الأمن، و يعين صاحب البريد ،

ويعين القاضي بعد إذن الخليفة ؛ و كان يعاونه الكتاب و المشرفون على أعمال الري في البلاد ، و يعين صاحب الخراج إن كانت له السلطتين من قبل الخليفة ؛ و الوالي الاعتماد على صاحب الكورة و على ما زوت القرية أي شيخها في إدارة شئون الكورة و القرية ، كما كان يعتمد على جسطال الكورة و هو الموظف المختص على الأوضاع المالية بإقليمه، و كان الوالي يعين هيئة مركزية للإشراف على شئون الري في مصر ، و بدورها كانت تعين عمال و موظفين يعملون باستمرار على تمهيد و اصلاح الجسور و حفر الترع ، الاهتمام بمرافق الزراعة و الري و الجسور.

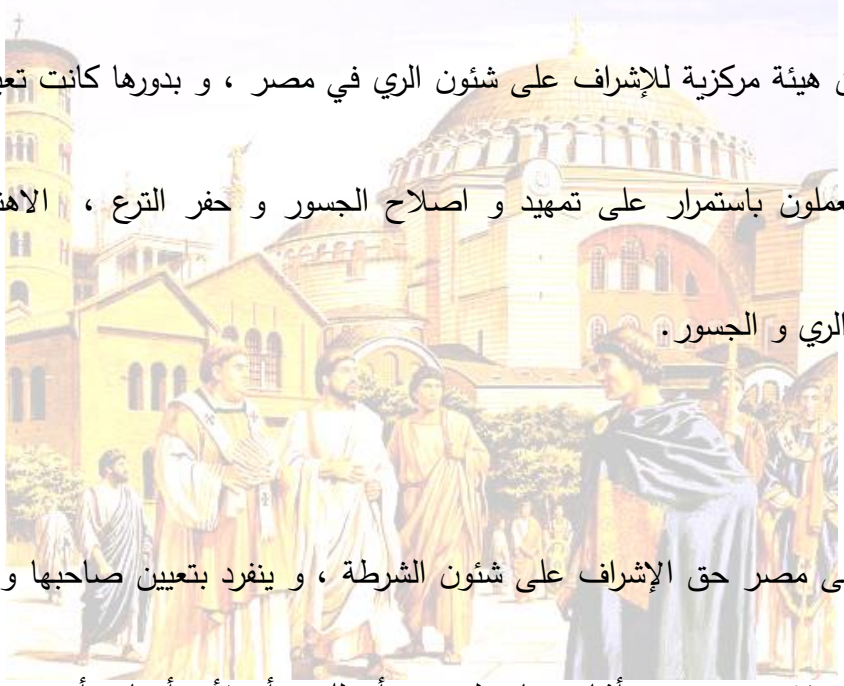

والى مصر حق الإشراف على شئون الشرطة ، و ينفرد بتعيين صاحبها و كان يعتبر نائب الوالي لانه ينوب عنه أثناء غيابه لمرضه أو للحج أو لأي أسباب أخرى ، و ومتولى الشرطة كان ينوب عن الوالي في إمامة الصلاة و حدث ذلك عندما. آناب عمرو بن العاص

صاحب شرطته خارجة بن حذافة للصلاة مكانه و قام بقتله الخارجي عمرو بن بكر أثناء فتنة علي بن أبي طالب و معاوية ابن أبي سفيان ، و أحيانا كان الخلفاء يعينون صاحب الشرطة كما قام الخليفة العباسي المامون بتعين صاحب شرطة مصر سنة ٢١٧ هـ عندما جاء لمصر للقضاء على الثورات و القلاقل بها ، و كان وإلى مصر غالبا عندما يعين صاحب الشرطة فكان عادة يكون من أقاربه او زويه .

ومن أهم أعمال صاحب الشرطة في مصر المحافظة على الأمن الداخلي بمنع الجرائم و عقاب الجناة وتنفيذ العقوبات التي تحكم بها القضاة و بذلك تعد الشرطة من أهم الوظائف السياسية و الدينية في مصر الإسلامية ، و كان صاحب الشرطة يجمع القضاء و الشرطة معا، و كان يحافظ على الاخلاق و تشر الفضيلة و القضاء على الفساد في البلاد ، و المعاونة في إخماد الحرائق ، و تحصيل الجزية ، و ضرب النقود ، فكان صاحب الشرطة يتولى كل هذه الأعمال نتيجة لثقة الوالى في شخصه القوي.

و كان مقر صاحب الشرطة في مدينة الفسطاط مع إقامة الوالى ، وأنشئت شرطة جديدة بمدينة العسكر منذ إنشائها على يد صالح بن على سنة ١٣١ هـ ، و أصبحت شرطتين ، شرطة عليا و شرطة سفلي بالفسطاط و ذلك طبقا لتقسيم مدينة الفسطاط عمل فوق و عمل اسفل ؛ و صاحب شرطة الفسطاط هو متولى الشرطة وصاحبها في مصر وله اليد الطولى على الشرطة العليا في مدينة العسكر، و كان لصاحب الشرطة حق منع النساء من الخروج من بيوتهن و التوجه إلى الحمامات و المقابر ، و سجن المؤنثين و النوائح ، و بلغ من الأمن في مصر الإسلامية أن أبواب الدكاكين كانت لا تغلق ليلا ولا نهارا إنما يضع عليها شباك لمنع الكلاب من دخولها ليلا؛ و أمنت الطرق و الحمامات و أستغلت موارد البلاد اعظم استغلال.

وجاءت وظيفة صاحب البريد في مصر من أهم الوظائف العظيمة ، و لم تكن موجودة زمن الخلفاء الراشدين إنما بدأت خط العهد الأموي، و يقال أنها ظهرت في عهد معاوية بن أبي سفيان ؛ و أمر بعمارة الطرق ، ووطد العباسيون كثيرا من الطرق و جعلوها متصلة ببغداد من

كافة الجهات في البلدان ؛ و كان البريد نظاما رسميا للحكومة و ليس للشعب ؛ و تطور هذا النظام و استخدمه الخلفاء العباسيون التجسس علي ولاة الأقاليم و عمالهم، و كانت هذه الوظيفة تعني الخلفاء و المهمات الرسمية بينهم وبين الولاة .

ومن أهم النظم العربية و الإسلامية التي ظهرت بمصر الإسلامية نظام القضاء الذي يقوم على أساس الشريعة الإسلامية أما النصارى و اليهود فكان لكل منهما قضاءه ؛ وكان عمر بن الخطاب أول من استناب عنه بعض الأشخاص الذين يقومون عنيه بالقضاة في الولايات الإسلامية، وهو الذي عين أول قاضي بمصر و هو عثمان بن قيس بن ابى العاص المهمى سنة ٢٣ هـ،وكان أحيانا يقوم الولاة في مصر بتعيين القضاة ؛ حتى أن الخلية أبي جعفر المنصور ولى قضاء مصر لعبد الله بن لهيعة سنة ١٥٥ هـ ؛ و من بعد ذلك رأينا الخلفاء هم الذين يعينون القضاة في مصر.

وفي بعض الأحيان كان القاضي يشرك الخليفة في الحكم في بعض المسائل الغامضة و من أمثلة ذلك القاضي عياض بن عبيد الله الازدى استفتى الخليفة عمر بن عبد العزيز في مسألة فافتاه فيها ، والجدير بالذكر ان النظام القضائي نشا بمصر بسيطا ثم تطور مع مرور الزمن وكانت الاحكام لا تدون ، و لكن حدث مرة أن اختصم إلى القاضي سليم بن عتر في ميراث فقضى بين الورثة ، ثم أنكروا حكمه و عادوا إليه ثانية فقضي بينهم و كتب بذلك سجلا؛ فكان أول قاضي يسجل سجلا بحكمه ؛ كما اتخذ القضاة شهودا على أحكامهم فقد اتخذ القاضي المفضل بن قتادة (١٧٤ –١٧٧ هـ) عشرة شهود رجال الشهادة ؛ و كان القضاة يداومون السؤال عن هؤلاء الشهود لمعرفة مدى صدقهم ، و من ثبت عدم عدالته فكان يسقط من الشهادة.

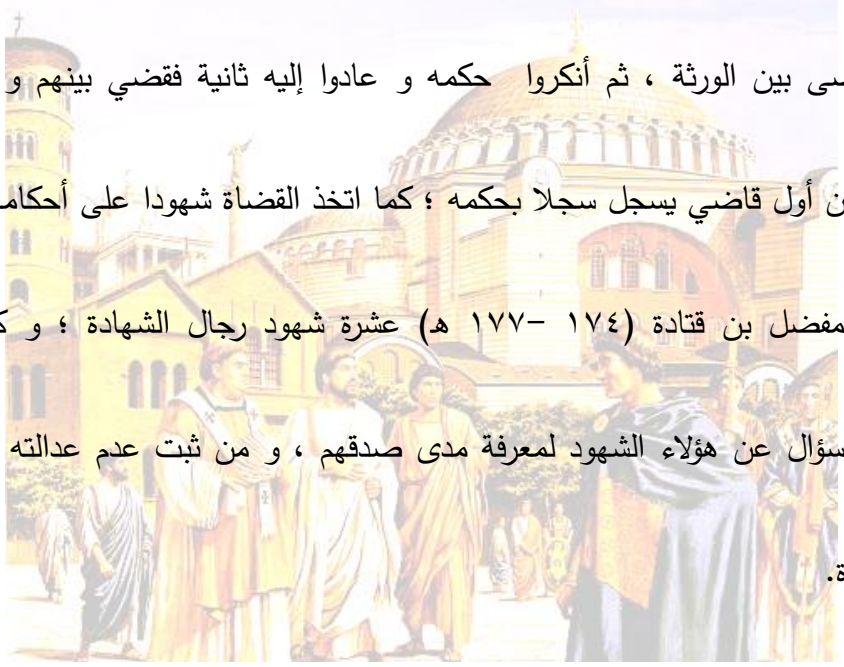

ومن ناحية التقسيم الإداري لمصر بعد الفتح مباشرة أي منذ سنة ٢٠ هـ /٦٤١م ، فكانت مقسمة إلى قسمين إداريين و هما مصر العليا و مصر السفلي ، و كل قسم كان مقسم

إلى أقسام أو كسور ، و كان بمصر ثمانين كورة ، و كل كورة كانت به مقسمة إلى عدة قرى ؛ و كان رئيس الكورة يسمى صاحب الكورة كما أن العرب احتفظوا بالأسماء القديمة فمثلا استعملوا كلمة بجارش (كورة) ، و بجاوكوس (صاحب الكورة) ، و جسطال الموظف المشرف على الأموال و الموازين و هي مشايخ القري.

و من ناحية أخرى فقد كان والى مصر يشرف على بلاد برقة وتوابعها من شمال إفريقية ؛ و ظهر ذلك خلال ولاية عمرو بن العاص ، و"ولاية – عبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ)، و تذكر الدكتورة سيدة الكاشف، ان الخلفاء العباسيين اتبعوا نظام الإقطاع منذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ –١٩٣ هـ) و هي إنطباع بعض الأقاليم لكبار الشخصيات على أن يدفعوا مالا به الخلافة ، و اختلف هذا النظام من الإقطاع في أوروبا لأن الإقطاع الأوروبي كان يتوارثه أبناء صاحب الإقطاع أبناء صاحب الإقطاع ، أما في الشرق فكان ينتهي بموت الإقطاعي ، و اقطع الخليفة هارون بلاد المغرب لإبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ و

في عهد الخليفة المعتمتم (٢٢٧-٢١٨ هـ) قطع أحد الأتراك من قادته و هواشناس التركي ولاية مصر و ذلك سنة ٢١٩ هـ ، وكان يذكر اسم اشناس مع الخلفية في خطب الجمعة ؛ و ضربت السكة باسمه و نقش اسمه على الموازين و المكاييل ؛ و ظل اشناس صاحب إقطاع مصر و هو مقيم ببغداد وولى مصر أحد الأشخاص من قبله حتى مات سنة ٢٣٠هـ ؛ و اقطع الخليفة الواثق (٢٢٧ -٢٣٢ هـ) القائد التركي ايتاخ مصر اقطاعا له ، و اقطعت مصر باكباك التركي و الذي أرسل احمد بن طولون نيابة عنه لحكم مصر سنة ٢٥٤ هـ ؛ و فضل بكباك البقاء بمركز الخلافة حتى لا تحاك ضده الفتن و الدساس.

الخراج:-

و هو مقدار ما يؤخذ على الأراضي الزراعية من ضريبة و كانت تحصل عينا و نقدا ؛ و كانت تحصل ما بين دينارين و دينار واحد و ثلاثة أرادب حنطة عن الجريب (حوالي ثلث فدان) ؛ و كانت تشمل أحيانا الزيت و العسل و بعض أنواع من الأطعمة؛ و أحيانا كان الخراج

يجمع نقدا ؛ وكان يراعى قوة إنتاج الأرض من ضعفه ؛ و حالة فيضان النيل لارتباطه بزراعة الأرض و كانت هذه الضريبة يتحملها الأقباط وحدهم لان العرب انصرفوا عن ملكية الأرض ؛ لأن الخليفة عمر بن الخطاب أمر العرب بالابتعاد عن الزراعة حتى يتفرغوا لعمليات الفتوحات الإسلامية.

الجيش :-

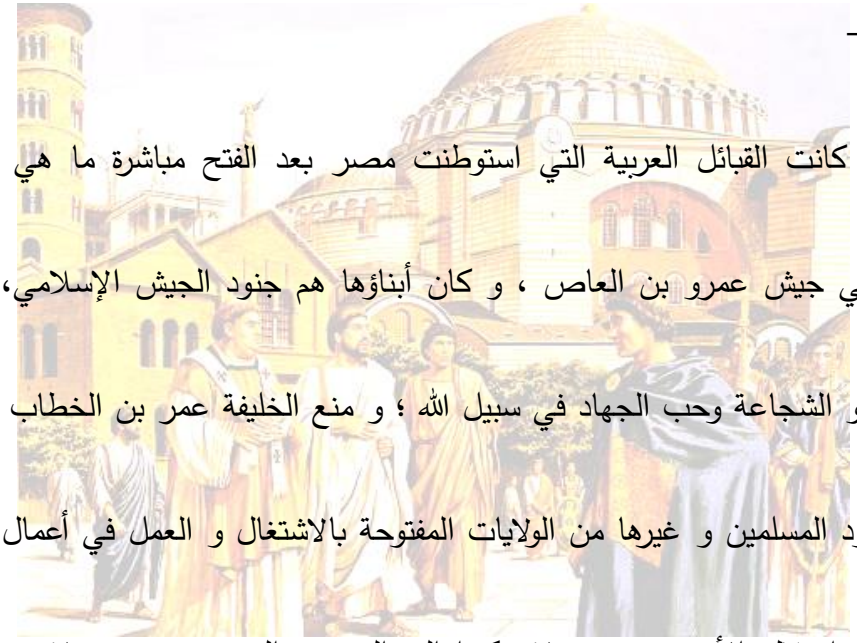

و كانت القبائل العربية التي استوطنت مصر بعد الفتح مباشرة ما هي إلا كتائب عسكرية في جيش عمرو بن العاص ، و كان أبناؤها هم جنود الجيش الإسلامي، و امتازوا بالحماسة و الشجاعة وحب الجهاد في سبيل الله ؛ و منع الخليفة عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" الجنود المسلمين و غيرها من الولايات المفتوحة بالاشتغال و العمل في أعمال الزراعة و حرم عليهم امتلاك الأرض ، حتى لا يركنوا إلى النعيم و الترف ؛ و حتى لا تبهرهم ثروات

البلاد الهائلة ؛ ولذلك كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء البلاد و الأجناد من المسلمين بأن يمنعوا الجند من الزرع و المزارعة و أن رزق عيالهم سائل و عطاءهم قائم لا ينقص منه شيئا.

و لذلك كان أمير الجيش يراقب أفراد جيشه و لا يسمح لهم بمزاولة أعمال التجارة أو الزراعة أو أعمال أخرى تشغلهم عن الجهاد و تنفيذا لأوامر الخليفة عمر بن الخطاب؛ الأمر الذي جعل الجهاد همهم الأكبر ، و بالتالي قرب إليهم قلوب الشعب المصرى لانهم لم يتدخلوا في شئونهم ؛ و لذلك نجد الوالي عمرو بن العاص ينفذ أوامر الخليفة عمر بن الخطاب بإنشاء ديوان الجند ليدون الجنود فيه أسماءهم و أسماء أولادهم و آسراتهم ، و ذلك لتقدير العطاء حسب حالة كل جندي الاجتماعية؛ ثم دون الوالي عبد العزيز بن مروان تدوينا ثانيا للجند العرب ؛ ثم الوالي قرة بن شريك صاحب التدوين الثالث ، ثم نشر بن صفوان (١٠١ –١٠٢هـ)، صاحب تدوين الجند الرابع في مصر ؛ و بلغ عدد أهل الديوان زمن معاوية بن أبي سفيان (٤٠ –٦٠هـ) أربعين ألفا ،كما جعل معاوية على كل قبيلة عربية رجلان يتفقد القبيلة كل صباح و

يسأل أهلها هل ولد فيكم مولود؟ أو حل عليكم ضيف ، فكان يكتب ما يذكرون له ثم يقوم بتسجيل أسماءهم بالديوان.

وهناك طائفة المطوعة التي ألحقت بالجيش العربي و هم من أهل البلاد و الذين كانوا بالجيش المصري عندما فتح العرب مصر وكانت لهم أدوار ثانوية و لا يشتركون اشتراكا فعليا في أعمال الجيش العربي ، و كان عملهم مقصورا على مصر فقط ؛ و لم يكن لهم عطاء و لم يثبتوا في الديوان ، إنما كانت تصرف أعطياتهم من الصدقات و من احباس السبيل (و هي الأوقاف التي توقف في سبيل الله) .

و أخيرا أصبحت مصر طليعة التوسع العربي في بلاد المغرب، و دعامتها العسكرية إلى أن نجح عقبة بن نافع في تأسيس القيروان سنة ٥٠ هـ ؛ ثم بسط موسى بن نصير بسلطانه على بلاد المغرب و على الرغم من ذلك ظلت ولاية إفريقية لم تنفصل عن مصر بل كانت تتبعها من الناحية السياسية و العسكرية ، اما بلاد النوبية فنظر إليها القادة العرب على أنها

منطقة هامة لتامين حدود مصر الجنوبية ، و ذلك منذ عهد عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد الذي عقد معهم معاهدة البقط، و التى حددت المعاملة بين العرب و النوبيين ثم زحفت القبائل مملكة النوبة وعربتها ، و ايضا نجد بلاد البجة التي قطنت شرق صعيد مصر و عقد معهم عبد الله بن الحبحاب صلحا نظم العلاقة بين العرب و البجاة ، و ايضا دخلت قبائل البجة الإسلام .

الأسطول:-

لم يكن العرب لهم دراية بركوب البحر لانهم عاشوا بصحراء شبه الجزيرة العربية ، و كانوا دائما يخافون من ارتياد البحر ، و خير و دليل على ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كان لا يسمح بالمعارك البحرية للمسلمين ، و بالتالي أمر عمرو بن العاص أن يجعل عاصمة مصر في مكان لا يحول بينه و بينهم بحرا ؛ لأنه يعلم أن أمة العرب في ذلك الوقت أمة برية و

ليست بحرية ؛ و لذلك أمر المسلمين بتعليم أولادهم الرماية و السباحة و ركوب الخيل؛ نظرا لانه يعلم ما سوف يكون للعرب من حاجة إلى ركوب البحر و استخدم الأساطيل البحرية .

و عند طلب معاوية بن أبي سفيان من الخليفة عمرين الخطاب أن يسمح في غزو الروم عن طريق البحر ، رفض عمر بن الخطاب ؛ و لكن في عهد الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ –٣٥هـ) جهز العرب أسطولا يحمى بلادهم الساحلية ، وساهم الأقباط في بناء هذه الأساطيل ؛ بحيث لم تأت سنة ٣٣ هـ حتى امتلك العرب أ سطولا ضخما استطاعوا أن يحطموا السيادة البيزنطية في البحر المتوسط و يستولوا على بعض جزره ؛ و في سنة ٣٤هـ أراد أسطول روماني مهاجمة سواحل مصر ، فخرج أسطول من مصر تحت قيادة عبد الله بن سعد ، و ارسل معاوية بن أبي سفيان من سواحل الشام أسطولا تحت قيادة بسر بن ارطاة للتعاون مع الأسطول المصري ؛ و تقابل الأسطولان مع الأسطول البيزنطي الذي كان تحت قيادة قنسطانز الثاني في قوتكس على ساحل لكيا بالقرب من سواحل آسيا الصغرى في معركة

عرفت باسم ذات الصوارى و ذاك لكثرة.صوارى السفن، و في هذه المعركة ربط العرب المبين بعضها البعض بسفن الروم، و بذلك استطاعوا قتال الروم وجها لوجه مثل المعارك البرية ، وانتصر العرب على الروم في هذه المعركة، ووصفها المؤرخون بأنها اليرموك الثانية و يعتبر معاوية بن أبي سفيان أمير البحر الأول عند المسلمين ، أما امير البحر الثانى فهو وإلى مصر، عبد الله بن سعد ، فقد تمكن العرب من الاستيلاء على قبرص ، و تمكن معاوية أثناء ولايته على بلاد الشام أن يغزو مضيق القسطنطينية في سنة ٣٢هـ؛ و استخدم عبدالله بن سعد نور صناعة السفن المصرية ، كما أنشئت دور الصناعة السفن سنة ٥٤ هـ بجزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط .